

سجّاح

الكتاب : سجاح

التصنيف : رواية

المؤلف : نصر رأفت

التصحيح اللغوي : دعاء عطية

تصميم الغلاف : إيمان رمضان

التنسيق الداخلي : محمد رزق

الطبعة الأولى : 2026

رقم الإيداع : 9594\2026

الترقيم الدولي : 978-633-8409-03-4



الناشر: دار انطلاق للنشر والتوزيع

للتواصل: startpublishing372@gmail.com

من_هنا_تبدأ_الحكايات_ويبدأ_الأثر

تليفون الدار: 01155799321

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكتاب فقط لا غير.

سبحان

روایت

نصر مرأفت

انطلق

(إِنَّ التَّارِيخَ لَيْسَ مَا حَدَثَ
بِالْفِعْلِ، إِنَّمَا مَا نَرُوهُ)

جون ثالث فيرين

مؤرخ ومستشرق إسباني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ.) [آل عمران: 100]

صدق الله العظيم

(1)

بطاقة هوية:

- الاسم: سجاح التميمية.

- الميلاد: 25 ق. الهجرة / 598 م.

- الديانة: النصرانية / الإسلام.

- المكان: الجزيرة الفراتية.

- القبيلة: بنو تميم بأرض العراق.

- الحالة الاجتماعية: تزوجت 3 مرات.

- الأبناء: أنجبت ولدين.

- الحياة العملية: شاعرة، مفسرة أحلام، كاهنة، متنبئة، قارئة ومحفظة للقرآن الكريم.

- الخدمة العسكرية: حروب الردة.

- الوفاة: عام 55 هجرية / الموافق 675 م.

- العمر: 80 عامًا.

- مكان الوفاة: البصرة بأرض العراق.

(2)

من تكون سجاح؟!

امراً لها عطر فواح يملأ الصحاري، ويطغى في البراح...

هي فضيحة الفل في البوادي، وسخاء الطبيعة في الواحات، رقتها عنوان العطش، وقوتها تتدثر برداء أنوثتها... والأنوثة سلطنة جبارة، ربما تُسيء استخدامها عند الضرورة.

حين تغضب، تبدو عليها صرامة سيف الإسلام خالد بن الوليد، وبطش الحجاج الثقفي طاغية العراق، وجبروت عنتر بن شداد، وإذا تبسمت وغمرت بعينها الواسعتين الكحيلتين بيد الإله، تعلق أفئدة العشاق فوق شجرة شهوتها العالية.

أنثى مكتملة، لا مثيل لها في الفتنة والسحر والدلال، آسرة كاسرة، وردة برية نبتت في صحراء الجزيرة العربية، ترتدي البياض الشاهق الممزوج بالسمرة اللامعة، خلاسية مثل أغنية من أشعار قيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية.

زحام الشموس في جدائل صفائها، تأريخ موثق لجغرافيا الأنوثة منذ خلق الله حواء. علمها الشيطان فن الإغواء، وقال عنها وعن بناتها: إنهن ذريعة إبليس.

من يراها يرفع رايته البيضاء، ويسلم نفسه إلى أساور العشق الفولاذية، ويمنح روحه إلى سرير دفئها في الخيمة النائية، هناك على حافة البداية!

كما فعل ثعلب الصحراء مسيلمة بأكاذيبه الملونة، وتدفاً بشمسها في ليالي الشتاء الباردة، فأعادت عنده المعاني إلى فراديس الغرام، وأبطلت مفعول قرآنه المزيف، وجعلته يؤمن بأن الله حق.

عندئذ قال لنفسه: كفرت يا مسيلمة بالنبي الأمي، وآمنت بأن نهدها كرة في يد الهوى، وأن الإيمان لا يُباع ولا يُشترى... ألا إن سلعة الله غالية؟!

أدركت، أيها النبي المزيف، أن سباح التميمية امرأة، ينبت على ثغرها ساحل الياسمين الذي يهدي الرجال وروداً معطرة من حداقها الآسرة!

عرفها اللئيم الكذوب، لكنه صدق في وصفها حين قال عنها: إنها حين تحررت من سترها، وفتحت له أبواب حداقها الزاهرة، ودخلها من سرداب مخدعه، جنَّ جنونه، فمن غيرها مزق قميص جنونه واستفزز رجولته؟!

نطق فيها بالحق صاحب الآيات الشيطانية، معترفًا بأن حمى الجمال
الخلاب تكمن في استدارة خصرها، ونهرها الذي فاض بخمرة حتى
أسكرته من عسلها.

عندما تضحك تلك الحورية الجنية بدلال وإثارة، تهتز نخلتها، ويتراقص
سعفها الزاهي الأفعواني، فينضج التمر في عروق المغرمين، وكأنها لم تُخلق
من طين مثل خلق الله الباقين.

يا ترى، من يمشط لغزالة الصحراء الشاردة تلك غابتها؟ ومن يجرؤ أن
يستنشق نرجس كفيها؟ ومن يقدر على ترويض روحها المتمردة؟!

ما زال صوتها العذب المطلي بالشبق يتردد، حتى يدخل عبير الليل
الطويل في لهاث كالمختضر!

هل يصدق عاقل أن العاشق المكذوب نبيا الأفاق دفع مهرها صلاة
محرمة؟!

إن وردة الصحراء بنت النهرين في عراق المجد، هي درة الأشواق، تدرك
أثر نصل القرنفل، وما يفعله في قلوب الرجال، وسحر جسدها المبتل
بالفتنة، والمغسول بماء الاشتياق.

هي امرأة استثنائية من جنس النساء، ولا يخفى على أحد أن النساء
يحملن سيوفهن في أفواههن!

ملأت سباح الأرض ضجيجًا، زرعت الأكاذيب في ربوع الصحراء، وسار
وراءها رجال صناديد، ثم عادت من مروج الأكاذيب، وأعلنت على الملأ
أنها ضلت الطريق، وعادت لعقلها الحكيم، وأفنت ما تبقى من عمرها في
التوبة والندم.

قالت ذات يوم:

– لن أكون ظلًا في عالم لا أملكه، لن أكون نخلة ضامرة تذروها رياح
الصحراء، لا بد أولاً أن أملك زمام نفسي، ثم أملك هذا العالم من حولي،
لكي أكون شيئًا مذكورًا في ذاكرة الدنيا، وأعيش خالدة مخلدة آلاف
السنين، فلم أولد لأموت بعد حين من الدهر، ويطويني النسيان والعدم،
كما تموت الغزلان في الصحاري والوديان، وتصبح نسيًا منسيًا.

وقال لها الصديق:

– استغفري لذنبك يا بنت التمي، يا من ظننت نفسك تفاح الجداول،
ونهرًا عذبًا فراتًا في الصحاري القاحلة، كسراب يحسبه الظمآن ماء! يا من

كنتِ عاصمة الأنوثة العصماء في مدينة الخيام والنخيل والبوادي، وصليل
السيوف وصهيل الجياد... استغفري قبل فوات الأوان.

وصاح في وجهها ذات مرة أعرابي حكيم:

– (لقد عاقب الله النساء بعشر خصال: شدة النفاس، والحيض، وجعل
ميراث اثنتين ميراث رجل واحد، وجعلها ناقصة الدين والعقل، لا تصلي
أيام حيضها، ولا يُسلم عليها، وليس لها جمعة ولا جماعة، ولا يكون منهن
نبي، ولا تسافر إلا بولي).

في هذه المرأة التيمية، مثل معظم النساء، صفات ثلاث من اليهود
(يتظلمن وهن الظالمات، يحلفن وهن الكاذبات، ويتمنعن وهن الراغبات).

فليغفر الإله لك، يا أيتها التيمية، ولمن سار على خطاك في دروب
الصحراء، قبل أن يزوي كوكبك الوضاء.

10 فبراير

الجزيرة الفراتية.

25 قبل الهجرة / 598 م

هنا، في تلك الجزيرة بين النهرين، وعلى هذه البقعة السحرية من أرض الله الواسعة في عراق المجد التليد من أرض العرب، تسكن الشمس بخيوطها الذهبية، ولديها إقامة دائمة أبدية، فلا تغادر موطنها إلا قليلاً... تمنح وجوه السمرات العذارى صكوك الفتنة والجمال بصبغة خلاسية براقية، لا مثيل لها في الدنيا كلها إلا هنا... حيث يتبختر التاريخ، مختالاً فخوراً مزهواً بذاته وسماته، فوق الأرض العتيقة الممتدة على طول النهرين.

مع شهقة النهار الأولى... والشمس لم تعلن بعد عن حضورها الجديد، والفجر ما زال يتنفس، دوت صرخة لامرأة في مخاضها العسير، فولدتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى. فرحت بها فرحة كبرى، على غير عادة العرب الآثمة في بغض البنات، ووأدهن تحت ظل الجاهلية!

كانت الأم – منتهى بنت القيسي- بن تغلب – تحلم بالأنثى؛ لأن عندها من الذكور أربعة، وها هي قد جاءتها الأنثى تسعى لتكمل حبات عنقود الأسرة، وتختم بها عقدتها المؤلم مع الإنجاب... والعبرة بالخواتيم.

استقبلها الأب الحارث بن سويد بن عقفان بن تميم بفتور، وكأنه في غنى عنها، ويكفيه الذكور، على اعتبار أن نظرة العرب – آنذاك – للأنثى أنها من تجلب الفضيحة والعار، أما الذكر فهو من سيجلب الغنية والنصر!

ولم يكن يدري ماذا تُخبئ له الأقدار في جعبة هذه الأنثى التي لا يبالي بشأنها، ويكاد يزدريها، ويمنحها الكثير من الاحتقار؟!

ما كان يريد لها أنثى على الإطلاق، بل يسعى للمزيد من الذكور، فهم ذخر القبيلة وعزها... أما البنات فهن للديار أو للزواج، إذا سُمح لهن أن يبقين كائنات حيّة، ولا مجد ولا عز يأتي من وراءهن.

وما يدريه أنها ستكون ملء الأسماع والأبصار، وتقود الرجال بجرأة لمواجهة الأخطار، وترفع راية قبيلة الأب بني تميم، وقبيلة الأم بني تغلب... إنهم يحبون الفخر في كل دار، وفي حلٍّ وترحال.

قبل أن تكمل سباح ربيعها الأول في هذه الحياة الدنيا، وهي ما زالت رضيعة في لفافتها، لم تفتح بعد عينها لترى ما حولها، كان أبوها الحارث

التميمي يفكر جدّيًّا في وأدها، وكيف سيواربها الثرى، وزوجته متشبثة بها
تشبث الجسد بالروح!

ولسان حاله يهمس، وشيطانه يوسوس له: لماذا لا يفعل، وهي أنثى؟!
إن الأنثى لن تخرج في قوافل التجارة إلى الشام صيفًا، أو إلى اليمن شتاءً،
مثل أشقائها الأربعة (حنظلة، ويربوع، وعقفان، ووزان)، لتزيد حصيلة
القبيلة من الدراهم والدنانير.

كما أن الأنثى لن تحمل السيف وتحمي الديار، وتخوض الغمار لو دقت
طبول الحرب، وكُتب القتال على القوم الأغيار، ولن تصد المعتدي لو
أغار على الأحرار... إنها أنثى، وليس الذكر كالأنثى.

يمتطي الحارث بن سويد بن عقفان التميمي – المعروف بأبي حنظلة –
فرسه، ويمضي متشاقلاً إلى أطراف الصحراء، الموازية لمنازل آل تميم في
أرض الجزيرة الفراتية، على مقربة من ديار بني عامر من ناحية الجنوب،
وهي تحاذي المدينة المنورة من جهة الشرق، ممتدة مترامية الأطراف،
راسخة كديناصور منبسطة على الأرض في استرخاء تام نحو الخليج
الفارسي، وتتصل من ناحية الشمال بمصب نهر الفرات.

يبدو الرجل مهمومًا شاردًا على غير عادته، وهو سيد قومه وكبيرهم، وأكثرهم مالا وثراء، لا يطيق أن تكون له أنثى تسعى على وجه الأرض، ولا ينبغي أن تدب طفلته في الديار العامرة، وعنده من الذكور أربعة سيملاؤن عليه الدنيا فخرًا وصخبًا وعزًا حينما يشبّون عن الطوق.

لا بأس... إن شيطانه سيطر عليه، وقال له إن البنات ذريعة الشيطان، وبذرة الفضيحة، فاقتلها الآن قبل أن تجلب لك العار، فأنت سيد القوم وكبير الديار... وماذا يُظن بالأنثى أن تفعل لأبيها سوى أن تمرغ رأسه في الغبار؟!

شيء واحد يمنعه من دفنها حيّة في الرمال منذ مولدها حتى الآن، ألا وهو تمسك زوجته منتهى بنت القيسي- بن تغلب، وتعلقها بوليدتها إلى حد الهوس، حبّ ما بعده حب. وعندما فاتحها الحارث في الأمر، صرخت في وجهه قائلة:

— إذا أردت أن تقتلها فاقتلني قبلها، حتى لا أجمع فيها، بعد أن انتظرتها بشوق ولهفة — عدة سنوات — منذ تزوجتك... ألا تفهم أن البنت لأُمها والولد لأبيه؟!

— ما لنا حاجة بها، ولدينا من الذكور أربعة، يا أم حنظلة!

– الذكور الأربعة عندي في كفة، وسباح وحدها في كفة، وأظن أن كفة
سباح ستربح وترجح.

ضحك ساخرًا:

– منذ متى كانت الأنثى ترجح وترجح؟ أظن أن الأنثى خلقت لتفضح؟!
قالت بإصرار وعناد:

– لا تفعل يا حارث فعل الحمقى، فتندم طوال عمرك، وتقتل بيدك فلذة
كبك؟!

– يا أم حنظلة... وماذا ستفعل لي الأنثى سوى أن تجلب لنا العار إلى
باب الدار؟!

– أي عار يا رجل؟!

ليس كل بنات حواء يجلبن العار، يا ابن التمي، إن كل أنثى تحمل بين
يديها النور لمدينة كاملة، لكنكم معشر- الرجال لا ترون سوى تحت
أقدامكم، وتنظرون لبنات حواء على أنهن مجرد وعاء لنزواتكم، تبًا لكم
جميعًا ولشهواتكم اللعينة.

- ومنذ متى، يا زوجتي الحبيبة، كانت الأنثى تجلب الخير أو تدعو للفخر، وعندي من الذكور من يحملون اسمي أبد الدهر، ويرفعون شأن قبيلتي ويدافعون عن عزنا وشرفنا ومجدنا؟!

- ربما لن تحمل الأنثى اسمك كما يحمله الذكور، وربما لا تكون فخر قبيلتك كما تطمح، لكن الأهم والمؤكد أنها ستحملك أنت بشحمك ولحمك وهمومك، يا سيد بني تميم وكبير قومك!

بنبرة غاضبة هتف الرجل:

- ما هذا الهراء يا امرأة؟ كيف ستحملني؟!

همست برفق:

- عندما تبلغ من الكبر عتياً، وتنال منك الشيخوخة، ويشتعل رأسك شيباً، ويضربك الضعف ويصيبك السقم، ويهن العظم منك، سترعاك ابنتك الوحيدة سباح.

صاح مستنكراً متسائلاً:

- والذكور أولادي وزوجاتهم وأحفادي... ماذا سيفعلون؟!

تبسمت بثقة وهممت بنبرة لائئة:

– يا أبا سباح... لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه، فالولد لزوجته وأولاده فحسب، أما البنت فلزوجها وأبيها وأمها وكل أهلها... إن البنات مصايح الديار وأنوارها المضاءة، يا سيد بني تميم وكبيرهم الحكيم.

تنهد الرجل بضيق، وكظم غيظه في صدره، ولزم الصمت إلى حين، على أمل أن يعاود الكرة، ويحاول إقناعها مرة أخرى، أو عساه يأخذ طفلته عنوة أو خلسة، فيواربها الرمال ويدفنها في حفرة قريبة أو بعيدة عن الديار، وينتهي أمرها ويرتاح من همها.

وعندما هدأ وسكت، قصت عليه الحلم الذي زارها في منامها:

– أتدري يا حارث بماذا حلمت ليلة البارحة؟!

– بماذا يا أم حنظلة؟!

– حلمت أن ابنتنا سباح تمتطي حصانًا أسود اللون، قوي البنيان، عربيًا أصيلًا، وهي بكامل زينتها وملابسها الثمينة الزاهية، وحول عنقها عقد فريد من اللؤلؤ، وفي معصمها أساور ذهبية، وتصعد إلى السماء بفرسها الرهوان الجموح، وتقترب من النجوم وتكاد تلامسها.

ثم تمد يدها لتلتقط أقرب نجمة ترصع صدر السماء، لكن فارسًا مغوارًا ملثمًا بملابس بيضاء، فوق حصانه الأشهب، وفي يده سيفه البتار المسلول، وكلما حاولت سباح أن تمد يدها لتلتقط تلك النجمة اللامعة في السماء ببريق وضاء، يمد سيفه ليحول بينها وبين ما تريد، ويمنعها من هدفها المنشود.

تقلصت ملامح الرجل، وتجهم مدهوشًا، ثم سألها:

— ومن يكون هذا الفارس يا أم حنظلة؟!

— لا أدري... كان ملثم الوجه بطرف عمامته البيضاء، ولا يظهر من وجهه ورأسه سوى عينيهِ الواسعتين المكحولتين الجريئتين، وبنياه القوي المتين، ولم أتبين منه سوى صرامته وحسمه في التصدي لسباح بعناد، ومنعها من أن تبلغ ما تريد.

— وهل تراجعت سباح؟!

— كلما حاولت مرارًا أن تفعل، مد سيفه ليمنعها بكل قوته، كانت متعلقة بتلك النجمة بشغف، كطفلة تتعلق بدمية تحبها، ولما منعها بكت بدموع حارة.

بهت الذي سمع، وتساءل بلهفة:

– وماذا حدث بعد ذلك؟!

– إن الفارس المغوار، قوي البنيان، حذرهما بسيفه الصارم، وعندما لم ترجع ولم ترتدع، مد سيفه ووضع على عنقها بنصله الحاد المسنون اللامع، وهددها لو لم ترجع عما في رأسها، وتترك نجوم السماء في حالها...

ثم سكنت فجأة، وتملكها الحزن والأسى، فعاد الحارث يلح بالسؤال:

– وماذا فعلت سباح مع هذا الفارس المجهول؟!

بانكسار قالت أم حنظلة:

– تراجعت قليلاً خوفاً وفرعاً، وقالت له بأنها لن تقترب من هذه النجوم، ثم سألته: من أنت؟ أمط اللثام عن وجهك حتى أراك؟!

تساءل الحارث بذهول:

– وهل فعل؟!

– نعم... أماط اللثام عن وجهه، فرأته سباح، ثم قالت: لن أفعل هذا مرة أخرى... لقد فهمت وعرفت، ومن يعرف ليس كمن يجهل، لكن لا تقتلني.

– ومن يكون هذا الفارس، يا أم حنظلة، وقد رفع اللثام عن وجهه؟!
– بدا وجهه مشعًا بالضوء المبهر، ولم أتبين من وهج النور الشديد ملامحه.
صاح الرجل بصوته الأجش الغليظ:

– إن هذا لشيء عجاب... أهذا خير أم شر، وما العمل الآن؟!
– علينا أن نسأل أهل الخبرة في تفسير الرؤى والأحلام، يا حارث.
– من تقصدين يا منتهى؟!

– الزبراء بنت رثام، الكاهنة العجوز، دون سواها.

16 مارس

دير الكاهنة.

24 قبل الهجرة / 599 م

دعا الحارث التميمي زوجته إلى ضرورة عرض الأمر على الكاهنة الزبراء بنت رثام، عساها تفتيهم في أمر ما جاءها بالمنام بشأن سباح.

لقد كانت الكهانة موجودة عند العرب أيام الجاهلية، ومعترفاً بها في الجزيرة العربية، وللكهانة قداسة دينية، ولها سلطة روحية ونفوذ واسع، إذ كان الكهان يوهمون الناس بأنهم يعرفون الغيب، ويقرؤون المستقبل عن طريق ما يتلقون من الوحي عن الجن.

كان الناس يلجأون إليهم في كثير من الأمور، يُحكّمونهم في المنازعات، ويسألونهم في المنافرات، ويلتمسون بركتهم في صراعاتهم اليومية، وشؤون حياتهم، ومستقبل أيامهم وأحداثهم، بجانب الرؤى والأحلام، وغير ذلك من أمور غيبية تحتاج إلى تأويل وتفسير وتبصير.

وكان الكهان في بعض الأحيان يُنبئون بعض القوم بأحداث ووقائع ستقع لهم في قادم الأيام، منها الخير ومنها الشر، ولم تكن الكهانة آنذاك مقصورة على الرجال فحسب، بل برعت بعض النساء في ارتداء ثوب الكهانة، ولعل أشهرهن الزبراء.

ومن أشهر الرجال الكهنة في الجزيرة الفراتية شِقُّ أنمار، وهو رجل أسطوري يُحكى عنه أنه كان شِقُّ إنسان... له عين واحدة، ويد واحدة، وساق واحدة!

وهناك أيضًا الكاهن سطيح الذئبي، ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وأن وجهه في صدره، ولم يكن له عنق.

ومن أشهر الكهان أيضًا آنذاك المأمور الحارثي... أما النساء فكنَّ قليلات معدودات على أصابع اليدين، لكنهن بارعات شهيرات، قادرات على خطف الألباب، وإثارة دهشة الناس، بأزيائهن ومظهرهن وسجع الكلام، وطقوس غريبة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن ألمهن في تلك الفترة، وأكثرهن تأثيرًا وصيتًا، الكاهنة طريفة بنت المدعوس التي كانت تقيم في بلاد اليمن، وهناك أيضًا الكاهنة فاطمة الحثعمية التي تقطن مكة المكرمة، والزرقاء بنت زهير التي تسكن اليمامة.

ولعل أشهرهن صيتًا وأعلاهن نجمًا وأكثرهن سمعة هي الزبراء، كاهنة بني رثام.

واعتماد الكهان والكاهنات في أحاديثهم على سجع مصطنع، فيه غموض يثير الرهبة، وإيهام يدعو للانتباه، وكأنما كانوا يعمدون إلى زيادة التأثير في السامعين، وإلهاء الناس عن التتبع والتفكير لما يُلقى إليهم من الأخبار الغريبة والأحداث الغريبة العجيبة.

وذات يوم أذرت الزبراء قومها، وحذرتهم من إغارة الأعداء عليهم، فقالت لهم بنبرة مخيفة:

— واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق، إن شجر الوادي ليأدو ختلًا، ويحرق أنيابًا عصلًا، وإن صخر الطود لينذر شكلاً، ولا تجدون عنه معلاً.

ذات يوم جاءها ربيعة بن نصر- اللخمي، أحد ملوك بلاد اليمن، وقص عليها رؤيا رآها في منامه، فأخبرته بأن جند الحبشة سيغزون بلاد اليمن، وقالت له بسجع يبعث على الدهشة:

— أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليلكن ما بين أبين إلى جرش.

من المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون كلامهم بمثل هذا السجع الأجوف،
بدليل أن العرب حين سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل، لكن الله رد
زعمهم هذا بقوله الكريم في كتابه المبين: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ
بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور: 29].

وقوله سبحانه وتعالى:

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ (42)} [الحاقة: 41، 42].

في تلك الأثناء، كانت الزبراء عجوزًا شمطاء على مشارف السبعين من
عمرها، وتحلم بأثى مثلها تورثها الكهانة، وسجع القول، وعلوم القراءة
والكتابة، وأصول النصرانية، وتوصيها بسيرتها الذاتية.

ولذلك، عندما زارها الحارث التميمي وزوجته منتهى بنت القيسي، وعرضا
عليها أمر تلك الرؤيا الغريبة، برقت عينها وتلاأت، وكانت امرأة لها
هيبة تتفاقم هيبتها إذا تكلمت، شعرها أسود فاحم كالليل الدامس، لم ينل
منه الشيب على غير العادة، وهي في عقدها السابع، تبدو راهبة وحشية
بزها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها ويديها.

تبرق عيناها حين تتكلم، بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئر
سحيقة، ولها نظرات حادة من عينيها الواسعتين العميقتين، نخيفة العود،
عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبة مخيفة، نظراتها جادة جريئة كقطة برية
شرسة.

قالت لهما بحزم:

— هذه الصبية سيكون لها مكانة عليّة... اتئوني بها أعلمها أصول الحكمة،
وفنون العبرة، لتكون كاهنة نبية، تعرف الأخبار الغيبية، وتنبي الناس بما
خفي من أسرار، ولسوف تأتكم سباح بأمر لم تأت به من قبلها إنسية!
ثم تنهدت بعمق، وهي تحمق في الأب والأم، وهما في حالة ذهول مما
يسمعان من كبيرة الكهان، عظيمة الشأن في هاتيك الزمان، وقد هتفت
منتهى باستغراب متسائلة:

— كاهنة نبية... ماذا تقصدين؟!

تجاوزت السؤال، وقالت آمرة بحسم وبلا جدال:

— لا تقتلوها فتندموا... فقط اتركوها لي، ولسوف ترفع تلك الصبية من
شأن قبيلتها، وستكون فخر عشيرتها في أوان معلوم، وزمان مرسوم،

وتذود عن قومها، وتقود جيشها، وتمضي لحال سبيلها مرفوعة الرأس، مهابة الجانب.

بدا الحارث واجماً مستغرباً، ثم سألها:

— كيف لها ذلك، أيتها الكاهنة، وهناك فارس غامض يمنعها بسيفه من أن تصل إلى مرادها لتقبض بيدها على نجمة في السماء العالية؟!

عاد صوتها الأجش الخشن يأتي من أعماق سحيقة:

— ليس مهمّاً أن تقبض على تلك النجمة الساطعة العالية، لكن المهم أنها وصلت إلى العلا، واقتربت من النجوم الساطعة، ولمع بريقها بجوارهم... ألا يكفي هذا شرفاً أيها التميمي العربي الذي يحب الفخر؟!

تلثم الحارث التميمي قليلاً، وسألها:

— ولكن يا زبراء، يا كبيرة الكهان في جزيرة الفرات، لو كان لديك علم الأخبار وكشف الأسرار وهتك الحجب... ألا تخبرينا من يكون هذا الفارس المثلث الجسور المغوار الذي يمنعها بسيفه البتار؟!

بدا عليها التأثر، ونال منها الانهزام، وأجهشت بالبكاء، ثم كففت دموعها، وغمغمت بأسى:

- ستأتي أحداث جسام رهيبة من مكة والمدينة، ويظهر رجل في الجزيرة العربية، يقود رجالاً يجاربونكم من أجل الفضيلة، وستقلب الدنيا رأساً على عقب في زمان مرتقب، وستكون سباح في مقدمة الصفوف، تأمر بالحرب وضرب الدفوف.

انتبر الحارث التميمي متعجباً، ثم انصرف متحيراً، بينما بدت زوجته منتهى مسرورة بما سمعت من أن ابنتها سيكون لها شأن كبير في المستقبل المنظور، وعلى الفور وعدت الكاهنة العجوز بأن سباح ستكون في حضرتها، وتحت إمرتها، عندما تبلغ الخامسة من عمرها، لتعلمها الكهانة من أصول المعلوم، والقول الفصيح، وسجع الكلام، والتفسير المبين لحوادث الأزمان ووقائع الأيام.

رنت كلمات الزبراء في وجدان الحارث التميمي، وظل صداها يتردد دائماً أبداً في نفسه:

- سباح ستكون فخر قبيلتها... ستكون كاهنة متنبئة!

عاد إلى الديار مع زوجته، وقد اطمأن قلبه إلى أجل غير مسمى، من أن البنت التي رزق بها، ويعتبرها ذريعة إبليس، ستغادر الدار، وتبتعد عن القبيلة، لتعتكف في الدير، من أجل أن تتعلم كل شيء من الكاهنة

الكبيرة، ولا شك في أن هذا الأمر يريجه، ولو إلى حين، عندما تخرج الصغيرة ذريعة إبليس من الدار لتقيم في الدير.

عساه يرى في يوم من الأيام حلم زوجته، ورؤياها المدهشة، وتتحقق نبوءة الكاهنة التي ترى بعيني زرقاء اليمامة.

وربما تكون تلك النبوءة سلواه الوحيدة التي جعلته يتراجع عن عزمه بوأد ابنته في حفرة صغيرة من الصحراء الواسعة، كما يفعل أغلب العرب آنذاك.

إن نصف المصيبة أرحم من المصيبة كلها، وستغادر الذريعة الديار حين تتم الخامسة من العمر، لتلحق بكهف الزبراء، وديرها النائي على أطراف الصحراء، الذي يبعد مسافة ربع يوم من الترحال، أو يزيد قليلاً، على ظهر الدواب العفية، من ديار بني تميم، وعلى مسافة مثلها من بلاد الفرس.

ولم يهدأ له بال حتى عرف أن زوجته - منتهى بنت القيسي بن تغلب - ستهب الطفلة إلى الدير، عساها تصبح في قادم الأيام شيئاً مذكوراً، وفخر قبيلتها - كما قالت الزبراء بنت رثام كبيرة الكهان - فليكظم غيظه، وهو آمن وواثق من أن إبليس لن يكون له ذريعة في داره.

بدت له الكاهنة امرأة قديمة قدم صخور الدير العتيق، المنحوت في بطن
الجلب الأزلي الذي تقطنه، ويشبه مغارة حصينة لا مثيل لها.

إن الأيام تجري بسرعة، وتقفز كعادتها المذمومة إلى الأمام، وها هي الزبراء
قد كفته وأد طفله سباح، بأمل كسراب يحسبه الظمان ماء.

كما كفته أيضًا غصبة زوجته منتهى بنت القيسي، وهي امرأة صلبة عنيدة،
تستمد قوتها من قوة قبيلتها (آل تغلب)، أشاوس الصحراء وكبار التجار
بقوافل كبيرة إلى اليمن والشام.

وقريبًا تهول الأسابيع، وتصنع من هرولتها شهورًا، حتى تبلغ الرضيعة
ربيعها الخامس، ويلقى بها في هذا الحصن القميء النائي الذي تقيم فيه
الزبراء، كملكة متوجة على العرش في المنفى الإلهي.

وإن كان يأمل أن يمتد به جبل الوريد ليرى ماذا يكون مصيرها
ومستقبلها، وهل ستصدق رؤيا زوجته، وهل ستصدق الكاهنة العجوز
المحنكة في تأويلها لتلك الرؤيا الغريبة؟!

وماذا لو صدقت، وما الذي يمكن أن تصل إليه ابنته الناجية من الموت
بفعل هذا الحلم العجيب... إن الأحلام تُحيي وتُميت!

وماذا ستفعل النجمة العالية في السماء السابعة حين صعود سباح إليها
لتمسك بها، وكيف سيتصرف الفارس القوي المتين الملم، الذي يحرص
على أن يمنعها – بحد سيفه المسلول – من أن تقرب النجوم البارقة التي
ترصع ثوب السماء؟!

دون أن تقصد الكاهنة الزبراء بنت رثام، أنهت المعضلة المستعصية التي
أرقت الحارث التميمي، وكادت تُحدث شقاقاً لا يلتئم بينه وبين زوجته
منتهى بنت القيسي؛ بسبب أن سيد قومه يشعر بالعار والمرار منذ
وضعت امرأته أنثى أسمتها سباح، وليس الذكر كالأنثى.

كان يأمل أن تضيف زوجته إلى رصيده من الذكور ولذا آخر، بعد
الفتاحل الأربعة الذين أنجبتهم وراء بعضهم في سنوات متتالية، وكأنها
تسابق الزمن لتزويد القبيلة بذخيرة من الأطفال... سرعان ما يصيرون
رجالاً أشداء، يشدون الرحال على القوافل، ويعودون بالغنائم والمكاسب،
ويتقنون فنون الفروسية والرمي والمبارزة، يدافعون عن مجد الديار
والخيام والأموال والأعراض والأنفس، ولم لا... وغارات القبائل على بعضها
لا تنتهي لتوافه الأسباب، ومستصغر الشرر؟!

هدأت الأمور في داره، وخمدت نار الفتنة، والتأم الشقاق بينه وبين زوجته، وعادت الأمور إلى طبيعتها كما كانت قبل أن تأتي سجاح إلى الدنيا، وتجعل وجهه مسودًا وهو كظيم.

صرف نظر عن أمر وأدها، وحاول أن ينسى أن امرأته ولدتها أنثى، مع أن حلم كل رجل أنثى، وخيبة كل أنثى رجل!

تجاهلها وكأنها لم تكن شيئًا مذكورًا، ولم تُولد أصلًا... واعتبرها سهمًا طائشًا من سهامه أطلقه فذهب في الاتجاه الخاطئ، أو ناقة ضالة شاردة من قوافله المتعددة، وأنعامه الكثيرة التي ترعى في المروج، ولم لا... والبنات في رأيه ذريعة إبليس الخبيث؟!

لن يغير قناعاته أبدًا، ولو أقسمت له الزبراء بنت رثام أن سجاح ستصبح ملكة على جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها.

لكن ما باليد حيلة، لقد وقع الرجل بين شقي الرحي... امرأة قوية الشخصية، صلبة الإرادة، عنيدة عتية، هي زوجته منتهى بنت القيسي- بن تغلب، وامرأة أخرى هي الزبراء بنت رثام، الكاهنة العتيقة كنخلة سامقة تأبى أن تموت، وتحاول أن تتحدى الزمن، وتستثني نفسها من أحكامه المهلكة لكل كائن حي!

قالت له بغضب صارم وتهديد عارم، حين أسر لها الحارث برغبته في وأد صغيرته ودفنها بالحياة:

– احذر أن تفعل هذا الأمر يا ابن التميمي، ولو قتلت سباح كأَنَّك قتلت المسيح!

ارتجف الرجل النصراني، وانتفض هيكله الطويل العريض المهيب، ضخم الجثة، أجش الصوت، سيد قومه وكبير بني تميم، وكلهم نصارى متعصبون للمسيح بن مريم عليهما السلام.

وهمس بخجل، كأن طاله العار:

– العفو والسماح، أيتها الكاهنة، لن أفعل شيئاً حتى تشيرِ علينا برأيك، كلها أفكار شيطانية من إبليس.
صاحت بحزم، كأنها تقرأ أفكاره:

– البنات ما هن ذريعة إبليس، يا ابن التميمي، احذر أن تسمع لصوت إبليس اللعين الساكن بداخلك.

تساءلت منتهى، وهي تحاول أن تخفف غضب الكاهنة، وتوقف لومها وتقرعها لزوجها:

– وماذا تفعل، أيتها الكاهنة الحكيمة... أشيري علينا؟!

صاحت بحزم، وهتفت بعزم:

– قُضي الأمر، سباح لي... اثثوني بها... سأنتظركم، فلا تتأخروا.

17 مارس

دروب الصحراء.

24 قبل الهجرة / 599 م

في رحلة العودة من عند الكاهنة الزبراء، والمشوار طويل، دار حوار بطول الطريق بين الحارث التميمي وزوجته منتهى بنت القيسي- عن أحوالهما، وأحوال قبائل العرب، وعاداتهم المحمودّة والمذمومة، عسى- أن ينشغلا عن عناء الطريق.

في تلك الفترة، عرفت القبائل العربية في معظمها، ومن بينها بنو تميم، وبنو تغلب بالطبع، أنماطًا مختلفة لحياتهم، وإن كانت عاداتهم كلها متشابهة، سواء كانت تلك العادات مليحة أو قبيحة.

وكانوا في الأغلب الأعم قد احتقروا الصناعة والزراعة، ولم يقيم بهما إلا الفقراء من أهل الحضر والعيبد واليهود، وإن ظلت مهنة الزراعة معاش المستضعفين ومصدر رزقهم؛ لأنها تورث صاحبها المذلة والمهانة.

وقد قامت حياة معظم القبائل العربية على رعي الإبل والمواشي والأغنام، واعتمدوا في ذلك على الكلاً والماء.

وصور القرآن الكريم أهمية الماء في حياتهم، وهم بالأساس أبناء الصحراء، بقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: 30]

كما اهتمت العرب التجارة، واعتبروها أوسع أبواب الرزق، وعاشوا بها عيشة النبلاء الميسورين، وكانت قوافلهم التجارية تتجه صوب الشام واليمن – كأسراب الطيور – حاملة مختلف السلع والبضائع، سواء كانت منتجات بلادهم أو منتجات أفريقيا وبلاد الهند.

وكانت النفائس مثل العاج، والأحجار الكريمة، والعطور الثمينة، والقماش والحرير، والعبيد من أهم بضائعهم التجارية.

في تلك الأثناء، خضعت حواضر وبوادي العراق والحجاز لنظام شبه سياسي، ومنها مكة، قلب الجزيرة العربية، التي حكمها العماقة، ثم خلفهم بنو جرهم القحطانية، وتمكن قصي- بن كلاب، هذا الرجل الجسور المغوار، من السيادة عليها، وأسس قبيلة قريش العريقة.

ولما بلغ الرجل من الكبر عتياً، جعل لابنه (عبد الدار) من بعده دار الندوة والرفادة (باعتبارها من الأمور العظيمة التي كان أهل مكة يقومون

بها لإطعام الحجيج، حيث يجمعون المال من بعضهم البعض لهذا الغرض النبيل)، والسقاية واللواء.

لكن بني عبد مناف لم يقبلوا بهذا الأمر، وأوشكت الحرب أن تدق طبولها بين الفريقين، لولا عقلاء من الجانبين دعوا إلى الحوار بدلاً عن السيوف، وأسفر الحوار عن الاتفاق والصلح.

واتفقوا على أن ينال هاشم بن عبد مناف - وهو الجد الثاني للنبي محمد - شرف السقاية والرفادة وخدمة الحجيج، وكذلك يستمر الحال في أولاده من بعده، في مقابل أن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار.

وظلوا على هذا الحال حتى جاء النبي محمد بن عبد الله بنداء الإله، وإعلان السماء لأهل الأرض.

لقد كان لهؤلاء القوم - أيام الجاهلية تلك - صفات حميدة تنبع من فطرتهم السليمة التي فطرهم الله عليها، ولعل الكرم أهم هذه الصفات، ومن طقوسهم أنهم كانوا يوقدون النار فوق الكتبان المرتفعة وعلى رؤوس الجبال، ليراها الشارد والوارد من عابري السبيل في دروب الصحراء

والوديان والشعاب والجبال، فيأتيهم لينال حظه من الطعام والشراب وكرم الضيافة.

ولعل أشهرهم صيتًا في هذا المجال حاتم الطائي، أكرم الكرماء، الذي طالت شهرته الآفاق بين قبائل العرب.

ومن فضائلهم أيضًا الوفاء بالوعد، وحماية الجار، ونجدة المكلوم، وإغاثة الملهوف، والشجاعة والحلم والعفة، لكنهم أيضًا لم يكونوا ملائكة أطهارًا محجلين، بل كانت لهم عادات مذمومة وصفات ملعونة، ما أنزل الله بها من سلطان.

لعل أفظعها الغزو والنهب والسطو والسلب، وقد أشعلوا حروبًا عبثية بينهم لسنوات طوال لتوافه الأسباب، وأطلقوا عليها أسماء عجبية... وها هي حرب البسوس بين بني بكر من ناحية، وبني تغلب، قبيلة السيدة منتهى زوجة الحارث التميمي من ناحية أخرى، وقد تورطت فيها قبيلته بالتبعية دفاعًا عن تغلب، واستمرت ما يقرب من أربعين عامًا بسبب قتل ناقة ليس إلا!

وهناك أيضًا حرب حلime بين قبيلتي الغساسنة والمناذرة، وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكان السيف هو مثلهم الأعلى وسلاحهم الأمضى ، ذلك لأن الصحراء من حولهم قست عليهم ، ولم تكن سخية معهم ولا رحمة بجاهلهم ، ومن لا يبادر بالعدوان سيتم العدوان عليه .

إن المكانة الأعلى عندهم للظالم الغاشم ، والقوي يأكل الضعيف ، ويتحكم في مصيره ، ويغير عليه ويسلبه ماله وإبله ، ويخلفه على نسائه ، ويحليه عن مواطن الماء والكلاء .

ويقول شاعر الصحراء عمرو بن كلثوم في وصف هذه الحالة :

– ونشرب إذا أردنا الماء صفواً *** ويشرب غيرنا كدرًا وطينًا .

ويقول أيضًا معاوية بن مالك معبرًا عن هذا الواقع :

– إذا نزل السحاب بأرض قوم *** رعيناه وإن كانوا غضابًا .

ومن عاداتهم البغيضة في هاتيك الأيام العصبية القبلية ، فالعربي الجاهلي على دين قبيلته ، سواء كانت ضالة أم راشدة ، كاشفًا تلك الحقيقة أحد شعرائهم بقوله :

– وهل أنا إلا من غزية *** إن غوت غويت ، وإن ترشد أرشد .

وظلت حياتهم في الحجاز ونجد واليمن والعراق هكذا حقبة عديدة، يتحرك عبرها الإنسان القبلي إلى الصدام مع سائر القبائل الأخرى، تارة بالغزو، وتارة أخرى بالثأر، وأحيانًا بالهدنة.

واهتموا كثيرًا بالأنساب والأصول والجذور، ليعرفوا من الأصل ومن الدخيل، وقد احتل الشاعر فيهم مكانة مرموقة، تفوق مكانة الفارس المحارب الذي لا يُشَقُّ له غبار في المعارك الكبرى.

ولعل أسوأ عاداتهم على الإطلاق وأد البنات، وكان كثير من العرب يؤمنون - كما يؤمن الحارث التميمي - أنهم ذرية إبليس، لذلك كانوا يحرصون على دفنهم أحياء، مخافة الفقر وجلب العار!

كان العرب آنذاك منقسمين إلى فريقين لا ثالث لهما: أهل الحضر-، وهم الأقلية، وأهل البادية، وهم الأغلبية... يعيش الحضر- في المدن والقرى، سواء في الحجاز أو اليمن أو الشام أو العراق، ومن أشهر حضر الجاهلية سكان مكة، ولهم رحلتان بدأهما هاشم بن عبد مناف بصفته تاجرًا ميسور الحال: رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن في الجنوب، ورحلة الصيف إلى أرض الشام في الشمال.

ولا خوف على تلك القوافل المحملة بالبضائع؛ لأن القبائل الأخرى كانت تحسب لقريش عامة، وأهل مكة على وجه الخصوص ألف حساب؛ لمكانتهم الدينية، فالكعبة في ديارهم، والحج على أرضهم.

أما أهل البادية، أو أهل الوبر، فكانت حياتهم ترحالاً تلو الترحال، وراء الماء والكلاء لكي تأكل الأنعام وترعى، ويعتمدون بجانب ذلك على الغزو والسلب والنهب، يهاجم بعضهم بعضاً للاستيلاء على أنعامهم غصباً.

أما لو حدث واستولوا عليها وأهلها غائبون، فتلك هي السرقة عندهم، والسرقة عار ما بعده عار... أما النهب والسلب بقوة السيف فلا غبار!

ولعل اتصالهم مع الأمم المجاورة كان محدوداً، فتجار مكة وأرض الفرات يفتدون إلى الشام واليمن ومصر وبلاد فارس، فضلاً عن شيوخ النصرانية في قبائل العراق والشام، وشيوخ اليهودية في مكة والحجاز واليمن، وإن فيهم بعض الحكماء الذين يفتّون المنازعات، ويحكمون بينهم في صراعاتهم، ويرضى الجميع - في معظم الأحوال - بحكم هؤلاء العقلاء في منازعاتهم ومفاخراتهم.



3 أبريل

دير الكاهنة.

19 قبل الهجرة / 604 م

طوت يدُ الزمن - على عجل - الأيامَ والشهورَ والسنين، كطَيِّ السَّجَلِّ للكتب، حتى بلغت سباح الخامسة من عمرها. رأتها أمُّها منتهى بنت القيسي بن تغلب سنوات سعدها، بينما رآها أبوها الحارث بن سويد التميمي سنوات عجافًا.

حان وقتُ الوعد والعهد وتسليم الأمانة، كما قالت الزبراء بنت رثام، كبيرة الكهان، ولا بدَّ لها من أن تكون الصغيرة بين يديها مثل المادة الخام، لتتنقش عليها علومَ الدين والدنيا، وأصولَ الكهانة وسجعَ الكلام.

عرفت الصغيرة اللهو والمرح والركض بين الديار، وفي الخيام وعلى مشارف الصحراء، مع أشقائها الغلمان الأربعة (حنظلة، ويربوع، وعققان، ووزان)، كأنها خامسهم ولَدٌ مثلهم.

ورغم أنها أنثى - وليس الذكر كالأنثى - تمازحهم وتشاكسهم وتشاجرهم،
وتلعب معهم... لا فرق عندها بين ذكرٍ وأنثى!

يتوافقون معها أحيانًا، ويتنافرون منها أحيانًا أخرى، لكنها على كل حال
ترعرعت كوردةٍ بريّة، ونجت من مقصلة الوأد الغبية، بتدبيرٍ من أمّ ذكية
وكاهنةٍ عجوزٍ عتية.

حملوها على ناقةٍ أصيلةٍ عَفِيّة، ووضعوها فوقها في هودجٍ صغيرٍ يناسب
حجمها، يشبه خيمةً لأميرةٍ مكرمة، يخافون عليها من قيظ الحر وأفاس
الصحراء وشمسها اللاهبة، وساروا بها صوب الكاهنة.

كما حملوا معها هدايا ثمينة من عطورٍ وثيابٍ مختلفة الألوان من حرير،
وطعامًا وفيرًا من شتى الصنوف للزبراء وجوقتها، ولم لا... وفلذةً بكدهما
سجاح ستبقى في كفها، وتحت جناحها إلى أن يشاء الله؟!

بدت الصغيرة شديدة الذكاء، متدققة بالحيوية والحياة، فصيحة اللسان،
بديعة البيان، لديها شيءٌ من الخشونة، وقليلٌ من العنف والعنفوان،
نتيجةً طبيعيةً لعشرتها مع إخوتها الأربعة الصبيان.

وبدت سباح أيضاً للزبراء طفلةً جميلة، تسرُّ- الناظرين، وتأسر قلوب المحيطين بحسن طلعتها، وبراعة سحنتها، وحلاوة صوتها، وحسن حديثها رغم حداثة سنّها.

إذا تكلمت كأنها فتاةٌ عشرينيّةٌ ناضجة، وإذا صمتت يلوح للناظرين أنها ملاكٌ بريء، يتدثر بثوب العقل والحكمة.

لا بأس... لقد سارت بها المقادير إلى حيث لا تحتسب، ولا يخطر لها على بال، وإن كانت أمّها منتهى في منتهى الأسى، وصارت بين نارين: نار فراق طفلتها والخوف عليها من البعد عنها، ونار لو استبقتها في الديار لربما عاد الحارث إلى شيطانه، أو عاد إليه شيطانه بوسواسه الخناس، يحرّضه على وأدّها الآثم.

لكنّها نظرت إلى السماء بتوسّلٍ ورجاء، ودعت ربّها أن يربط على قلبها، كما ربط على قلب أم موسى حين أمرها أن تُلقِي به في اليم، فيُلْقِيه اليَمُّ بالشاطئ فيأخذه العدو، ويتربى الصبيُّ النبيُّ في قصر الفرعون الباغي!

عندما رأتها الزبراء للوهلة الأولى، طغت عليها الدهشة من النظرة الأولى، وامتزجت بالفرحة؛ لأنها أدركت أنها ليست طفلةً عادية، وأطلّ من عيني

الكاھنة العجوز بريقُ عجیبٍ أخَّاذٍ، وتأمَّلَها طويلاً... ثم قالت بصوتها
الرجالي الأجش الخشن المھیب:

– إن هذه الفتاة الصغيرة ستحقق الأحلام الكبيرة، وتكمل المشوار،
وآمل أن تحقق ما أصبو إليه، ولم أستطع إليه سبيلاً.

قالت لها منتهى، والدموع تترقرق في عينيها:

– استودعتك قطعةً من قلبي، فكوني لها أباً وأمّاً، وكوني لها فرساً
وغطاءً، أيتها الكاهنة النبيلة.

تبسمت الزبراء بوجهٍ بشوش، وتمت:

– لا تخافي عليها يا أمَّ سباح... أعرف قلوب الأمهات، كما أعرف حقَّ
الإله، ستكون طفلتك هنا في أمان تام، إن هذا الدير هو أكثر الأماكن
أماناً في تلك البلاد، فلا تخافي ولا تجزعي، وسأبذل قصارى جهدي لكي
تكون سباح امتداداً لي بعد عمرٍ مديد، وتكون لأهلها وعشيرتها ذخراً
وشرفاً يباهون بها قبائل العرب.

ظلت منتهى منزعجةً لفراق ابنتها لبعض الوقت، أما الحارث التميمي فقد
أحس بالراحة، كما لو كان قد أزاح كابوساً من على صدره، وبدا كمجرمٍ

يسعى لأن يطمس معالم جريمته، ويخفيها عن العيون في حصن حصين، حتى لا يُعَيَّر بها أحدٌ أو يُعاقَب عليها أحد!

وإن بدا مضطراً للصبر عليها خمس سنوات، ومُرغماً أيضاً من شدة حرص زوجته على تلك الطفلة، وتمسكها بها تمسكَ البدن بالروح، حتى حانت اللحظة الفارقة التي يتخلص منها، دون أن يخسرهما ولا يتورط مع زوجته في شقاقٍ حاد لا يدري عواقبه.

وعندما سألت منتهى عن الوقت المناسب للزيارة، قالت لها الكاهنة:

– يمكن لكما أن تزورا سباح مرةً كل ثلاثة أشهر، لو سمحت لكما ظروفكما.

هز الحارث رأسه بارتياح، لكن أمَّ سباح التمست من الكاهنة أن تكون الزيارة كل شهرٍ على أقصى تقدير؛ لأنها لا تطيق صبراً على فراق طفلتها.

عندئذ تبسّمت الزبراء، وقالت بروحٍ سمحة:

– لا بأس... باب الزيارة مفتوح في كل وقتٍ وحين، ولكني لا أريد لكما أن تتكبدا معاناة الترحال في هذا المشوار الطويل بين دروب الصحراء في أوقاتٍ متقاربة.

مرت الأيام سريعةً متقافزة، وكلما سألت منتهى زوجها أن يشدَّ الرحال إلى سباح في الدير البعيد على حواف الصحراء، يتلكأ الحارث التميمي، ويقدم مبرراتٍ واعتذاراتٍ للتأجيل والمماطلة والتسويف، بحجة أنها لم يرتاحا بعد من مشقة الطريق، وحينما تذكره بأن آخر مرة زارا فيها طفلتها كانت منذ شهرين أو أكثر.

يندهش الرجل، ويرسم البلاهة على وجهه، ويضع التعجب على تقاسيمه، مستغربًا نخلاً، وكأنها أمسكت به بالجرم المشهود!

يتلعثم ويؤدي بعض الأذى والأسف، وهي تلح عليه أن يتأهباً لركوب الدواب، والتوجه إلى دير الزبراء بنت رثام، كبيرة الكهان، في المكان البعيد الهادئ النائي، أقصى- الشرق عند أطراف الصحراء من ناحية بلاد فارس.

لكن المدهش في آخر زيارةٍ لهما إلى الدير، أنها وجدا سباح قد ألفت المكان، وتآلفت معه بسرعة، واعتادت عليه، والعادة أقوى من الحب.

اعتادت على الخلاء الرحب، والفضاء الواسع الممتد بلا حد، بلا صبيان يزجونها، ولا بنات يشاركنها في عالمها الأثير... إلا قليلاً.

لا شيء في هذا المكان سوى الكهنة والرهبان، كخلية النحل وفريق من النمل، روح الجماعة تحكمهم، ولا صوت يعلو في هذا الفضاء سوى صوت الزبراء، وكأنها ساحرة الصحراء، تأمر فئطاع بكل إجلالٍ وتبجيلٍ وتوقيرٍ منقطع النظير.

أمام الدير فراغٌ مهول، ومن حوله الآبار العامرة بالماء، يخرج بأمر الإله من باطن الأرض بلا حولٍ ولا قوةً لمخلوق، وأشجار التوت التي تتخذها الطيور أعشاشًا لها، بينما حفنةٌ من أشجار النخيل سامقات تود أن تعانق السماء وتلامس السحاب، وهدهدٌ وحيد يغني بصوتٍ شجي، تهوى الفتاة أن تسمعه في الصباح والمساء... فلا بأس على سباح هنا.

أحبت الدير كأنها وُلدت فيه، وارتبطت بالأجواء في تلك البقعة الخلابة من الصحراء، والتي حولتها الكاهنة الزبراء إلى واحةٍ غناء، ودائمًا تهتم بما خارج الدير مثل اهتمامها بما في داخل الدير... تراقب عن كثب سباح، وتعلمها كل شيء بلطفٍ وود، كأنها أمٌّ رؤوم - مع إيقاف التنفيذ.

تلك المرأة الرهيبة المهيبة الوحشية، التي تبدو قديمة قدم الحياة في هذا المكان المنفي المعزول، منجذبة بالفطرة إلى تقليم أظافر القبح من حولها، فتعطي أوامرها بغرس ما تيسر - من الأشجار حول الدير، حتى صار له حديقة واسعة بلا أسوار تحيط به من كل الجهات، وظلال تلك الأشجار

المثمرة تتحني قليلاً لتحنو على المكان، فتحرسه وتكسوه بستارةٍ من حرير، تُطفئ نار الشمس اللاهبة في معظم أوقات النهار.

وكما قفزت الأيام كعادتها إلى الأمام، ما عادت الطفلة سباح تفهم أنها في حضرة أرضٍ غريبةٍ عليها، رغم ارتباط جبل سرتها بتلك الأرض.

أحبت المكان، وتعلقت بالكهان، وبادلوها نفس المشاعر، وزادوها عطفاً ورقة، وصارت الزبراء بمثابة الأم والأب والأشقاء والخلان، تلاطفها وتلاعبها، وتعلمها كل شيء بأسلوبٍ رقيقٍ رشيق، حافلٍ بالحكايات المسلية المدهشة، على طريقة شهرزاد مع الملك إياه، سفاح النساء.

في تلك الأثناء كانت الزبراء في السبعين من عمرها، وتحلم بأنثى مثلها تورثها الكهانة وسجع القول، وعلوم القراءة والكتابة، وأصول النصرانية، وتوصيها بسيرتها الذاتية... وها هي قد نالت ما أرادت في خريف العمر.

امرأةٌ لها هيبة، تتفاقم هيبتها إذا تكلمت... شعرها أسود فاحم كالليل الدامس، لم ينل منه الشيب - على غير العادة - وهي في عقدها السابع، تبدو راهبةً وحشيةً بزينة الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها ويديها، ولم تحشها يوماً تلك الوافدة الصغيرة، بل أحبتها ورأتها كائنًا مختلفًا عما عرفت في ديار أهلها.

تبرق عيناها حين تتكلم بصوتٍ رجوليٍّ خشنٍ أجش، كأنه يخرج من بئرٍ
سحيقة... نخيفة العود، عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبةٌ مخيفة، نظراتها
جادة جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعةٍ بريّةٍ شرسة.

وتردد في نفسها ما قالته من قبل لمنتهى والحارث:

— هذه الصبية سيكون لها مكانة عليّة، لا بد أن أعلمها أصول الحكمة،
وفنون العبرة، لتكون كاهنةً نبية، تعرف الأخبار، وتنبئ الناس بما خفي
من أسرار، ولسوف تأتكم سباح بأمرٍ لم تأت به من قبلها إنسية!

صارت سباح الصبية أقرب إلى الكاهنة الزبراء من جبل الوريد، وأحبَّ
إليها من عشيرتها التي في الديار البعيدة.

11 مايو

ديار بني رثام.

18 قبل الهجرة / 605 م

حين حكى لها ولُذها الصغير شراقة - وينادونه دائماً أبو كحيلة؛ لأنه
أَكَلُ العينين - منامه الغريب وما رآه فيه... هيمن عليها الغم، وخشيت
من عواقب هذا الحلم المخيف.

ولم يكن أمامها سوى أن تذهب على الفور إلى أختها الزبراء، مفسّرة
الأحلام العارفة بأصول التأويل، كبيرة الكهان، وحكيمة بني رثام، والعالمة
ببواطن الأخبار، وكاشفة غموض الأسرار عند عشيرتها ولدى قبائل
العرب الأخرى.

قبل أن تحمل الشمس ثيابها، وترحل عن الدنيا في هذا النهار، وتغادر
ديار بني رثام الرابضة أقصى الشمال من جزيرة الفرات، وريحٌ هادئة
تداعب رمال الصحراء الساخنة من أثر لهيب الحر الرهيب، حطّت

سدينة بنت رثام الرجال أمام مقر أختها ومستقرها منذ سنين بعيدة خلت، ثم دخلت على الزبراء بالأحضان والأشواق، في زيارة استثنائية لم تكن متوقعة من ساكنة الدير الحصين على أطراف الصحراء، بالقرب من بلاد فارس.

تضاربت مشاعر الزبراء بقاء أختها سدينة بين كثيرٍ من الفرح، وشيءٍ من التوجس حين رأت معها ولدها الذي لم يبلغ العاشرة من عمره بعد، وندارًا ما تصطحبه معها إلى هذا المكان النائي؛ خشيةً عليه من وعورة وخطورة الطريق، ومشقة الترحال.

وبعد قليل من الوقت سألتها الزبراء عن القوم، وأحوال الأهل والديار، وكيف تسير بهم الأقدار... لكن بدا على وجه سدينة كثيرٌ من التوتر، وأعطتها الرد مقتضبًا غامضًا بأن كل شيءٍ على ما يرام، رغم أن نبرة صوتها وتعايير وجهها لا تشي أبدًا بأن الأمر على ما يرام!

عندئذٍ توجست الكاهنة الكبرى من حال أختها الصغرى، وأحست بأن شيئًا ما مفزعًا وراء زيارتها المباحثة تلك، فسألتها وهي تحدق فيها بنظرات متوحشة فاحصة جامدة:

– تكلمي يا سدينة... هل ضرب القومَ مكروهً، أو أصابهم خطبٌ ما، أو نال منهم ضرٌّ؟!

بنظرات شاردة حائرة، همهمت سدينة:

– لا... على الإطلاق... القوم بخير، ولم يُصِبهُم شيء.

عادت الزبراء تلح في السؤال:

– وما الأمر إذن؟!

ترددت سدينة وتلعثمت قليلاً، وأطرقت نحو الأرض، وقالت بأسى:

– لا شيء... جئت أزورك... اشتقت إليك يا أختاه.

ضحكت الزبراء، فظهرت أسنانها البيضاء الناصعة، وغمغمت بدهاء:

– يا سدينة... ما لهذا السبب جئت اليوم... أنا أعرفكِ أكثر مما أعرف نفسي التي بين أضلعي... يا صغيرتي، تكلمي ولا تخفي عني شيئاً.

احمرَّ وجه سدينة خجلاً ووجلاً، وأدركت أن فراسة أختها الكاهنة ستكشف سترها وتعرف سرها عاجلاً أم آجلاً، فتنهدت بعمق ثم قالت:

– لا تقلقي يا أختاه، لم يُصِبنَا مكروهٌ بعد... ولكن...

وقبل أن تكمل القول، دخل عليهما أبو كحيلة متقافزًا بجلبة مثل قردٍ متمرّد، فأشارت له الزبراء أن يذهب إلى بستان الدير ليلهو ويلعب، ويأكل بعض الثمار من الأشجار الوارفة الظلال.

وبالفعل استجاب الصبي، وخرج من الدير منطلقًا إلى الفضاء الفسيح، يجري بين الأشجار، فوجد سباح تلهو بالحصى فوق الرمال في ظلال شجرة التوت العتيقة المثمرة، وبجوارها نخلة عالية الهامة تناطح السحاب، فدهش لوجودها في هذا المكان؛ لم يتوقع أبدًا أن يرى طفلة هنا، حيث لا أحد سوى الكهان والرهبان وخدم الدير وخادماته.

لكنه سرّ لرؤيتها، وسألها عن اسمها، وسألته هي عن اسمه، فتعارفا وتألّفا في لحظات؛ إن أرواح الأطفال تنسجم وتهفو إلى بعضها البعض بسرعة، وبلا حسابات الكبار المعقدة.

وانطلق الصغيران يرحان معًا، ويجمعان ثمار البلح من نخلة سامقة تساقط عليهما رطبًا لذيذًا، لا يدريان كم مر عليهما من الوقت بحساب الزمن، لكن الشمس غابت، وانزوت في رداء الأفق، وغامت السحب فجأة، وأغلقت السماء نور عينيها، وبدأت العتمة تهبط من عليائها، وتفرض نفوذها على الدنيا.

بينما الزبراء تسأل أختها الصغرى بإصرار عما وراء زيارتها، وملامح حزنها وخوفها، ولماذا جاءت بطفلها أبو كحيلة معها هذه المرة، رغم عناء الترحال في الصحراء، ومشقة السفر تحت نار الشمس الحارقة، ووعورة الدروب المتعرجة، وشراك قطاع الطرق؟!!

قالت سدينة بهمس خجول مرتجف:

— أخشى على ولدي يا أخته!

— ممّ تخشين عليه يا سدينة؟!!

— لا أدري يا زبراء... لكن قلبي يكاد ينفطر عليه.

— ومن أين عرفت أنه في خطر؟ أخبريني... ألسْتُ أختك الكبرى، وكل الناس تأتيني لتسألني في أمور حياتهم، ما ظهر منها وما بطن؟!!

— المنام... المنام يا كاهنة بني رثام.

— أيُّ منامٍ يا سدينة؟!!

في تلك الأثناء دخل عليهما أبو كحيلة ويرفته سجاح، وفي أيديهما ثمار من البلح الأحمر القاني، فتبسمت الكاهنة بارتياح، وقد لاحظت على وجه

طفلة بني تميم الحبور والسرور لوجود الصبي معها في هذا المكان المنزوع
من الصغار سواها.

عندئذٍ أشارت له أمه أن يحكي لخالته الزبراء، كبيرة الكهان في جزيرة
الفرات وما حولها من الديار وبلدان العرب، ما رآه في منامه قبل أيام.
وقبل أن يبدأ الصبي في الحكي، أشارت الزبراء لسجاح أن تذهب وتركهم
وحدهم لأمر هام.

استجابت سجاح على الفور، وانصرفت بلا جدال ولا كلام، بل بأدبٍ
جمٍ ونجلٍ معلوم، وهي تُلقي نظرة سريعة ذات مغزى على الفتى أكحل
العينين، ذو الشعر الطويل الناعم المسترسل على كتفيه، ووجهه الوسيم
التقاسيم، وعلى شفثيه ابتسامة ساذجة، كأنه مدهوش من كل شيء...
ولا شيء!

طأطأ الصبي رأسه، وانتظر قليلاً حتى فرغ المكان من سجاح، ونبذة
جادة، ووجهه مصوّب نحو الأرض، قال بصوت خفيض نجول كالغدارى:
- يا خالتي الكاهنة الكبيرة، رأيت شيئاً فظيئاً في منامي، لم أرَ له مثيلاً
من قبل في سابق أيامي، ولا في كل أحلامي... وقد أخبرتني أمي أنك

بارعة في تأويل الأحاديث، وتفسير المنامات، وكشف أسرار الأحلام الغامضة.

اتسعت حدقتا الزبراء، وحدّقت فيه بتركيز شديد وفراسة خالصة، كأنما تريد أن تمد بصرها إلى أعماقه المظلمة لترى ما فيها، وتسبر أغوارها المعتمّة، والجدية راسخة على محياها، ثم هتفت بصوتها الرجولي الخشن الأجش المخيف، تشجعه على المزيد:

— هيا يا حبيب قلب خالتك، تكلم... أسمعك جيدًا.

وضع وجهه في الأرض، واحمر خجلًا، ولزم الصمت، فقالت له:

— لا تخجل يا أبا كحيلة، لقد خلقنا الله عرايا، والأنبياء علمونا الخجل...
تكلم يا نور عيني، وثق أنني سأزيل همك، وأبدد غمك بتأويل منامك
المخيف... لا بأس عليك اليوم وأنت إلى جواري.

تلثم قليلًا، وحاول أن ينطق، لكن الكلمات انتحرت على شفثيه، وكاد أن يجهش بالبكاء من شدة الخوف، فقالت له تحشه على الاسترسال بشجاعة:

— ألا تثق في خالتك كبيرة الكهان؟!

بصوت حزين مخنوق، وهو على وشك أن يبكي ويغالب دموعه، بدأ
يحكي ما رآه في منامه:

— قبل عدة أيام من الآن، وفي ليلة حارة، سهرت قليلاً ألهو مع رفاقي،
وعندما أوشك الليل أن ينتصف، دلفت إلى فراشي، وقد بدأ خدر النوم
يتسلل إلى جسدي، ولا أدري كم مر من الوقت منذ استغرقت في
النوم، ولكنني استيقظت مفزوعاً، وشعرت أنني أطيّر في الفراغ،
وجسدي يسقط مرتطمًا بالأرض، ثم فتحت عيني، فوجدت أشباحاً في
ثياب سوداء كالحة، تحيط بي من كل جانب، أيادٍ خشنة قوية تمتد نحوي
تجذبني بعنف، وأخرى تغلق فمي، حاولت قدر جهدي أن أخلص منها،
صرخت عالياً، لكن صرخاتي تاهت في متاهات الصحراء، وضاع صوتي
أشلاء ممزقة في دروب الفضاء، ولا شيء سوى صوت الصدى.

سألته الزبراء بوجه مسوّد مدهوش:

— هل رأيت وجوه هؤلاء؟ من هم، ومن أي قوم؟!

تنهد الصبي، وقال بصوت ندي:

- يا خالتي... لم أتبين وجوههم في العتمة، وبعضهم كان يغطي وجهه، وأحدهم وضع كمامة على فمي حتى لا أصرخ وأزعج خيام الصحراء، وكان هناك من يقيد يدي خلف ظهري حتى لا أقاوم هؤلاء الأشرار.

ثم سكت الفتى عن الكلام، وبكى بتأثر شديد، فاحتضنته الزبراء وقالت:

- لا تخف يا أبا كحيلة... أكمل يا نور عيني... ماذا حدث بعد ذلك؟

جفف دموعه، وقال بصوتٍ جهوري:

- وجدت من يركلني بعنف في جنبي وظهري، صرخت بصوت مكتوم محبوس خلف الكمامة، وحاولت جاهداً أن أدقق النظر في الوجوه المعتمة التي تتكاثر حولي، عسى- أن أعرف هؤلاء ومن أي قبيلة هم، دون جدوى.

- وماذا بعد يا أبا كحيلة؟!

- كانت الريح تصفر، والذئاب تعوي من بعيد، والليل معتم صامت كالأخرس، ولكنني فوجئت بمن يضع عصا على رأسي، ويقتادني إلى مكان مجهول في جوف الجبل، اكتملت عملية الأسر بسرعة وعنف، وبأقل قدر من المقاومة، كأنهم تدربوا على تلك العملية مئات المرات، وصاح أحدهم قائلاً بنبرة حاسمة:

— خذوه.

لكنني حاولت أن أتشبث بالأرض، وأثبت أقدامي في الرمال المتحركة، ولكن بلا جدوى، لقد دفعوني بخشونة وغلظة إلى خيمة تؤويني من هواء الليل، وصفير الريح، وزججرة الرمال، وعواء الذئب، وقد قرروا شرًا بي، ورفع أحدهم السيف عاليًا فوق رأسه، وهم بضرب عنقي، ولم ينقذني سوى الاستيقاظ من نومي فزعًا، أتخسس رأسي بهلع، فوجدتها ما زالت في مكانها فوق كتفي ... شيء فظيع رهيب!

2 مايو

دير الزبراء.

18 قبل الهجرة / 605 م

شردت الزبراء طويلاً، واكتسى- وجهها الأسطوري بسحابة قائمة زادت
 الأمر غموضاً ورهبة، وقد أحست أختها سدينة أن الخطر جلل، وأن
 المنام واقع لا محالة، والشر قادم لا عاصم منه إلا الله.

لمعت عينا الكاهنة العجوز، وانتفضت عروقها نافرة في عنقها، ثم نظرت
 لأعلى كأنها تطلب المدد من السماء، أو تلمس الوحي أن يهبط عليها من
 مكانٍ ما، لعله يخبرها بالأمر المريب، ويميط لها اللثام عن الحلم العجيب
 الذي زار الصبي في مضجعه، وأرق نومه وأفزعه.

بدت الحسرة مسترخية على ملامحها، وإن حاولت التماسك حتى لا تتير
 الرعب في نفس أختها، ثم هزت رأسها وهتفت كأنها تخاطب أشباحاً في

المكان لا يراهم أحد سواها، وصاحت بصوت عميق حزين يتردد صده في دهاليز الدير:

— قدرُ السماء لا يرده إلا الدعاء.

انبرت سدينة، وعلى تقاسيمها هبط الخوف المبين، ثم تساءلت ونظراتها تشي بما في قلبها:

— أخبريني أيتها الأخت الكاهنة، ما الأمر؟!!

حاولت الزبراء أن تداري عليها:

— لا بأس يا أختاه... لا تخافي ولا تحزني، سيكون كل شيء على ما يرام.

شهقت، وضربت بلطفٍ قلبها بيدها اليمنى، متسائلة:

— كيف لا أخاف يا أختاه، وكيف لا أحزن يا كبيرة الكهان، والأمر واضح على وجهك كالشمس في عز النهار؟!!

— ما زال كل شيء بيدنا يا سدينة، فلا تجزعي ولا تقزعي.

– كيف يا كاهنة بني رثام يكون كل شيء بيدنا، وقد قلت منذ قليل إن قدر السماء لا يرده إلا الدعاء؟! أخبريني بالله عليك صدقًا وحقًا إن كنت تعلمين بخفايا الأيام، ووقائع الدهور، وتفسير الرؤى، وأسرار الحوادث والأخبار، كما يقول الناس عنك يا كبيرة الكهان.

تبسمت الزبراء ابتسامة شاحبة، وقالت بصوت مهيب – وهي امرأة لها هيبة تتفاقم إذا تكلمت، ولها حضور مخيف إذا لزمت الصمت، وصوّبت نظراتها فحسب – وأخيرًا نطقت بعد أن محت ابتسامتها من على تجاعيد وجهها وخطوط الزمن بفعل السنين، وهممت بعد صمتٍ مدقعٍ أقلق أختها:

– لا تقلقي يا سدينة... سيكون ولدك بخير.

– أرجوك أيتها الكاهنة المحنكة... إن كنت أختي بحق الإله، أخبريني، ولا تخفي عني شيئًا مما تعلمين عن رؤيا هذا الصبي المسكين، والمحبب له في طي الغيب.

حاولت أن تهوّن عليها الأمر، فقالت:

– لا شيء يا أختاه، سوى أنها أضغاث أحلام، ولسوف أتتبع سراها، ليس إلا.

بدت سدينة غير مصدقة، ومرتاباً في أمر أختها.

بنبرة تهكمية ردت عليها:

– يا زيراء... لا تكوني مثل كهنة آمون حين قالوا للملك أخناتون،
فرعون مصر- القديم (أمنحوتب الرابع)، إن رؤياه أضغاث أحلام، بينما
فسرها يوسف الصديق عليه السلام بأيام القحط والجوع والجفاف، سبع
سنين عجاف!

عندئذٍ أحست الزيراء بالضالة، واثابها الضيق؛ لقد استفزتها أختها بنبرتها
الساخرة وتشبيها بكهنة معبد آمون وأكاذيبهم، فقالت وقد تقلصت
ملاحظها كقطة تموء غضباً وألماً:

– بالفعل يا سدينة، حدسك في محله، وإحساسك في موضعه... ابنك
أبو كحيلة في خطر داهم.

حينئذٍ استنفرت كل حواسها، واقتربت منها أكثر، ومدت يدها لتمسك
بيد أختها الكاهنة الكبرى، متسائلة:

– وما نوع الخطر؟ اصدقني أختك القول يا زيراء.

اعتدلت الكاهنة في جلستها المهيبة، وهمست بحسرة:

– أبو كحيلة سيتعرض للاختطاف من قطاع الطرق اللئام في دروب الصحراء.

شهقت سدينة، ونظرت لأعلى متوسلة:

– يا إلهي... احفظ لي ولدي أبا كحيلة...

ثم نظرت لأختها وسألتها:

– ولماذا يختطفونه؟!

هزت رأسها قائلة:

– ربما يطلبون فدية، وربما لثأرٍ قديم من القبيلة، وربما للسطو على قافلة.

– وهل سينجو من أيديهم؟!

– لا أدري... علينا أن نتوسل إلى الإله أن ينقذه ويحفظه، لكن المؤكد أنه سيتعرض للخطف.

أجمشت سدينة بالبكاء، قائلةً بنهنات منتظمة:

– إذن سيقتلون ولدي؟!

– لا يرد القدر سوى الدعاء... وما زال الأمر بيدنا.

– كيف يا أخته... أرجوك أن تفعلي شيئاً من أجله؟!

– هذا الولد لا بد أن يبقى هنا في الدير، ولا يمر بدروب الصحراء، وبذلك لن يكون عرضةً للخطف على الإطلاق.

– وإلى متى يا كاهنة بني رثام العظيمة؟!

– لا أدري يا سدينة، ولكن إلى أجلٍ غير مسمى، لعل الأحوال تتبدل، والأقدار تتغير، وينجو الصبي من هذا المصير.

– لا بد أنك تعلمين أيتها الكاهنة المخضمة أن ولدي أبا كحيلة مقتول لا محالة... أليس كذلك؟!

ضمّتها إلى صدرها برفق، وهمست في أذنها وهي تربت عليها بخنو بالغ:

– يا أخته... سلّمي أمر الولد لمولاه، وما علينا سوى أن نفعل ما نستطيع فعله، ونترك الباقي لأمر السماء تفعل ما تشاء.

– وماذا ستفعلين؟!

– قلت لك منذ قليل إن هذا الولد مرصود، ولذلك لن يغادر الدير حتى يشب عن الطوق ويصير رجلاً قوياً فتيّاً، عساه ينجو من تدبير القدر وكيد قطاع الطرق.

– وهل يمكن أيتها الكاهنة أن تتغير الأقدار؟!

هزت رأسها بشيء من الأسى:

– ربما... ولم لا؟ لا شيء يبقى على حاله، فكل شيء يتغير، لكن علينا أن نصلي لأجله ونتوسل إلى الإله أن يحرسه بعينه التي لا تغفل ولا تنام، عساه ينجو من شر اللثام.

أطرقت سدينة قليلاً، وشردت وفكرت طويلاً، ثم هتفت:

– ولو تركته هنا في الدير... ماذا سيفعل، وكيف سيعيش؟!

قالت الزبراء بصوت حماسي أجوف خشن، كقائد عسكري يصدر أمراً:

– يبقى هنا ليتربى على الفضيلة، ويتعلم الكهانة، ليكون كاهناً في يوم من الأيام مثل كهان الدير.

– لكنه ما يزال غضاً أخضر-العود، ولم يتم عامه العاشر بعد، فكيف ننزعه من عالمه؟!

– انظري إلى سجاح، فهي أصغر منه، وابتزعتها من عالمها الأثير، وها هي تألفت فوراً مع الرهبان والمكان، وها هي تتعلم بسرعة وتكبر مع الأيام، وستكون كاهنة لا نظير لها ذات يوم.

— لا أدري يا أختاه إن كان سيرضى بهذا الأمر أم لا...

— ليس في الأمر اختيار يا سدينة، فليس لكِ ولا لولدك من قرار... إن الموت الذي تفرون منه ملاقيه، وسيظل يطارده، لكن الدير سيحميه، ويمنعه ولو إلى حين... هذا تأويلي لرؤياه، والعلم كل العلم عند الإله.

— وما العمل أيتها الكاهنة المتبصرة الآن؟!

— أنا آمركِ يا أختي أن تستبقيه هنا في الدير، وتضحي به قليلاً خيرٌ لكِ من أن تفقديه إلى الأبد.

— هل يمكن أن أعود به إلى الديار، وهناك أستشير والده والقوم في هذا الأمر؟!

— لا يا سدينة... لا أوافقكِ الرأي، فربما تفقديه في الطريق، وعسى- أن يصيبه مكروه، ولو حدث ذلك ستندمين العمر كله... لن يغادر الدير منذ الآن.

— وكيف سأعود إلى الديار وحدي أيتها الكاهنة الحكيمة، وقد كان الصبي يؤنس وحدتي ويسليني في الطريق الطويل بين الدروب الموحشة؟!

– لا تقلقي، سأرسل معك بعض خدم الدير، ليكونوا برفقتك حتى تصلين إلى مكان آمن قريب من ديار بني رثام.

– أضمنين لي أن يكون الولد هنا في أمان؟!

ضحكت الزبراء، فظهرت أسنانها الشمعية البيضاء، ثم قالت بجدية:

– هذا أكثر مكان ينعم بالأمن والسلام في هذا الكون الواسع المتوحش... عودي إلى الديار يا أختاه بسلام، وبلغني تحياتي للقوم الكرام، ومن حينٍ لآخر يمكنك أن تزورينا هنا لتطمئني على أبا كحيلة، وهنيئًا له بالعبادة والكهانة وخدمة الرب، وهنيئًا لكِ بالتضحية النبيلة من أجل ولدك الصغير... استودعيه عند ربه، كما فعلت أم موسى، حتى يرده الرب إليك سالمًا، كما رد موسى إلى أمه.

– وهل تضمنين له أن ينجو من رؤياه المخيفة تلك؟!

تنهدت الزبراء... امرأة لها هيبة، تتفاقم هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة، وهي في أزدل العمر، تبدو راهبةً وحشية بزيبها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها ويديها، ت برق عيناها حين تتكلم بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئر سحيقة، نخيفة العود، عجفاء ضامرة البنيان،

لكنها مهيبة مخيفة، نظراتها جادة جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين،
كقطة برية شرسة.

نطقت بحكمة قائلة:

— لا أحد يضمن شيئاً في هذه الحياة غير المضمونة أصلاً لأحد... لكن ما
أعرفه أنه سيكون هنا في أمان تام.

— وإلى متى سيبقى هنا، وما مصيره؟!

— سيبقى هنا بإرادة السماء، وسيكون مصيره مثل مصير سباح، وربما
يرتبط مصيرهما معاً، من يدري؟!

ولسوف يعتاد الصبي على المكان والكهان، وتمضي- به عجلة الأيام وهو
تحت أعيننا هنا في أمان، ومع مرور الوقت لن يطيق مفارقة الدير،
وسيتعلم أصول النصرانية، وطقوس الكهانة، وسجع القول، وعلوم القراءة
والكتابة، وفنون الحكمة، ويفهم حقيقة الدين، ويتفرغ للعبادة وخدمة
الرب، وتلك درجة عالية لا ينالها إلا من كان ذو حظ عظيم.

— ولكنه طفل صغير على كل هذه الأمور الكبيرة؟!

— الطفل سيلهو ويلعب ويتعلم حتى يكبر ويكَلَّف.

لاذت سدينة بالصمت الوقور، وقد أحست بانكسار، ولم يكن أمامها
سوى الرضوخ للأمر والاستسلام لواقع الحال، الذي كان يبدو لها من
المحال قبل أن يرى ولدها ما رآه في تلك الليلة الليلاء.

3 سبتمبر

دير الزبراء.

8 قبل الهجرة / 615 م

مضت الأيام والشهور والسنوات، حتى اكتمل عقدٌ من الزمان لأبي كحيل وسباح داخل الدير، تحت عيني الزبراء، وقد بلغت سباح التميّة السادسة عشرة من عمرها، وصارت زهرةً صحراويةً يانعةً متفتحة للحياة، بدت فتاةً مكتملة الأنوثة، آسرةً فيها جاذبية لا تُقاوم، بينما تجاوز أبوكحيل العشرين عامًا بقليل.

كانت سباح تجلس في قلايتها (غرفة نومها الخاصة)، وتجتمع مع الراهبات في جناحن الخاص من الدير الكبير، الذي يشبه قريةً صغيرةً تعج بالحركة والحياة، تتعرف منهن على طقوسهن، وكيف يقضين أوقاتهن في التعبّد والعمل، وقد اطمأن أهلها على حياتها ورحلتها في الصحراء برعاية الزبراء.

تقضي الفتاة اليافعة معظم الوقت في قلايتها، حيث العالم الآخر الخاص بها الذي تمنته طويلًا، وإن ظلت لعدة سنوات تحت الاختبار والمراقبة... تتعلم منهم ممتد وشغفٍ لا نهائي، وتلقنها الزبراء كل معارفها في الكهانة والحياة، وترضعها تجاربها وخبراتها وحكمتها، وكلامها المسجوع.

عرفت بنت الحارث التميمي قوانين الرهبنة، وأدركت الحكمة منها، وظلت لفترة طويلة (مشروع راهبة)، وقد ينتهي هذا المشروع في أي لحظة لتعود إلى حياتها الطبيعية في ديار بني تميم، حال لم تتحمل تلك الحياة المنعزلة الخشنة القاسية.

لكنها اجتازت كل الاختبارات بسلام وأمان، وساكنات الدير تأكدن جميعًا - وخاصة الزبراء - مما يبحثن عنه في تلك الفتاة التي دخلت الدير طفلة، ثم صارت عروسًا مكتملة البنيان، متفتحة الأزهار.

تأكدن جميعًا بأنها مثالٌ يُحتذى به في ثلاثية الدير (الالتزام، والطاعة، والعفة)، وسمحت لها الزبراء بارتداء الزي الرمادي، باعتبارها كاهنةً تحت التمرين، ولا بد لها أن تستكمل أربع سنوات أخرى لتكمل عاها العشرين، وترتقي إلى مرتبة راهبة... عندئذٍ يحق لها ولزامًا عليها أن ترتدي الزي الكهنوتي الأسود.

وبذكائها الشديد، علمت سباج أن الصمت هو سمة النجاح في هذا المكان المخصص للصلاة والعبادة وخدمة الإله، فلزمت الصمت كثيرًا، وتدفرت به قدر المستطاع، واقتصر حديثها على قليل الكلام للضرورة القصوى مع قريناتها من الراهبات، وزائري الدير، وقليل من سكان جناح الرجال في الدير... وعند سؤالها عن أي شيء يكون ردها:

— لا أعلم... اسألوا أمنا الكاهنة الزبراء.

حتى حانت اللحظة الفارقة في حياتها، حين جمعتها الكاهنة الزبراء، رئيسة الدير، مع أخريات من طالبات الرهينة، وأقامت لهن قداسًا خاصًا حضره الرهبان والراهبات أجمعون.

حينئذٍ استلقت سباج على الأرض بجانب قريناتها، وعددهن خمس بنات مرتديات الزي الرمادي الكالح، الذي يشي- بحالتهم الروحية ودرجتهم الكهنوتية في الدير، يغطيهم رداء أحمر قانٍ طويل فضفاض من أعلى الرأس حتى أخص القدم، طوال القداس على مدى ساعة زمن.

وصلت الزبراء إلى القاعة الكبرى بالدير، وعليها محابة لا تخطئها العين ويخشاها القلب.

في تلك الأثناء، كانت الزبراء تحلم بأنثى مثلها تورثها الكهانة، وسجع القول، وعلوم القراءة والكتابة، وأصول النصرانية، وتوصيها بسيرتها الذاتية، وها هي قد نالت ما أرادت في خريف العمر.

امرأة لها هيبه، تتفام هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة وهي في هذا العمر، تبدو راهبةً وحشية بزياها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها ويديها، ولم تخشها يومًا تلك الوافدة الصغيرة، بل أحبها ورأتها كائنًا أسطوريًا مختلفًا عما عرفت في ديار أهلها.

تبرق عيناها حين تتكلم بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئر سحيقة، تبدو نخيفة العود، عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبة وقور، نظراتها حادة جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعة برية شرسة.

وقبل أن تبدأ المراسم والطقوس، تردد في نفسها ما قالت من قبل لمنتهى والحارث:

— هذه الصبية سيكون لها مكانة عليّة، فلا بد أن أعلمها أصول الحكمة وفنون العبرة، لتكون كاهنة متنبئة، تعرف الأخبار وتقرأ الحوادث

المستقبلية، وتنبئ الناس بما خفي من أسرار، ولسوف تأتكم سباح بأمر لم تأت به من قبلها إنسية.

بدأت الكاهنة الزبراء بصلاة خاصة عليهن، وهن مستلقيات أمامها في سكون تام، وفي مقدمتهن سباح التمية... إنها (صلاة الموتى)، بتراتيل جنازية، دلالة على موتهن عن الحياة الماضية، وبداية حياة أخرى فيها بعث من جديد، لحياة أخرى مختلفة عما سلف.

ثم وقفن جميعاً ليرددن قسم الرهبة، حينئذ كان أبو كحيله شاباً وسيقاً قسيماً، ناعم الملامح، ناعس النظرات، هامس الكلمات، يراقب ما يجري، وقد سبقها إلى هذا الأمر، ونال درجة الرهبة، وصار كاهناً رسمياً لا يُشق له غبار.

وها هي الزبراء تقف شامخة وسط الدير كنخلة سامقة، تعلن عليهن القسم المقدس بصوتها الرجولي الخشن، وهن من ورائها يرددن قولها بخشوع وخضوع:

— أتعهد أمام الله وملائكته وقديسيه، وأمام المذبح المقدس، وساكبي هذا الدير من خدم الرب وعبيده، وأمام أمنا رئيسة الدير الكاهنة الحكيمة الزبراء بنت رثام، وأمام كل الرهبان والراهبات، أن أثبت على الإيمان

حتى النفس الأخير من الحياة، وأن أحترم قوانين الدير وأوقر أصول الرهبنة، معترفةً بأنها موثٌ عن العالم.

ثم لاذت الكاهنة الكبيرة بالصمت المهيّب، ولا صوت يُسمع في الدير كله سوى صوت الأنفاس تتردد في الصدور، ودقات القلوب تدق بين الضلوع، وهي تنظر نحو الجموع... تلتقط الأنفاس، ثم واصلت ترتيل بقية القسم، وهن يرددن خلفها:

— أتعهد أمام الله، وأمام الحاضرين هنا، أن أواصل حياة الشراكة في الدير بصدق وإخلاص، وأتعهد بأن أبتعد عن محبة المال، ولا أدخل في معاملات مالية مع مخلوق، حتى ولو كان من أسرتي أو أقاربي، إلا بموافقة الكاهنة الكبرى رئيسة الدير.

وعادت الزبراء للسكون التام، بينما الجميع في حالة خشوع وترقب لما ستنتطق به، وبعد قليل من الوقت استرسلت تكمل القسم، وهن يرددن خلفها ما تقول:

— أقسم وأتعهد أمام الله وأمام الحاضرين أن أعيش حياة العفة والشرف والطاعة العمياء، احترامًا لناмос هذا الدير العظيم، وأن أسلك بأمانة

والتزام في أداء كل واجباته وما يُعهد إليَّ من مسؤوليات، وأن أكون أمانة في اعترافاتي، ولا أسلك حسب هواي ومشيتي.

أومأت برأسها وهي تراهن جميعًا منحنيات خاضعات، يؤدين القسم بوجل وخشوع، ثم عادت تستكمل بالقول:

— أتعهد أمام الله وأمام الحاضرين جميعًا، وهم شهود على ما أقول، أن أواظب على التعبد والصلاة، وخدمة الإله في كل وقتٍ وحين، وأن أعكف على قراءة الكتاب المقدس والتأمل في آياته، وأحافظ على الأسرار الإلهية، والمزامير، والتسبحة، وكل العبادات المفروضة، وأن أرتبط بحياة السكون والتأمل، وحال رغبتني في حياة الوحدة التامة، لا يكون ذلك إلا بموافقة كبيرة الكهان رئيسة الدير.

توقفت لحظات تسترق النظر، وتستريح من تلاوة القسم، ثم عادت تقول:

— أتعهد أيضًا أمام الله وكل الحاضرين أن أفذ كل الأوامر، وأقوم بكل الأعمال الموكلة إليَّ، وأن أحب الكل، وأخدم الجميع، وألا يعلو صوتي في الدير، ولا أستقبل رجلًا — مهما كان — في قلايتي، وأن أنبذ الرذيلة وألتزم بالفضيلة، ولا أكون محبة للترف واللهو، ولا أسعى نحو النزول إلى

المدن والريف بغير ضرورة ملحة كالمرض أو الموت، كما أتعهد بالخضوع التام لمشیئة رئيسة الدير.

انتهت من القسم، ورددن ما قالت به بالحرف الواحد، بلا زيادة ولا نقصان. عندئذٍ أمسكت الزبراء مقصًا، وقصت به خصلات من شعر كل واحدة منهن على شكل صليب، وأنهت مراسم صلاة الموتى بتلبسهن القلنسوة الرهبانية، وهي غطاء رأس أسود مرسوم عليه اثنا عشر- صليبيًا، إشارةً إلى عدد تلاميذ المسيح عيسى- بن مريم عليه السلام، وبعدها يرتدين الزي الأسود.

قصت سباح شعرها تمامًا، وهي في عنفوان عذوبتها وأنوثتها، واستدارتها فور انتهاء رسامتها، هي وكل من معها كما هو متبع عند الراهبات في الدير.

وهتفت الزبراء واعظة:

— إن الشعر تاج المرأة ومجد أنوثتها، لكن الراهبة لم تعد في حاجة إليه، وكلما طال بعد ذلك تقصه مرة أخرى، ولا تبالي وهي تفعل ذلك... عليكن بقصه باستمرار حتى لا يكون بالنسبة إليكن شاغلًا وغواية.

استبدلت ثيابها الرمادية بخمسة جلايب سوداء قاتمة، وأخرى ثقيلة للشتاء لترتديها أثناء نزولها إلى ساحة الدير ومشغل الحياكة في القاعة الخلفية.

بجانب جلايب أخرى ذات ألوان فاتحة، خاصة بأعمال التنظيف والنوم... عندئذٍ أحست أنها استقرت في طريقها الذي لا رجعة فيه ولا تراجع عنه، لكن من يدري، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

مع بزوغ ضوء الفجر تبدأ يومها كالمعتاد، تصلي مع زميلاتهن من الراهبات الأخريات صلاة التسبحة بخشوعٍ وضراعة، وبعد ذلك تشرع في عملها اليومي... تنظف قلايتها (غرفتها الخاصة)، والمكان الذي يقع تحت مسؤوليتها بالدير، وفقاً لتوزيع المهام التي تقوم بها رئيستهن أثناء اللقاء الشهري معهن.

ثم تنتقل إلى المشغل عند الضحى، تصنع مع الراهبات مشغولات يدوية من ملابس وما شابه لهن ولغيرهن، وما يفيض يُباع في الأسواق، ويدر دخلاً على الدير.

وفي منتصف النهار راحة، وتناول وجبة الغذاء، وعند غروب الشمس تجتمع الراهبات مرة أخرى لصلاة الغروب، وبعدها استراحة، ثم تناول العشاء.

وبعد ذلك تقضي سباح فترة صمت في قلايتها - كغيرها من الراهبات - وهو أمر ضروري ومن طقوس الدير الإلزامية، فلا حديث على الإطلاق يبنهن، ولا صوت يعلو على صوت الصمت، وبعد الصمت تلزم كل واحدة منهن قلايتها لتقرأ في الكتاب المقدس وتتدبر معانيه.

بمرور الليالي الطويلة على سباح في هذا المنفى - الإجباري الاختياري - داخل الدير، وفي غرفتها الخاصة، نسيت ملامح وجهها الفتان، التي صارت لا تراها منذ رهبتها؛ لأن الراهبة لا يناسبها وجود امرأة تنظر فيها إلى نفسها، وتأمل حسن ملامحها وجمال جسدها الممشوق كغزال شارد من الصحراء، يخبئ فتنته في هذا الحصن الحصين بعيداً عن العيون.

ومع مرور الوقت، أصبحت سباح التمية لا تبالي - وهي في ريعان شبابها وقمة أنوثتها - بأن تكون ثيابها السوداء مهندمة أو مهلهلة، ولم تعد تكثر بتفاصيل أخرى تشغل بال النساء العاديات من غير الكاهنات.

كأن كل ما يمكن أن تشعر به الأنثى يموت داخلها، فتدعي أنها لم تشعر ذات مرة برغبة في الحب ومطارحة الغرام، أو شهوة في الارتباط برجل أو الإنجاب؛ لأن الراهبة يجب ألا تنجح إلى الحب والارتباط العاطفي، وأن يكون الله هو هدفها منذ صغرها.

وإن كان من غير المنطقي ألا تشعر سباح أو غيرها من الراهبات برغبة عاطفية من وقت إلى آخر؛ لأنهن من دمٍ ولحمٍ ومشاعر، لكنها تشعر بالفعل بذلك أحيانًا، وتنتابها شهوة عارمة حارقة، كأنها نار مستعرة في سرايبتها، تخاف وتظنها الذنب الذي لا يُغتفر، فتستغفر ربها وتلتمس في سرها الصفح والغفران.

وفي كثير من الأحيان تروض رغبتها العنيدة المتمردة عليها، وتحاول أن تجعلها بردًا وسلامًا بوسائل شتى، لعل أولها الصلاة والصبر، وهي تعلم أن كل الأفكار الجريئة والمشاعر الجامحة التي تداهما دون إرادتها، تملك الكثير من الأسلحة لمحاربة الشيطان – الذي يجري في الإنسان مجرى الدم في الشريان – لكن الحل الأمثل عندها لمقاومة الرغبات هو إلهاء نفسها بالعمل والعبادات وقراءة الكتاب المقدس معظم الأوقات.

لا تترك وقت فراغ للشيطان ليأخذها إلى وسوسة الرغبة، ولا تسمح لنفسها أن تفكر في هذا، ولا تعطيه الفرصة ليهزمها، ولا أن يسوقها إلى الخطيئة المعنوية أو المادية.

ورغم كل هذا، لا تمنع الراهبات - ومنهن سباح بالطبع - في التعامل مع الرجال، وها هو الكاهن الشاب أبوك حيلة يأتي إليهن أسبوعيًا، بالاتفاق مع الكاهنة الأم الزراء، ليقم لهن قداس الأحد.

تجلس سباح معه وقتًا طويلًا مثلها مثل الأخريات، ويقبلن يده للتبارك به وفقًا لطقوس الدير، لكن سرعان ما تسحب الراهبة يدها كنوع من التواضع، وتسمح له بتقبيل الصليب الخشبي إذا كانت تحمله في يدها.

اعتادت سباح على هذه الحياة، وتحملتها بصدر رحب، وتآلفت معها، وكذلك أسرته التي تعاني من فراقها... لقد تأقلموا مع بعدها وغيبها، وإن تألموا، خاصة أمها وأشقائها الأربعة، وإن كانوا يحرصون على زيارتها خمس مرات تقريبًا في السنة.

وخلال مقابلاتها لأفراد أسرته، تحاول أن تطفئ أشواقها بحبهم جميعًا، وتسعد برؤياهم، وفي كل مرة يتركون لها أموالًا، وفي هذه الحالة عليها فورًا أن تضعها في صندوق الدير.

لا مال مع الرهينة، والراهبة ينبغي أن تكون فقيرة وزاهدة في حطام الدنيا ومتاعها الزائل... إن الرهبان والراهبات يجب ألا يملكوا أموالاً خاصة، ولماذا يملكون أموالاً خاصة بينما الدير يتكفل بكل النفقات؟!

وعندما تحتاج سباح أو غيرها من زميلاتنا الراهبات (متطلبات خاصة)، عليها أن تتبع نظام الدير في ذلك، حيث إن هناك راهبة قديمة تمر على كل قلاية مرة مطلع كل شهر، وتأخذ من كل واحدة ورقة مكتوباً فيها ما تحتاجه من أشياء ومستلزمات ضرورية، وتُصرف لهن تلك المتطلبات من مخزن الدير.

كل الأمور والاحتياجات في الدير ترجع إلى الكاهنة الكبيرة، رئيسة الدير وحاكمة أمره الزبراء بنت رثام، فهي من تقرر كل شيء، وتحدد كل الأمور بدقة متناهية، وتنظم حياة الرهبان والراهبات، باعتبارها مرشدهم الوفية وأهمهم الروحية.

وعندما تخطئ سباح أو غيرها من الراهبات في فعلٍ أو قول، أو تفعل شيئاً غير لائق، أو تنطق بقولٍ لا يصح النطق به، لا تتردد لحظة واحدة أن تقول لها العبارة المتكررة عندهن:

— أخطأت يا أمي... سامحيني، واستغفري لأجلي.

ربما تغضب الزبراء وتتفعل، وقد تزجر وتكشر، لكن عليها في نهاية المطاف أن تقبل الاعتذار، تنفيذاً لأحد أقوال الكتاب المقدس، الذي جاء في رسالة بولس الرسول، والمدونة على لافتة كبيرة معلقة داخل الدير ليراها الجميع ويأخذ بها:

– (كونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين متراحين متسامحين، كما سأمحكم الله أيضًا في المسيح).

إن الأيام لا تتوقف عن الهرولة والقفز نحو الأمام، متشابهة بنفس تفاصيلها الصغيرة، لا شيء جديد في حياة سباح ورفيقاتها من الراهبات سوى المألوف الروتيني اليومي المعتاد.

إن الرتبة تأخذ مددًا أطول من اللازم، لكن سباح اعتادت على كل شيء، فلم تعد تشعر بالملل، وإن تسلل إلى نفسها بعضٌ منه، تستأذن في الخروج إلى بستان الدير وحدائقه الفسيحة الرحبة، تقطف ثمار الفاكهة الناضجة، وتصنع منها المربى بطريقة بدائية سهلة.

الكل في الدير يعيش حياة الشراكة، لكن قلب سباح بدا منشغلًا بشيءٍ ما يؤرقها ويقض مضجعها، ولا تستطيع البوح به لإحدى رفيقاتها أو حتى كبيرة الكهان، لا اعتراف حتى يتبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

إنه الفتى اليافع الوسيم أبو كحيلة، ونظراته إليها كسهامٍ صائبةٍ سكنت القلب ولم تغادره، وإن ظلت صورته لا تفارق خيالها في هاتيك الأيام... فماذا عساها تفعل وقد أقسمت أمام الله، وعاهدت نفسها وغيرها على الفضيلة، والحياة الخالصة لله؟! فكيف يشغلها بشر- عن رب البشر- أجمعين؟! تلك هي المشكلة، والنار الموقدة بجوار الحطب الجاف سريع الاشتعال!



15 ديسمبر

قلالية سجاح / الدير.

7 قبل الهجرة / 616 م

لم تعد سجاح قادرة على أن تكبح جماح رغبته وأشواقها في فتاها الذي راودها عن نفسها بنظراته في قداس الأحد، خلال صلواتٍ لا بد لها من العفة والطهارة.

إن الحب أيضًا عفة وطهارة، لكن بشرط أن يباركه الرب، ويشهد عليه قليلٌ من الناس أو كثير... لا يهم.

في تلك الليلة المخملية، كانت حاجتها إليه أشد من حاجة رمال الصحراء العطشى إلى المطر المنهمر؛ تتمناه أن يتدفق إليها من السماء الغلا... لم يكن البرق يتوقف عن الدوي، ولا الهواء يسكت عن الصراخ من منتصف النهار إلى أجلٍ غير مسمى.

وعندما هبط الليل وأزاح النهار من مكانه، وحل محله عنوةً كعادته، ظلت الأضواء الخافتة الخاطفة تومض وتبرق من خلال شقوق الأخشاب التي تسد قلايتها، المطلة مباشرة على غرفة نومه في جناح الرهبان بالجانب الآخر من الدير.

في تلك الليلة المضطربة الأحوال، الحافلة بالأهوال، يبدو أن الذئاب أيضًا كانت غاضبة أو جائعة، أو ربما مشتاقة متلهفة مثلها... الله وحده أعلم بحالها هي الأخرى.

لعل البرق قد زاد من هياجها، وحفز غرائزها النائمة، وأيقظها من سباتها، فصارت تلك الذئاب وسباح سواء بسواء على هذا الحال من السعار؛ لا فرق بين الإنسان والحيوان، فكلاهما مشحون بالغريزة، مشحود بتلك الذخيرة من الإلحاح العاطفي المشبوب... لا فرق.

إن الغريزة واحدة، والرغبة واحدة، رغم اختلاف السمات والقسمات في بعض التفاصيل، لكن الجوع للحب واحد، له سلطانٌ وصولجان على الجميع، ولا شك أنه ينال من الجميع طوعًا أو كرهًا.

في تلك الأثناء المشحونة بالعواطف المتدفقة، والمطر والبرد والريح الغاضبة، والذئاب الجامحة المتحفزة، أطلت سباح من شقوق أخشاب

نافذتها الصغيرة في حائط قلايتها الأثيرة على نافذة غرفة أبي كحيلّة، لكن الغريب أنه لم يكن موجودًا - آنذاك - في غرفة نومه، رغم هذا الوقت المتأخر من الليل.

خمنت في نفسها: أين سيكون الآن؟!

لعله يصلي في مكانٍ ما من الدير، أو ربما يقرأ - الآن - على خالته، كبيرة الكهان الزبراء بنت رثام، شيئًا من الكتاب المقدس، كعادته معها في بعض الليالي؛ فلم يعد نور بصرها الشحيح يسعفها لتقرأ ما تريد بنفسها لنفسها. أحست الفتاة الراهبة، بنت التميمي، بالوحدة المضنية، والرغبة العارمة، والفراغ الممتد، وهي وحدها في هذا الخلاء الشاسع، وسط الحصار الدائم، مغلقٌ عليها أبوابٌ موصدة صلدة، وأقفالٌ ضخمة، وقوانين الدير الطاغية، وتعاليم الرب الصارمة.

لكنها تظن أن فتاها - وليس كل الظن إثم - يملك مفاتيح الأبواب والجدران والقلوب، وإنه لقادر على أن يفتح كل الأقفال، كما لو كان نبيًا مؤيدًا بمعجزات من السماء، مع أنه ليس سوى كاهن حديث العهد بالكهانة.

كانت التيمية في أمس الحاجة إلى وجوده معها في هذه الليلة التي خاصمها فيها النوم، واستعصى عليها أن تنشغل بشيء آخر سوى التفكير فيه؛ كانت تحتاج - أكثر من أي وقت مضى - إلى ملازمة جلده الناعم الدافئ، وأن تمرر أناملها بين خصلات شعره الطويل الأملس الحريري، المسترسل بفوضى جذابة على كتفيه وجبهته.

تظن أنه لو تأخر عليها، ولم تظفر به، أو حتى بنظرة واحدة منه في هذه الليلة العاصفة الممطرة، ستموت قبل أن يطلع النهار.

لا تسمع سوى عواء الذئاب، وصدى صوتها الخفيف يتردد خارج الأبواب، وإن كان يبدو قريباً من أسوار الدير الحصينة وبواباته الضخمة.

يمتزج العواء الغامض للذئاب - الشبكة المحرومة - مع صفير الريح وزمجرتها العاتية خارج أسوار الدير.

أين اختفى الفتى هذه الليلة؟!

سؤال محير ظل يؤرقها، وكثيراً ما كانت تراقبه من نافذة غرفتها المواجهة مباشرة لنافذة غرفته في الجانب الموازي من مقر الرهبان، ودائماً ما يتركها مفتوحة، بينما هي تحتبئ وراء خشب نافذتها الصغيرة، وتتابعه في كل شيء... في نومه ويقظته، في صلاته وتعبده، في تراتيله وتأمله، وفي كل

أحواله، حتى وهو يبدل ثيابه بأمان، دون أن يدري أن وراء النافذة عيونًا مبصرة تحقّق في جسده العاري.

في بداية الأمر كانت تغلق عينيها وتستغفر ربها، ولكن مع مرور الوقت اعتادت أن تراه هكذا كما ولدته أمه، بل وتستمتع بالتلصص عليه، ورؤية قوامه الممشوق الرشيق، البارز الصدر المفتول العضلات، بجلده الناعم اللامع كأنه خرج توا من النهر.

دارت في قلايتها بقلق، تكتوي بنار من نوعٍ خاص... ظلت تدور في أرجاء الغرفة الصغيرة الضيقة حول نفسها، لتبعث في جسدها الحياة، وتهدي من روعها، مما يحدث في نفسها وفي الصحراء المحيطة بالدير من كل الجهات.

تنتظر وتترقب حين ظهور الفتى التقي الورع، الذي لا يفعل شيئًا من أفعال الغواية، سوى أن يرسل إليها بنظراتٍ ما تشي- بكل شيء في قلبه نحوها؛ إن رسائل العيون أبلغ كثيرًا من فصاحة الشعراء، وبلاغة الأدباء العاشقين المتيمين.

بحثت عن منفذ يصلها بالخارج دون جدوى... الليل ساكن سكون الموت، والدير هادئ صموت، لا حركة فيه ولا حياة، إلا الأصوات الهامسة

والأضواء الخافتة من بعض الراهبات العاكفات على الصلاة في غرفهن المغلقة.

عادت إلى جوار النافذة، ترسل نظراتها من بين فرجاتها الخشبية، عساها تعثر عليه أو تظفر بنظرة منه... أصبحت أصوات الذئاب أكثر وضوحًا وأعلى صخبًا.

زأمت الريح، ثم زارت وزمجرت، ثم سكنت وهدأت، واستسلمت إلى لطحات المطر وزخاته القوية الهادرة.

دققت سباح النظر، وحملت في غرفته رغم المسافة الفاصلة، ورأت صينية عليها ملعقة وطبقًا به آثار طعام... لا بد أنه نسي- أن يحملها إلى خارج الغرفة، أو يرسلها إلى مطبخ الدير.

لا بأس... فتحت نافذتها برفق، لكي لا تُحدث أزيزًا مزعجًا يلفت الأنظار ويصك الأسماع في هدأة الليل الرهيب، تكاد تسمع دقات قلبها بين ضلوعها.

أطلت بجذر من النافذة الصغيرة، فترأت أمامها فجأة السماء مظلمة، ورأت المطر المتساقط ينهمر، أحست بقطراته على أطراف أصابعها، تذوقت طعمه على طرف لسانها، ثم صعدت على مقعد خشبي صغير

بجوار فراشها المتواضع، ومدت رقبتها الطويلة كغزالةٍ ضلت طريقها في الصحراء المحيطة، واستكانت في القلاية داخل الدير العتيق، فرأت حبات الرمال لهفى للمطر، بمجرد أن يهبط عليها تشربه على الفور بنهم وسعار؛ يبدو أنها عطشى منذ شهور!

أطلت في الناحية الأخرى، فرأت عجبًا... كانت زمرة من الذئاب الكبيرة واقفة هناك، تترصد مباشرة تحت نافذتها من ناحية السور الغربي للدير، ترفع رؤوسها نحوها بجرأة، تومض عيونها ببريقٍ يلعب في الظلام، كأن ضوء البرق كله قد تجمع في عيونها التي تطلق شررًا، لكنها لم تكن تعوي، بل تحديق في عيني سباح، وتراقبها في رثاءٍ أليف.

رأتها حرة طليقة في ربوع الصحراء، وتحت زخات المطر، لكنها عاجزة شاردة عن بلوغ أملها مثلها تمامًا، كأنها والذئاب في قافلةٍ واحدة تمضي إلى المجهول.

لم تكن التميمية الراهبة تستطيع أن تفعل لها شيئًا... لا أحد، ولا هذه المخلوقات الليلية الخيفة المسكينة، يستطيع أن يمد لها يد العون.

فجأة أرهفت السمع، فسمعت خطواته رتيبة واثقة تأتي من بعيد في سكون الصمت الرهيب... أغلقت النافذة بهدوءٍ حذر، وأطلت من فرجة الخشب، تمنّت أن تراه ولا يراها... وهذا ما حدث بالفعل.

فتح الباب، ودخل غرفته، وملابسه مبتلة... أحست بالامتنان لحضوره أخيراً بعد طول غياب، لم تكن تملك تفسيراً لحاله ولا لثيابه المبللة بدموع السماء؛ خلع ثوبه الكهنوتي ببطء، ووضعه بالقرب من فراشه على حاملٍ خشبي منتصب في منتصف الغرفة، قرباناً للمطر، ثم استبدله بملابس أخرى تصلح للنوم، ونظراتها مصوبة إلى غرفته تترقب خطواته القادمة، وهي ترتجف من البرد وربما من فرط الرغبة... الله أعلم بها.

فجأة استسلمت لرغبتها، وفتحت النافذة على مصراعيها بجراحة تُحسد عليها، ثم أشارت إليه بابتسامة تحية وأشياء أخرى، ودعته إلى قلايتها، فلم تعد تطيق صبراً.

لا شيء يهم على الإطلاق... لا تبالي بالدير، ولا بقسم الرهبنة، ولا بقوانين الكاهنة الكبيرة... لا شيء يهم الآن سوى أن يأتي هذا الفتى الوسيم القسم إلى غرفتها، ويصعد إلى فراشها ويضع بصمته عليها.

الآن حان نداء القلب، وما عادت قادرة على المقاومة، لكنه بُهِت، ولم يكن يتوقع أبدًا أن تبادره هي بهذا العرض الذي طارد خياله وأرقه كثيرًا.

في تلك الليلة الباردة الممطرة، كان يتلظى في قلايتها بنار الشوق الحارقة ولهب الغرام المصفى، بينما قوامها المفرد كعود اللبلاب يتحرك تحته طبعًا، وينثني بليونة متلهفًا مستجيبًا في مدّ وجزرٍ خرافي، ولا يصدق ما هو فيه، وهي أيضًا.

وبسرعة البرق، تحت سياط الأنفاس اللاهثة، تحولت من برودة الوحدة القاسية إلى دفء الرغبة الحانية والأشواق الهادرة، قبل أن يتوهجا معًا بالنشوة الكاملة.

أحس الفتى القوي البنيان، المتناسق العضلات، المشدود القوام، أنه عاجز عن ملاحقتها؛ تخرج من ذروة لتدخل في ذروة أخرى متجددة كأمواج البحر الهائجة.

توقف لاهتًا، والعرق يتصبب من جبينه، ويلمع على صدره كحبات اللؤلؤ المنثور، ثم رفع جسده عنها قليلًا، ونظر إليها مستغربًا ما حدث بينهما... لم يكونا أبدًا سكارى بفعل الخمر، لكنهما كانا سكارى بفعل الحب ومذاقه!

تذكر أنه راهب، وليس زنديقًا عتيًّا، وهي أيضًا راهبة تقية وليست امرأة سوء، ولم تكن بغيًا.

نفادت نظراته الدهشة المتسائلة، وهي لا تكف عن اللهاث من أثر هرولتها وراء رغبتها الجامحة، ثم مدت يدها تلملم شعرها القصير المقصوص، عكس شعره الطويل الناعم المسترسل على كتفيه وجبينه، وتذكر كلمات الكاهنة الزبراء حين قالت:

— إن شعر المرأة تاج رأسها ومجد أنوثتها، ومصدر غوايتها... لا بد من قصه!

لا تستطيع الأتشي الأفعونية بداخلها أن تتحكم في الانتفاضات التي تهز بدنها كله... انتصرت الأتشي الغاوية على الراهبة العابدة، وحدث ما حدث.

ظل أبو كحيلة ينظر إليها بكامل حواسه المتيقظة، ليسجل كامل جمالها في وجدان ذاكرته... ربما لا يتكرر هذا اللقاء مرة أخرى، بعد أن سجل حضوره في شرايينها، وارثوى من جمال فتنها، كما ارتوت الصحراء من زخات ماء المطر المنهمر!

في تلك الليلة هطل المطر، وحضرت الشياطين، وغابت الملائكة.

اهتمامها المتلألئ في بريق عينيها جعله يتشجع، ويرتاح في كل خطوة جنونية فعلها، وسيفعلها فيما بعد، لو كانت الفرصة مواتية كما كانت الليلة.

نظرت إليه بشيءٍ من الخجل والانبهار، فرأته يتحسس شعره مزهواً بذاته، حائراً من أفعاله المدهشة، وقد أدرك أنه سقط الليلة في الغواية الكبرى...

تأمل فتنتها الآسرة، ونضاريسها ومروجها وخلجانها وساتينها الزاهرة وثمارها المذهلة، وبدا مسحوراً مأسوراً بلون جسدها التمري الخلاب، وهي تهدده بجنانٍ نادر، ثم سمع نغمات صوتها العذب الرقراق الدافئ، كأنها العذراء مريم تغني للمسيح في مهده!

أزاح بأصابعه الشعر المبلل بالعرق عن جبهته وعينيهِ، حتى يستطيع أن يرى تعابير وجهها الزاهلة وملامحها المنبسطة، وينفذ إلى أعماقها، فقابلته بنظرة غائمة منبهة.

قال:

— سبحاح... لا نستطيع أن نستمر على هذه الحالة بعد الليلة، ولم نعد نستطيع العيش في هذا المكان؛ لأننا اكتشفنا لذة الحياة، وعلينا ألا نحرم أنفسنا منها بعد الآن.

تبسمت بمكر، وسألته بدهاء:

— وماذا سنفعل؟! —

وضع يده على بطنها حتى تتوقف عن الارتجاف، وبقايا رحلة المد والجزر بين النهر والشاطئين لها ما بعدها من توابع، وقال بحسم:

— لم يعد لنا مكان في هذا المكان... علينا أن نغادر الدير في أقرب وقت، ونرحل عن هذا العالم البائس الذي يدفن الناس أحياء... سنغادر إلى أي مدينة مزدحمة، أو واحة فارغة، لنعيش بعيداً عن العيون والقيود والقوانين... لا رهبانية لنا بعد الآن.

شردت قليلاً، ولم تجد ما تقوله؛ فلا مأوى تلجأ إليه وهي في هذه الحالة... التصق بها من الخلف، فاستجابت على الفور للدفع الذي يهبه إياها، أصبحت حيوانه الخاص الأليف، الذي لم يعد قادراً ولا راغباً في مفارقه أو مخالفته.

لكنه تذكر في تلك الأثناء نصيحة خالته الزبراء بنت رثام، الكاهنة الكبرى، حين قالت له يوم تتويجه بثوب الرهبنة:

– عليك أن تتعد عن النساء يا ولدي... أنا أعرفهن أكثر منك، فكلهن
شبهات، يسلبن الرجل ماء شبابه... يا بني، منذ اليوم حرمت عليك كل
بنات حواء!

خرج من تأنيب ضميره للحظات، وألقى بكلمات الزبراء في منافي
الصحراء، ثم هتف حاسماً الأمر:

– اسمعي يا سجاح... سنرحل من هنا.

تساءلت بنبرة خوفٍ وتوجس:

– والكاهنة الزبراء، والدير، والرهبنة، والقسم، والصلاة، وغضب الإله؟!

– لا شيء يهم... لسنا ملائكةً مُحَجَّلِينَ، نحن بشر من طين، وعلينا أن
نعيش حياة الأحياء... أما الموتى فلهم حياة القبور، ونحن لم ندخل القبور
بعد... لا يهم سوى أن نكون معاً في مكانٍ واحد، في آنٍ واحد... لا كهانة
بعد الآن، الكهانة موت، ونحن لسنا بموتى.

– أتزوج يا أبا كحيلة؟!

- تتزوج يا سباح... ولم لا؟! لقد جاءوا بي إلى هنا وانتزعوني من عالمي
المفضل، خوفاً من حلم ساذج رأيته في منامي... ولكن لماذا جاءوا بك يا
سباح إلى هذا الدير النائي على أطراف الصحارى القاحلة؟!

شردت لحظات، ثم قالت بابتسامة غامضة:

- جاءوا بي إلى هنا خوفاً من وأد الجهل للبنات، وخبأوني هنا من أبٍ
عربي غشوم يظن أن البنات ذريعة إبليس الخبيث، برغم أنني وحيدته
على أربعة ذكور، ووضعوني في هذا الدير تحت عين الكاهنة الزبراء، أملاً
في أن أكون شيئاً مذكوراً في قادم الأيام.

عادت السماء تزجر، والمطر يضرب الرمال، والريح تزغرد كأن في الليلة
احتفالاً، والناس نيام، أو ربما أموات يغطون في موتٍ صغير.

16 ديسمبر

الدير...

7 قبل الهجرة / 616 م

أَفْشَى النَّهَارِ سَرَّ اللَّيْلِ، وَكَشَفَ سِتْرَ الْفَتَى وَالْفَتَا، عِنْدَمَا اعْتَرَفَ أَبُو
كَحِيلَةَ لِحَالَتِهِ الْكَاهِنَةِ الْكُبْرَى بِمَا جَرَى فِي غُرْفَةِ نَوْمِ سَجَّاحٍ. اسْتَشَارَتْ
الْعُجُوزَ غَضَبًا، وَلَمْ تُصَدِّقْ مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَتْ بِأَذْنِهَا، وَهِيَ امْرَأَةٌ صَلْبَةٌ،
رَغْمَ أَنَّهَا بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا، وَوَهَنَ الْعِظَمُ مِنْهَا، وَتَبَدُّو قَدِيمَةً قَدَمَ الْحَيَاةِ
عَلَى هَذَا الْكُوكَبِ!

كَانَتْ الزَّيْرَاءُ عَلَى مَشَارِفِ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهَا، وَتَحْلُمُ بِأَنْثَى مِثْلَهَا تُورِثُهَا
الْكُهَّانَةُ، وَسَجَّعَ الْقَوْلُ، وَعُلُومُ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَأَصُولُ النَّصْرَانِيَّةِ، وَتَوْصِيهَا
بِسِيرَتِهَا الذَّاتِيَّةِ، وَهَا هُوَ حُلْمُهَا الْأَثِيرُ قَدْ تَبَدَّدَ بِتِلْكَ الْفَحْشَاءِ فِي عُقْرِ دَارِ
الرَّبِّ.

امرأة لها هيبه، تتفاقم هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل
الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة، وهي في هذا العمر تبدو
راهبةً وحشية بزيمها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها
ويديها. ولم تخشها يومًا تلك الوافدة الصغيرة، بل أحبتها ورأتها كائنًا
أسطوريًا مختلفًا عما عرفت في ديار أهلها من قبائل بني تميم.

تبرق عيناها حين تتكلم بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئرٍ
سحيقة. نخيفة العود، عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبة مخيفة؛ نظراتها جادة
جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعة برية شرسة.

على الفور أمرت باجتماع عاجل وطارئ لكل كهنة وكاهنات الدير،
وبحضور أعضاء المجمع المقدس، لاتخاذ قرارات مؤلمة؛ فالأمر جلل، وما
وقع ليس بالهين اليسير. وحين اجتمعوا، انتبذت سباح مكانًا قصيًا من
ساحة اللقاء، الذي كان في القاعة الكبرى من الدير.

وبدا الجمع في ترقب حذر، والجميع في ثياب الوقار، والكهنة والكاهنات في
صمت رهيب، لا يسألون عما لا يعلمون حسب الطقوس، وإن كان
الهمس يسري في الأرجاء بلغظ عجيب، يشبه لغط الدجاجات الجائعة في
الحظائر الضيقة.

اصطفوا صفوفًا متوازية متوالية منتظمة في قسمين كبيرين؛ أحدهما للكهنة، والآخر للكهانات، بينما أبو كحيلة زائع البصر، متوتر مضطرب من الداخل، وإن بدا راسخًا كالجلبل، مطأطئ الرأس، يشعر بشيء من الخزي والأسى وسط هذا الجمع الغفير.

ومن حين لآخر يرمق سباح خلسةً بنظرات ذات مغزى، لكنها تلتقط رسائله التي تبعث في نفسها الطمأنينة والثقة في هذا الموقف العصيب. ولم لا، والجمع كله حاضر من أجل الجرم الخفي بالليل، المشهود توابعه بالنهار؟!!

انتظروا لبعض الوقت، والصمت مطبق على الجميع، كأن على رؤوسهم الطير الجوارح. وحين دخلت عليهم الكاهنة الزبراء، مهابة الركن، وقورة الجانب، عليّة المقام، تتوكأ على عصاها، محنية الظهر، ومن حولها من يسندوها عن يمينها وعن يسارها من خادمت الدير، وقفوا جميعًا وقد أحنوا رؤوسهم قليلًا تقديرًا وتقديرًا.

تأملتهم جميعًا بنظرات حادة متفحصة، كأنها تفتش عمّا في نفوسهم، ثم جلست على كرسي مرتفع عن كراسيهم، وتكلمت بصوتها الجمهوري الرجالي الحشن الأجش، قائلة:

– يبدو أننا، كخدمٍ للإله الأعظم، نساءً ورجالَ دين، قد فشلنا في أن نعلمكم ماذا تعني الفضيلة... أتعرفون ما هي الفضيلة؟!

إنها ليست مقاومة الغواية دون صراع، وليست الصبر على الحرمان وكفى؛ فلا أحد يستطيع أن يقاوم رغباته، ويحارب شياطينه طوال حياته، ولو فعل ذلك فلن يصمد أو ينتصر- في كل المعارك. لا أحد يستطيع أن يحذف شهواته الدنيوية أو يلغيها من الوجود؛ لا أحد إلا الأنبياء المؤيدين بقوة من الرب ومعجزاته، المعصومين من الخطايا والدنايا.

وأتم – أيها التعساء المساكين أبناء الطين والماء المهيّن – لستم أنبياء، ولن تكونوا أبدًا، ولن تبلغوا هذه المرتبة العظمى؛ لأن الله خلقكم هكذا، وأرادكم هكذا.

ربما تكونوا ورثة الأنبياء، لو أحسنتم التمسك بأفعالهم وأقوالهم، وسرتم على دروبهم، وعرفتم حق السماء عليكم، وحق الأرض أيضًا.

سكنت لحظات تلتقط أنفاسها وتفكر، ثم تنهدت بمشجرة طويلة، وقالت:

– إن الغواية هي الباب الواسع للخطايا، ولا أحملكم فوق طاقاتكم، وأقول لكم: انبذوا الغواية... لأن هذا مستحيل عليكم؛ فليس بمقدوركم أن تهجروها مليًا، أو تفارقوها تمامًا؛ لأن طبيعة البشر- أنهم خطّائون،

والغواية لها قوة قاهرة جبارة. لكن عليكم أن تتعايشوا معها بشرط ألا تستسلموا لها، ولا تُسلموا قيادة أرواحكم وزمام أجسادكم لتلك الغواية المذمومة.

ثم لاذت بالصمت، وتأملتهم جميعًا بعيني صقرٍ غاضبٍ مستنفر، وألقت نظرة على سجاج التمية وفتاها أبو كحيلة دون أن تتحدث إليهما على وجه الخصوص، وعادت بصوتها المهيب الرهيب الأجش تقول:

— أتعرفون الفضيلة، ما معناها؟! ألم تطالعوا الكتب المقدسة؟!

إن الفضيلة ليست كلمة تُقال، إنها تلك العباءات التي نرتديها، والعمائم التي نغطي بها رؤوسنا... إنها الرداء الكبير الذي يستر عوراتنا، ويحصننا من السقوط في حفر الخطايا الصغيرة والكبيرة.

إن الفضيلة — يا رفاق — هي الحجة التي نعيش بها في دنيا الغواية، دون أن نضل أو نغوى، إنها مجرد قناع نحافظ به على هويتنا الخاصة، وعلاقتنا الطيبة برنا، وسط عالم يموج من حولنا بخطايا وغوايات وذنوب بعدد حبات الرمال في هذه الأرض التي تأوينا.

وعادت للصمت من جديد، ولم يدر أبو كحيلة إن كانت خالته الكاهنة الكبيرة تتحدث إليه هو شخصيًا أم تتحدث إلى جموع الحاضرين. وظل

الجميع صامتين، بينما أصابع الكهنة تداوم على تخلل اللحى. ولم تكن الكاهنة العجوز بنت رثام تنتظر رثام من أبي كحيلة أو غيره؛ لم تكن تنتظر رثاماً أو تعقيباً أو تعليقاً على كلامها، بل اعتبرتها عظةً لعل الجميع يتعظ منها.

ولكنه نظر إلى عينيها مباشرة، فرأى جمرتين مشتعلتين في مقلتيها، ثم اختلس نظرة إلى مصدر غوايته التيمية سباح بنت الحارث. وكذلك رمقتها الزبراء بنظرات حادة كوصول السيوف، دون أن توجه لها لوماً ولا عتاباً مباشراً، ثم عادت تسأل أبا كحيلة بلوم مبين:

— يا بن أختي... يا من كنت أعول عليك أن تحمل راية الكهانة من بعدي، وترفع شأن بني رثام كما فعلت أنا لسنوات طوال، ماذا فعلت بنا وبنفسك أيها الفتى الغرّ المغرّر بك؟!

يبدو أنك ما زلت لا تعرف النساء، لن أقول لك سوى ما قاله المسيح: (ابك على خطيئتك ما دمت حيّاً).

ماذا لو قدمت هذه الفتاة الكاهنة شكوى لقومها وأهلها عما جرى لها هنا في الدير من ابن أخت الكاهنة الكبرى؟! ماذا سيقولون عنا وهم يثقون بنا ثقة عمياء؟! أهذا الدير بيت الرب أم بيت الشيطان؟!

أيقولون عنا إننا خونة؟ أعطونا ابنتهم أمانة، ونحن ضيعنا تلك الأمانة
وغدرنا بها؟!!

ظلت العيون شاخصة، والأعناق مشرّبة نحوها، والصمت سيد الموقف،
ولا شيء يُسمع سوى نبض القلوب في الصدور، وتردد الأنفاس من بين
الضلوع. عندئذٍ أشارت لأبي كحيلة بيدها اليمنى العجفاء المعروقة الضامرة،
قائلة:

— أترى تلك الفسيفساء التي تكسو جدران هذا الدير العتيق؟!

نحن هنا يا بني مثل هذه الفسيفساء؛ كل قطعة مركبة على الأخرى في
انسجام متقن وتوازن دقيق حرج، لو اختلت قطعة واحدة فكل شيء
محدد بالانهيار.

لقد أخلّت فعلتك الشائنة في هاتيك الليلة المشؤومة الممطرة بذلك
التوازن الخفي غير المرئي للدير؛ لقد دنست قداسة المكان، ودنست
روحك بما فعلت.

ربما يلومني البعض على أنني أفشيت السر على الملاء بينكم، وهذا يخالف
تعاليم الدين، لكنني أردت أن أردع الآخرين، وألا يتكرر هذا الفعل في

الدير مرة أخرى... ومن أراد الفحشاء فليخرج بعيدًا عن هنا، وليذهب لأهل الفحشاء بعيدًا عنا.

بدأت الكاهنة الكبيرة غاضبة، واستردت روحها الشريرة المخيفة. امرأة لها هيبة تتفاقم هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة. تبدو راهبة وحشية بزيها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها ويديها، تبدو كائنًا أسطوريًا مختلفًا. تشرق عينها حين تتكلم بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئر سحيقة. امرأة نخيفة العود، عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبة مخيفة، نظراتها جادة جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعة برية شرسة.

عندئذ همس في أذنها كاهن كبير، وهو يتهد بجرقه، يسكب الزيت على النار:

— ما حدث قد حدث، لذلك لم يعد لهما مكان بيننا، ولا ينبغي أن نترك الثمرة الفاسدة في سلة واحدة مع باقي الثمار حتى لا تفسدها!

خُيِّلَ إلى أبي كحيل أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة جيدًا، فهمهم متسائلًا:

— ما معنى هذا يا أبانا؟!

— كما قلت أنا، وكما سمعت أنت.

– ولكن يا أبانا، هذا هو خطي الأول، وسوف يكون الأخير، وقد اعترفت وطلبت العفو والغفران، وأعلنت التوبة والندم.

قالها الفتى من وراء قلبه، وإن كان يتمنى في قرارة نفسه أن يطردوه هو وسجاح، ويتم شلحهما من الدير إلى الأبد.

عادت الزبراء تزوم، ويخرج صوتها الأجش خشناً هادراً:

– يجب أن يكون هناك عقاب للآثمين... ألا يكفي أن رجلاً ظهر في مكة، يدّعي أنه نبي هذا الزمان وخاتم الأنبياء والمرسلين، ويقول قرآنًا عجبًا، ويدعو الناس للإيمان به وبرسالته؟!

إن الغواية ليست عنا ببعيدة، بل صارت معنا، وسكنت بيننا في هذا المكان المقدس المخصص لخدمة الرب وعبادته، وتكفي زلة قدم واحدة ويهوى الجميع في الخطيئة، بفعل الغواية اللعينة.

لا بد من رادع، وعقاب لاذع لكل من تسول له نفسه أن يتذوق لذة الخطيئة؛ عليكم أن تتكيفوا وتعيشوا بجانب الغواية دون الوقوع في براثنها، أو السقوط بين خيوطها العنكبوتية.

بنبرة خافتة كسيرة، تكلم أبو كحيله:

– وهل سأكون أنا كبش فداء للجميع منذ آدم حتى اليوم؟!

أليس الكل خطّاء، والعصمة فقط للأنبياء، وليس بيننا نبي أو معصوم؟!

هتفت بمحشرة محتدة:

– ألم أقل لك من قبل ما قاله المسيح: (إذا أردت أن تصلي فأغلق عليك بابك)؟! ألم أقل لك: إذا أردت أن تذنّب، عليك أن تفتح الباب، وتعترف حتى لا تعود لمثل ذنبك، يا بن أختي؟!

بشيء من الضيق، قال بتوسل:

– كلنا مذنبون، وجئنا إلى هنا عسانا نفر من الخطايا، وأملنا أن نكون معصومين من الدنيا.

بنبرة لائمة، قالت بحسم:

– لا عصاة بيننا، هؤلاء جميعًا باركهم الإله، وراقبتهم بعيني سنوات طويلة. أنت العاصي الأول هنا. إن الدير واحة الفضيلة، ولا مكان فيه للغواية... ماذا فعلت بنفسك وبنا؟!

قال بأسى:

– فعلت ما فعله آدم من قبل، وفعلت ما فعله قابيل من قبل، وفعلت ما لم يستطع فعله يوسف بن يعقوب في قصر عزيز مصر!

ثم انتفض الفتى واقفًا مستنفراً مدهوشًا، ونظر إلى أقرانه لعل أحدًا من هؤلاء الكهنة يتدخل لإنقاذه، لكنهم كانوا غارقين في ذهولهم، مدهوشين كالسكارى. ويبدو أن الزبراء بنت رثام أحست بمدى قسوتها عليه، فقالت له بنبرة لينّة:

– لا بأس عليك يا أبا كحيلّة، لا مفر من المغادرة، وعليك أن تكون مستعدًا للخروج من الدير قبل نهاية هذا الأسبوع... قُضي- الأمر، ولا رجعة فيه.

ثم نظرت إلى سباح نظرة ذات مغزى، وقالت لأبي كحيلّة مسترسلة:

– ألم أحذرك يا ابن أختي من الغواية؟! كنت أشك في قول الحارث التميمي إن البنات ذريعة إبليس. ألم أحذرك من أن المرأة كائن خطير معجون بالغواية؟! ألم أخبرك بسرّها الأزلي الأبدي منذ أمنا حواء وحتى آخر النساء؟!

ألم أخبرك بأن المرأة هي الغواية الأولى؟! ولولا أنها كذلك ما كنا نحن الآن على وجه الأرض؛ لقد كان مقدّرًا لنا أن نبقى في الجنة؟!

أوماً برأسه نحو الأرض، وأمسك بلحيته بين أنامله، وجزّ على نواجذه،
ولم يرد، فواصلت قائلة:

— أتدري لماذا جاءوا بصاحبك — سباح — إلى هنا قبل سنوات، وهي
ما تزال طفلة يانعة بنت الخامسة؟!

حلق فيها بتركيز، فرآها كائنًا أسطوريًّا يزداد حجمها بشكل خرافي، ويكبر
ويتعملق كديناصور لم ينقرض بعد. رأى خالته الكاهنة الكبرى أفعى
الهدرا برؤوسها المتعددة، ولم ينطق، بل ظل مستغرقًا في ذهوله الخيالي.
قالت الكاهنة العجوز:

— خافوا من أن تجلب لهم العار؛ أراد أبوها أن يئدها ويدفنها بالحياة في
أي حفرة من حفر الصحراء، فقلت له: لا تفعل هذا الجرم، ابنتك
سيكون لها شأن عظيم. فتركها الرجل ومضى- إلى حال سبيله، لا يبالي
بأمرها!

وها هي اليوم جلبت العار للجميع، ولطخت الدير برجس من عمل
الشیطان.

وقف الفتى منتفضًا منزعًا مما سمع، وقد فضحته خالته كبيرة الكهان،
وكشفت سره مع سباح، فمضى غاضبًا مكلومًا يرتجف من الحزن. وبينما

كان يعبر الأروقة الرطبة ويقترب من باب غرفته، وجد نفسه يتمنى لو يجد سباح قد سبقته إليها.

هي الوحيدة في تلك اللحظة العصبية المقفرة التي ستمنحه الحنان والعطف الذي يحتاج إليهما، بعد قسوة الكاهنة الأم الخالة الزبراء بنت رثام.

لم يحمل فتاته الجميلة أي نصيب من اللوم؛ كل ما يشعر به أنها أعطت روحه طاقة من الجنون، وحررت نفسه من أسر هذا الدير العتيق الذي يشبه السجن الكبير. كانت تلك الأنثى الفاتنة المتدثرة في ثوب راهبة هي ذنبه وخلاصه، هي متعته وعذابه، ناره وجنته، لكنها لم تكن آنذاك في غرفته.

جلس في غرفته وحيداً، يكاد يبكي، مكسور القلب، مهزوم الروح، محطم المعنويات، مهيمض الجناح، منتفخ الوجه من أثر الغضب والندم. يخاف ألا تحمله قدماه إلى غرفتها لو أراد الذهاب إليها، لكنه لن يفعل، وكفى ما حدث في الليلة الممطرة بجنون.

ألقى بنفسه على فراشه الخشن المتواضع، وبدأت الدموع التي أمسكها طويلاً تطفّر من عينيه بغزارة.

لم يكن ناقماً على ذاته، ولا على الكهنة رفاقه، ولا على الكاهنة الزبراء رغم كل ما قالته من كلام جارح، ولم يكن لائماً على ذاته، أو على فتاته، أو على الآخرين، بل كان لائماً على الطين الذي خُلق منه بنو البشر أجمعون!

لكنه بدا مدرّكاً لما آل إليه مصيره؛ عرف بالطريقة الخفية التي جعلته يفك طلاسم أنثاه التميّة، وينفذ إلى قلبها وروحها، أن أيامه في الدير صارت معدودة. لا بأس... إن كل ما يهيمه ألا يفارق فتاته... لكن إلى أين يذهب، وهو مرتبط بها ارتباط الضوء بالنهار؟!

أدرك أن الزبراء - أخت أمه - قضت على مستقبله في الدير، وما زالت هناك فرصة للمراجعة، وربما المسامحة لو أنها أرادت بالفعل أن تصفح عنه، ولكنه اختار أن يبقى في الدير حتى الموعد المحدد؛ لن يغادره ويترك سباح، فمصيرهما واحد الآن لا محالة... إما أن يرحلا معاً، أو يبقيا معاً.

ظل جالساً في غرفته حبساً فيها منهكاً، لا يقدر على الخروج منها، ولا يستطيع الظهور مرة أخرى. وبأي وجه يلقي الرهبان والراهبات وخدم الدير، وقد شاع أمره وذاع سره، واقتضح ستره؟!

أحس بالندم على اعترافه للكاهنة خالته، وهمس لنفسه بصوت ملتانع:

— ما كان ينبغي البوح لها، وها هي قد نشرت خطيئته على الملأ داخل
الدير، وما عاد باستطاعته أن يخرس الألسنة أو يكتم الأفواه.

انتهى الأمر، وعليه أن يفارق الدير قبل نهاية الأسبوع، لكن لا بد له أن
يعرف مصير سباح، ولا بد له أن يتحدث معها، ولا يغادر بدونها.

استغرق في فراشه، وراح في غفوة بين النوم واليقظة، ورأى فيما يرى
النائم عربات تجرها خيول جوامح قادمة من قرى بعيدة، وهي محملة
بسلال عديدة من الكرز والخوخ والتفاح الناضج. وبدا له النهر من بعيد
رمادياً متألّفاً. فتح عينيه ثم أغمضهما ليتأكد أنه حلم لا سراب.

حاول أن ينأى بعقله عن التفكير في موقع غوايته الأولى، وفردوس
القلاية القريبة في الضفة الأخرى من الدير، حيث تقبع التيمية الحسنة
التمرية اللون بالليل، المرمية الجسد الممشوق في الضوء الخافت بالنهار.

أحس فجأة بالعطش، فرآها بعين الخيال كالماء العذب المذاب من ثلوج
نقية، كالرغبة المخبوءة تحت جلده؛ ماء عذب كالشهوة العارمة، لاسع لاذع
مؤلم كلدغ العقرب.

ظل في غرفته لا يغادرها، ولا يدري ماذا سيفعل، لكنه سمع وقع أقدام هادئة أمام باب غرفته؛ يبدو أن أحد الخدم يضع له الطعام بالقرب من الباب، ثم دق طرقات خفيفة، وانصرف دون أن ينطق بكلمة واحدة.

لا يدري كم مر عليه من الوقت وهو على هذا الحال. أطل من نافذة غرفته على شرفة سباح، فوجد النافذة مغلقة بإحكام، كأن خشبها حزين ونادم على ما جرى.

وكيف للخشب أن يندم على بعث الموتى وعودتهم إلى الحياة مرة أخرى؟!

لا بد أن الخشب مخطئ، وسيئ الظن مثل الكاهنة الكبيرة بنت رثام.

صار كالشجرة حين يقررون قطعها بضربات الفأس، وأكثر ما يؤلم الشجرة ليس قطعها ووآد عمرها، بل لأنهم يقطعونها بفأس لها يد من خشب، هي ضلع من أضلاعها.

أرهف أذنيه لعله يسمع صلصلة الأجراس تُقرع، بالفعل دقوها، إنه قداس الأحد قد حان... أترأه ينزل ليؤدي طقوسه المعتادة، أم أن كاهنًا آخر سيحل محله بأمر الكاهنة الكبرى؟!

وبينما هو ما زال شاردًا يفكر، جاءه صوت طرقات على الباب، ثم تبعها صوت هادئ هامس:

— أيها الكاهن الموقر... أمنا الكاهنة الزبراء تدعوك لأداء القداس.

دهش ولم يصدق ما سمع بأذنيه؛ كيف سيؤدي القداس، وقد أمهلت له نهاية الأسبوع ليغادر الدير؟!

كيف، وقد فضحته بخطيئته على الملائكة المبين في حضرة الراهبات والرهبان؟!

وكيف للمذنب المدنس أن يصلي بالأبرياء الأطهار؟!

شيء عجيب... كيف تفكر هذه المرأة العجوز بكل ما فيها من تناقضات؟! وماذا تريد؟!

17 ديسمبر

الدير / مقر الزبراء.

7 قبل الهجرة / 616م

قبل أن يحسم أمره بالذهاب أو الامتناع عن القداس، استدعته خالته الكاهنة الزبراء إلى مقر إقامتها، وكانت تجلس وسط حشود من الزوار، جاءوا - يوم الأحد - من كل فج عميق لالتماس البركة، وطلبًا للغوث من هموم الدنيا ومتاعب الحياة التي لا تنتهي، ولكل زائر حاجة عندها، وفي نفسه يقين أنها ستقضي- له حاجته، وتلبي له رغبته، وتجلب له الخير، وتصرف عنه مصارع السوء.

دخل عليها أبو كحيلة مطأطي الرأس، منزجًا من هذه الحشود، كأنهم ضبطوه متلبسًا بالجرم المشهود، وعندما رآته الكاهنة أشارت للناس أن ينصرفوا الآن، وأومات برأسها لرجل واحد بالقرب منها أن يبقى. بدا الرجل طويل القامة، شديد النحافة، أعجمي كغصن البوص الممصوص.

يراه الفتى هنا لأول مرة، وها هو يهمس لها، وتهمس له، ولا يدري من يكون، ولا من أين أتت به؟!

تأمله الرجل النحيل بحذر شديد وتركيز أشد، وابتسامة باهتة ساخرة مأكرة على وجهه الأسمر الضامر، مسعوف الخدين، كأنه يعرف سره في الليلة الممطرة.

لاحظ الفتى أن هذا الرجل النحيل المعروق يمسك بين يديه عددًا من الخيوط السوداء، وقد ربط اثنتين منها حول غصن شجرة في المكان الفسيح، ثم عاود الجلوس في موضعه كما كان، بهدوء وخفة حركة ورشاقة.

بدا الرجل أسر المنظر، كأنه خرج تَوًّا من مقبرته، وسرعان ما سيعود إليها فورًا... لحيته صفراء مائلة إلى الحمرة، تحاصر وجهه بشكل كثيف حتى تكاد تخفيه، عيناه ضيقتان كعيني ثعلب صحراوي مراوغ، وجلده شاحب مشدود، وشعره الطويل الكث متدلٍ في خصلات جعداء، يشي- بالفوضى واللامبالاة. كان فيه شيء بريّ وفطري، مثل الطبيعة البكر التي لم ينتهكها إنسان أو حيوان.

عيناه الضيقتان الثعلبيتان تتجولان في قلق وسط أرجاء المكان، كأنه غريب أو عابر سبيل يدخل صومعة الراهبة الزبراء لأول مرة.

يبدو أنه اختزن طاقة جسده النحيل في هاتين العينين الجريئتين، تبادل معها النظرات السريعة، لعلهما اتفقا على شيء ما، أو تفاهما على أمر ما، لم يُحِطْ به الفتي علمًا حتى الآن.

بعد فترة نهض واقفًا، وقد أومأت له الزبراء برأسها، فعاد إلى خيوطه المتشابكة بعقدها المتعددة، وبدأ يربط ويعقد المزيد منها... لم يكن أبو كحيلة يدري ماذا يفعل هذا الرجل الغريب غرابة الموت، الغامض غموض الحياة!

إن مظهره الرث ومنظره البائس يشيان به، كأنه ساحر أو عزّاف أو دجّال؛ فتلك هيئتهم الفوضوية، لكنه لم يستطع أن يسأله عن شخصيته ولا مهنته في حضرة الكاهنة الكبيرة الآمرة الناهية في هذا الدير الفسيح، الباسط جناحيه على أطراف الصحراء الممتدة من جزيرة الفرات غربًا حتى بلاد فارس شرقًا.

وعندما عاد الرجل إلى مكانه بالقرب منه، انتهز أبو كحيلة الفرصة وسأله هامسًا:

– ما كل هذه الخيوط السوداء؟ هل أنت مثقل بالهموم إلى هذه الدرجة؟!

رد عليه الرجل، وهو يهمس باسماً بصوت خفيض:

– لا يا ولدي... هذه ليست الهموم.

– وماذا تكون إذن؟!

– ألا ترى أنها كلها سوداء كالليل الحالك؟!

– آه... بالفعل... ولماذا كلها سوداء؟!

– إنها الذنوب والخطايا يا بني.

سكت أبو كحيلّة، وُصِّدَ مما سمع، كما لو كان الرجل يعيره بخطيئته، ثم نظر إلى خالته الكاهنة، فوجدها تزوم مغمضة العينين، كأنها في نوم قصير خفيف وستفيق بعد قليل... لكنها لم تكن أبداً نائمة، بل كانت في لقاء مع آخرين، لا يدري الفتى إن كانوا من الأشباح أم من الجن، وربما يكون هذا الرجل الضامر الغريب الجالس أمامه عفريتاً من الجن... من يدري؟!

لعل الكاهنة ترى غيرهما حين تغمض عينيها، وتزوم وتزأر وتزجر وتغمغم بكلمات مسجوعة غير مفهومة، وتنطق بطلاسم لا قبل له بمعرفة معانيها.

ثم نظر إلى الرجل القابع أمامه، وقال له بشيء من الدهشة:

— أظن أن هذه الخيوط لا علاقة لها بالذنوب والخطايا، إلا في اللون الأسود فحسب، ولكن ما كل هذه العقد التي صنعتها فيها، وتحاول أن تفكها مرة أخرى؟!

بدا الرجل مرتاحًا للسؤال، وقال بهدوء وثقة:

— تلك خطايا بعض الناس، علينا أن نسعى لمحوها، ونلتمس لهم الغفران بكل الوسائل الممكنة.

— إن الغفران لا يأتي هكذا... إن هذه لبدعة، ما هكذا تُمحي الذنوب، ولا بالخيوط السوداء تتلاشى الخطايا.

لم يعجبه القول، وتمتم باسقاطه:

— أعطني كفك يا بني لتر.

بسط كفه إليه، وقد أفاقت الزبراء — في تلك الأثناء — من غفوتها، وسلّطت نظراتها شزرًا، تراقب عن كثب بترتيب منها، ثم تكلم رجل الخيوط الغريب الغامض متسائلًا:

— ما اسمك يا ولدي؟!

– أبو كحيلة.

– ومن أي قبيلة أنت؟!

– من قبيلة بني شلصوم بأرض الفرات.

– وما اسم أبيك؟!

– عبس... عبس بن شلصوم.

– وما اسم أمك؟!

ضحك الفتى وسأله:

– ألم تخبرك أمنا الكاهنة؟!

– لا يا ولدي...

– أمي سدينة بنت رثام.

نظر الرجل إلى الزبراء بشغف، وقال:

– آه... بنت رثام... أمك من قبيلة الكاهنة الزبراء، يا لها من قبيلة شريفة
عالية المقام.

– أمي سدينة الأخت الشقيقة الصغرى للكهنة الزبراء.

تبسمت الزبراء، وهزت رأسها تصديقًا على ما تسمع، ثم عاد رجل الخيوط
السوداء يحدق في كف الفتى متسائلًا:

– جئت إلى هنا يا أبا كحيلة لتكون كاهنًا... أليس كذلك؟!

– بالفعل، جاءوا بي إلى هنا لأنجو من المهالك المحتملة، فكانت الرهينة هي
الحل.

– لكنك يا بني وقعت بالفعل في المهالك غير المحتملة... آه من الأقدار.

سكت الفتى، وأطرق نخلاً، ونظرات الكاهنة العجوز الشمطاء لا تفارق
صفحة وجهه، ثم عاد الرجل الضامر يسأل:

– ولكنك على كل حال لست ملحدًا؟!

وقع السؤال على أبي كحيلة كالصاعقة، لكنه تبسم باستغراب:

– لو كنت ملحدًا، ما كنت وجدتي في هذا المكان الذي قضيت فيه
سنوات من عمري!

زامت الزبراء، وصار صوتها يخرج نشارًا بلا كلمات مفهومة، إنما غمغيمات
وزمجات وحشرجات، كأنها تحدث الجن في الخفاء أو تتاجي الأشباح
التي تراهم دون سواها.

ساد صمت رهيب بعد ذلك، فبادر الفتى رجل الخيوط العجوز بسؤال:
— لا تؤاخذني... لماذا أنت هنا الآن، وماذا تفعل بكل خيوطك السوداء
المتشابكة تلك؟!

بدت على محياه ابتسامة باهتة، وتتم:
— جئت إلى هنا لأفك عقد الخطايا وطلاسم البلايا، وأحاول أن أنتشل
المذنب من ذنبه، وأعمل على ألا يعود إليه.
بنبرة متهمكة، قال أبو كحيلة متسائلًا:

— عجبًا لك ولخيوطك تلك... أهذا السواد، كخيوط الليل، تنتشل
المذنب من ذنبه؟!

اعتدل الرجل الضامر بجسده النحيل وعظامه البارزة، وقال كأنه حكيم
الزمان والمكان:

- كل خيط أسود أضعه حول غصن الشجرة هو ذنب نلتبس عنه الغفران، ونأمل في عدم العودة إليه، والتوبة منه والندم عليه.

اتكأ الفتى إلى أحد الأعمدة، وأغمض عينيه، كأنه يللم شذرات حكايته المدهشة منذ جاءوا به إلى هذا الدير، عاكفًا على الصلوات والعبادات، حتى انتهى به المطاف والاعتكاف في غرفة الراهبة الفاتنة سباح التمية.

في الليلة الممطرة التقى الشاب الذي يريد كل شيء من هذه الحياة مع الفتاة التي زهدت في كل شيء إلا هو... تلكقسمة عادلة.

فتح الفتى عينيه، وتأمل العجوز الضامر المنكب على تصفح كف يده والعبث بخيوطه السوداء، ثم رفع بصره وحدق في عيني أبي كحيلة البراقتين الواسعتين الكحيلتين، وعاد ليفك خيوطه المعقودة.

بدا للفتى أنه ليس بإنسان، ربما هو عفريت من الجن استحضرت خالته الزبراء من ملكوته البعيد... لا شيء غريب، ولا شيء مستبعد في هذا الكون.

عندئذ خرج صوت الزبراء متحشرجًا، كأنه يأتي من بئر سحيق في باطن الأرض:

- القداس يا أبا كحيلة.

- لا شأن لي بالقداس أيتها الكاهنة من اليوم.
- لماذا يا ابن سدينة؟!
- المذنبون لا يستحقون الصلاة بالناس.
- سنطهرك من الذنب.
- لا أحد يطهر أحدًا من الخطيئة.
- سنطلب لك الغفران.
- لا أريد ذلك من أحد، ولسوف أفعل بنفسى هذا الأمر، وأعرف كيف أظهر نفسى من خطيئتي.
- وكيف ستطهر نفسك، أيها الكاهن المتهور؟!
- بالزواج من سجاح.
- لكن الكهنة لا يتزوجون.
- لم أعد كاهنًا، أيتها الكاهنة، وسأعود إلى الديار التي جئت منها قبل سنوات شخصًا عاديًا، يخطئ ويصيب، يذنب ويستغفر. إن الملائكة لا تسكن الأرض، ونحن لسنا ملائكة.

هزت رأسها قائلة:

— هذا يعني أنك ستغادر الدير، أيها الكاهن الأرعن، ولن تعود إليه؟!

— بالطبع لن أعود، ولم أعد كاهنًا منذ أن اعترفت أمامك بفعلتي... لا حاجة بي إلى الكهانة بعد اليوم، كما أظن أن الكهانة ليست بحاجة لشخص مثلي له قلب ينبض.

— ولماذا تقول هذا؟!

— لأن الكهانة تحتاج لأموات بالحياة، أما أنا فما زلت على قيد الحياة، ولم أمت بعد.

في تلك الأثناء جاءت سباح تتهاذى بعودها الممشوق، وجمالها المدفون في ثوب كهانتها، وحياء العذارى يستقر على قسماتها... لم يكن الفتى يدري أن الكاهنة الكبرى الزبراء بنت رثام قد أرسلت في استدعائها هي أيضًا لتمثل أمامها مثل المذنب أمام القاضي.

وقفت سباح في ركن قصي، رمتهم جميعًا بنظرة عابرة، ثم وضعت عينيها في الأرض، واطمأن قلبها لوجود فتاها.

توقف الرجل العجوز الضامر عن ملاحقة خيوطه السوداء التي يعقدها ثم يحاول جاهدًا أن يفكها، وقد أدرك أن تلك الراهبة الشابة الحسنة هي الطرف الثاني من خيط الخطيئة التي وقعت في الدير، فتبسم بنجث ولم ينطق، بينما تكلمت الزبراء قائلة:

— يا بنت التمي، أنجيناك من الواد صغيرة، وكان أُملي فيك كبيرًا أن تأخذي مكاني ذات يوم، وتبويي مقعدي، لكنك — وأسفاه — استسلمت للشيطان، وما زلت أذكر منذ سنوات بعيدة، عندما جاء بك والدك الحارث، وأملك منتهى بنت القيسي، قلت لهما:

— إنك ستكونين فخر قبيلتك... وها أنا ذا أقول لك الآن يا بنيتي: لا تخافي، فما زلت عند رأبي رغم ما حدث.

وما زلت أتذكر أيضًا قول الحارث التمي لي همسًا حتى لا تسمعه أملك:

— إن البنات ذريعة إبليس الخبيث، وهن لعبته، لذلك كان متحمسًا لقتلك بالحياة ودفنك في أي حفرة من حفر الصحراء المترامية الأطراف من حولنا، كما يفعل معظم قبائل العرب، لكنني أنكرت عليه ذلك، واستنكرته منه، واستبقيتك هنا لأريبك وأتعهدك بالرعاية، وأعلمك على عيني، وقد فعلت كل شيء من أجلك.

ثم سكنت الزبراء، وأطرقت كأنها تستدعي الماضي البعيد من خزائنه المغلقة، من الذاكرة العتيقة التي غبرها الزمن الذي لا يرحم أحدًا.

وأخيرًا تكلم أبو كحيله، وهو يرمق فتاته بنظرة حانية، وثوبها المنحوت على قوامها المفرد يخطف قلبه المتيّم بها، وثمرتا الرمان المعلقان على صدرها النافر تجعلانّه يود الخروج من جلده ويهتف من قلبه:

— لماذا تقتلون الورد في حدائقه، وبين مروجه الخضراء اليانعة؟! لماذا تصرون على اغتيال زهوته وبراءته؟!

بدت الكاهنة بنت رثام امرأة وحشية قديمة قدم الصحراء على هذا الكون، وقالت بصوت أجش خشن:

— لا تستبشعوا السباع حين تقتل فرائسها إهدارًا للحياة، ثم تأكلها حرصًا على الحياة!

قال أبو كحيله، وهو ينظر نحو سباح:

— لسنا أول ولا آخر من يخطئ في هذا الكون، الخطأ بالفطرة يا أمنا الكاهنة.

— أعلم هذا يا ابن سدينة.

– لقد وسوس الشيطان لأبويننا، آدم وحواء، وهما أول الخلف، فأزلهما عن عهدهما، ووقعا معًا في غواية إبليس حين ذاقا من الشجرة التي نهاهما الله عنها. ألم يكونا في ذلك سواءً في الخطأ؟!

– بلى... لقد كانا بالفعل.

– وماذا كانت النتيجة، أيتها الكاهنة الحكيمة؟!

– النتيجة يا ابن سدينة أن الأنبياء علمونا الفضيلة، وعلمونا الخجل باعتباراه رأس الفضيلة، وعلمونا أيضًا كيف نسير على الطريق المستقيم لتتفادى الزلل والحفر، والسقوط في بحر الخطيئة المظلم الذي سقطت فيه ليلة المطر المنهمر.

طأطأت التيمية رأسها حياء، وفي عينيها انكسار وندم، لكنها لم تتكلم، كانت تدرك أن السمكة حين تفتح فمها يسهل صيدها، وكفاهها ما أصابها... وقال الفتى مستنكرًا:

– يا أمنا الكاهنة... من هو المعصوم منا؟ لا أحد سوى المسيح بن مريم، ونحن لسنا بأنبياء مثله، هكذا خلقنا الله من طين، أتدرين ما معنى الطين؟!

هزت رأسها، وخفت حدة ملامحها المتقلصة، وبدأ يدب في قلبها شيء من التعاطف الخافت، ويلمع بريقه في عينيها:

— أراك يا ابن أختي جئت تعلمني الحكمة.

— عفواً يا أمتا الكاهنة، منك تعلمنا كل شيء، وعلى يديك عرفنا الحق والعدل والجمال، وإن كان القبح والظلم والخطيئة لم يغادروا هذه الدنيا بعد، فما زال حضورهم متعادلاً... إنه الطين.

— ماذا تقصد بالطين يا أبا كحيلة؟!

— أود أن أقول — أيتها الكاهنة الحكيمة — إن الطين ملتصق بنا، ومنه خلقنا، وسنظل نتعثر فيه حتى نعود إليه، ولا نستطيع أن نتملص من وحل هذا الطين على الإطلاق، سواء كنا أحياء أم أمواتاً.

تبسمت متسائلة:

— ومن أي شيء كنت تتمنى من الله أن يخلقك؟!

— من النور، فنكون من الملائكة الأخيار، أو من النار فنكون من الجن الجبار، أو من الهواء فنكون من الرياح السائرة في الفضاء الحر، أو من

السحاب فكون كالطر المنهر، لكن الله خلقنا من طين... فكيف تتطهر
من الطين، أيتها الكاهنة؟!

– أقول لك يا ولدي: إن الفضيلة هي التي تطهر المرء من طينه، الزم
الفضيلة تبلغ الدرجات العلا، ولا تستسلم لطينك فتضل، وتظل تغوي في
الرديلة!

– لا رديلة، أيتها الكاهنة الأم... إنه ملاك الحب تمكن من قلبينا أنا
والتميمة سباح بنت الحارث، ولن نفترق بعد اليوم، سنغادر الدير حسب
رغبتك، ونعود إلى الديار التي فارقناها بضع سنين مكرهين، لنبدأ حياة
جديدة باختيارنا وإرادتنا.

– ومن الذي جاء بكما إلى هنا؟!

– كنا صغارًا، ولا نملك من أمرنا شيئًا، وجاءوا بنا قسرًا أو خوفًا، لم
يكن بيدنا قرار، ولا لنا اختيار.

– إنها الأقدار يا ابن أختي... غادرا الدير يا ولدي، واكتما سركما عن
الآخرين، إن سركما لن يغادر أسوار هذه البقعة المقدسة، كما أن
خطيئكما الأولى لن تخرج من هنا... استغفرا ربكما سرًا وعلانية، وعيشا

للحب وبالحب، وأنا سأصلي من أجلكم، وأدعو الله أن يبارك حبكما...
الله محبة.

تتأهى إلى سمعهم الأجراس تفرع، بدقات رتيبة منتظمة، كأنها دعوة من
السماء إلى الفضيلة، وإن كان الرهبان يؤمنون بأن الحب فضيلة إنسانية
عظمى، طالما كان الحب مقروناً بالعفة.

18 ديسمبر

بُستان الدّير.

7 قبل الهجرة / 616 م

خرجاً سوياً عبر البوابة الرئيسية الواسعة إلى البستان الأكثر اتساعاً خارج أسوار الدير... لا يُباليان بشيء سوى حبّهما، وقد جلسا تحت شجرة التوت العتيقة، وبجوارهما النخلة العالية المثمرة، يتذكّران طفولتهما هاهنا، ومذاق التوت اللذيذ والبلح المعسول لا يفارق شفّتهما، مُخلّداً في ذاكرة تذكُّنهما.

رغم أن الطفولة صارت سراباً من الماضي، مثل أشياء كثيرة تتسرّب من بين يدي الإنسان في كل وقتٍ وحين، دون أن يفقد إحساس الحنين، وتحوّل الذكريات إلى سرابٍ يحسبه الظمآن ماءً.

الشجرتان شاهدتان على أيام حبّهما الصامت منذ فجر الطفولة، وهما يلهوان معاً في براءة أوقات الفراغ من تعاليم الدير، وعباداته وصلواته،

ودروس الكاهنة الزبراء بنت رثام، تلك الكائنة الخرافية التي كانت سباح
تراها بشكل مختلف عن كل الناس، تحسبها كائنًا أسطوريًا وليست مثل
غيرها من النسوة!

تحس أنها امرأة لها جبروت، وهي قادرة على أن تصنع كل من حولها على
شاكرتها، وتستطيع أن تُصيغ المحيطين بها كيفما تشاء.

مدَّ يده بجراحة، فمسَّ يدها؛ عندئذٍ دبَّت في جسدها رعدة مفاجئة،
ابتسمت واستحتت، وبسرعة البرق والرعد سمعت يدها برفق، وهي
تتلفت حولها؛ للدير عيونٌ متلصصة لا تترك صغيرةً ولا كبيرةً، ولا تريد
لأحد أن يراها في حالة حب هكذا... إن الحب فضّاح، مثل سطوع
الشمس واندلاع الحرب.

قال أبو كحيله هامسًا، وهو يتأمل وجهها:

— جلدك الناعم شاحبٌ قليلًا، محرومٌ من الشمس منذ مدة طويلة،
عينك الواسعتان فارغتان، لم تريا شيئًا بعدُ من الدنيا، أيتها التميمية الجميلة
التي خطفت قلبي، ألا تعلمين أن الناس في كل مكان يمارسون الحب كيفما
شاءوا، إلا في هذا الدير؟!

تبسمت كعذراء في خدرها، وأطرقت حياءً، ولم تنطق بشيء. في تلك الأثناء رآها، كأن الأقدار قد جمعت كل الأحداث الجسام في يوم واحد؛ لم يرَ من تلك الفتاة إلا عينيها الواسعتين الأسرتين، هما مركز وجهها وجسدها وكل كيائها... أما بقية الملامح والتضاريس، فما هي إلا مجرد تفاصيل صغيرة.

كانت تُحدِّق فيه وهي شاردة، ثم تنقل نظرات عينيها الواسعتين بين الفراغ اللانهائي حول الأشجار، حيث الصحراء بلا منتهى، وبين وجهه الطيب وسماته البريئة، وقسماته التي لم تفارق طفولته منذ رآته لأول مرة، وهو في العاشرة من عمره.

عيناها الواسعتان تسعان الدنيا كلها، لديها شغف لأن تحتوي كل شيء؛ عساها تعوّض ما فاتتها خلف جدران المعبد.

تهد الفتى طويلاً، ثم قطع خيوط الصمت بينهما قائلاً:

— يبدو أن هذا الدير كان قدرنا المحتوم، جمعنا بين جدرانها لسنوات، ولسوف نجتمع بعد مغادرته إلى آخر العمر. صدقيني أيتها التميّة، لم أحس بمتعة الحياة مثلاً أحس بها هذه اللحظة.

تبسمت بخجل، وسألته هامسة:

– لا وقت لهذا الكلام... نحن الآن في محنة كبرى، ولا ندري ماذا نقول للناس عن سبب مغادرتنا للدير؟!

– الأمر في غاية البساطة... لا شيء، لا شيء نبرر به تفاصيل حياتنا للآخرين، كنا في مهمة وانتهت، وحن وقت العودة إلى الديار، سنعود إلى حياتنا الطبيعية مثل سائر المخلوقات، وننال حريتنا مثل الجندي في المعركة عندما تنتهي الحرب؛ هل يظل واقفًا في مكانه متأهبًا، أم يعود إلى دياره وأهله وحياته العادية؟!

– لكننا لم نكن في معركة وانتهت يا أبا كحيلة، أراك تبسّط الأمور كثيرًا، كنا كهنة في الدير، والآن لم نعد كذلك.

ضحك بمرح، وهو ينظر خلفه نحو بوابة الدير، ثم قال بنبوة محايدة:

– كنا في الحب، وتحررنا بالحب!

غميت سحابة عابرة في عينيها الواسعتين، وهتفت:

– أشعر بشيء من الحزن على مغادرة هذا المكان، ويؤسفني الخروج من ثوب الكاهنة.

- يا سباح... ستخرجين من ثوب الموت إلى ثوب الحياة... أيتها
السادجة، لقد كما رهائن لا رهباناً!

تنهدت، والدموع تظفر من عينيها الواسعتين كحبات المطر المنهمر في ليلة
الحب الباردة، وغمغمت:

- جئت إلى هنا، وعمرى أقل من خمسة أعوام، إن حياتي وذكرايتي هنا
في هذا المكان، والناس هنا هم عائلتي... أشعر بتوتر واضطراب من
الخروج، ويتنابني إحساس غامض بأنني لن أستطيع الحياة خارج الدير،
وربما أموت بعد أيام قليلة من مغادرته؛ أنا كالسمكة، خروجها من الماء
يعني موتها الحتمي!

مدَّ يده القوية بأصابعه الطويلة الرفيعة، وقبض على يدها الناعمة بأناملها
الرفيعة يمنحها دفقة أمان، وقال:

- بل قولي يا حبيبتى، ستكونين مثل الطائر الذي خرج من القفص،
وكان يظن أن الدنيا هي ذاك القفص، لكنه اكتشف الخدعة الكبرى التي
ضيّع سنوات عمره فيها حبسًا، حينما عرف أن الدنيا ليست هي القفص،
ولا القفص هو الدنيا، وأدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن القفص سجن
صغير، صنعه له من أراد أن يجبسه، وعندما حلق الطائر في الفضاء

الرحب، وتنفس نسائم الحرية لأول مرة، شعر بسعادة لا حدود لها، وعرف مدى حزنه على ما ضيَّع من عمره في القفص، وكان يظن - وليس كل الظن إثماً - أنه لو غادر القفص سيوت!

ثم واصل القول بصوت دافئ متحمس:

- لن تندبي أبداً... لن تندبي يا سباح.

وتلفت الفتى إلى الوراء، ليلقي نظرة على قبة الدير المنتصبة وسط الساحة التي تتوسط باحاته المتعددة، على أطراف الصحراء التي حولت الزبراء قطعةً منها إلى واحة خضراء، مجبها للأشجار وإصرارها على غرسها والعناية بها على مدى سنوات بعيدة خلت؛ كانت تكره لون الصحراء برمالها الصفراء، وتحاول أن تكسر حدة الصفرة بالخضرة.

كانت القبة شاهداً عملاقاً حجرياً - قدَّت من صخر الجبل القريب - لكل عابر سبيل في تلك الأرض القاحلة، تنشق من أحجار الدير وصخوره الكبيرة المتجهة إلى السماء.

وجد الفتى نفسه عاجزاً عن إمساك أنفاسه المتلاحقة، من فرط ما يشعر به من حب وحرية. يود أن يتعد سريعا عن هذا المكان، وبصحبه فتاته سباح حسناء بني تميم التي سلبت قلبه، وتعلق بها تعلق النهار بالليل،

وتعلق الليل بالنهار، ولا ينكر أنه أحبا منذ اللهو البريء في سنوات
الطفولة، بصمت مهيب حتى حدث الانفجار الكبير – لهذا الغرام
الصامت – في ليلة المطر الصاخب.

يود أن يغادر الآن وهي في يده، لا يريد لأحد أن يراها، وإن كان يتمنى
أن يهرب بها ومعها سريعاً، عاجلاً لا آجلاً.

إن موعدهما الصبح، والصبح ليس ببعيد، في الغد سيغادران، وقد سألهما:
– لماذا لا تغادر الآن، ولا نبالي بهذا الدير العتيق وساكنيه من الأموات
الأحياء؟!

تبسمت ونظرت إلى الدير، فلم تر سوى حارسٍ نائم على مقعده عند
آخر السور من ناحية البوابة الأمامية، وهمست:

– لا تتعجل الأمور، فكل شيء بأوانه المقدور، هكذا أنتم معشر-الرجال
تتعجلون كل شيء.

ضغط على يدها، والشمس تكاد تلملم ثيابها وتغادر الدنيا هي الأخرى،
لتذهب إلى محبها اليومي البعيد... ثم قال بنبرة فيها حنان وعتاب:

– وأنتم معشر- النساء لديكن صبر أيوب، ولا تقدّرن أحوال الرجال
ولهفتهم عليكن من فرط الاشتياق.

بمكر وابتسامة تساءلت:

– أتدري ما هو الفرق بيننا وبينكم؟!

– أخبريني يا حكيمة الزمان.

– إن النساء لديهن جهاز داخلي سري، يتحكم في حركة الانتظار،
ويسيطر عليها، ويضبط إيقاع الصبر والتمهل، عكس الرجال... أوغاد
متعجلون دائماً، طائشون في أغلب الأحوال.

ضحك قائلاً:

– ألا تدرين يا جميلة آل التميمي سر طيشنا؟!

هتفت مازحة:

– لا أدري... أخبرني يا ابن عبس، بصفتك من جنس الرجال.

انبرى في جلسته إلى جوارها على الرمال، واقترب منها، ثم قال:

– أنتن يا بنات حواء، في أيديكن مفاتيح قلوب الرجال وأقفالها أيضاً.

تبسمت سجاح، وتملكتها نشوة الفخر والانتصار، وقالت بمراوغة ترضيه:

– الرجل هو الذي يقود المرأة في كل شيء!

– لا تخدعيني يا سجاح كما تفعل كل النساء، غير صحيح على الإطلاق يا فالتني، هذا وهم تخدعن به الرجال، وهم استكانوا لذلك، وأحسوا بالغرور كالطواويس، بينما الحقيقة مغيرة.

لأن المرأة هي التي تحكم، وتتحكم في الدنيا كلها... إن الدنيا أنثى، والحياة أنثى... إنها الخدعة الكبرى التي نسجتها المرأة منذ أيام آدم وحواء، وظل الرجل مخدوعاً فيها، وسقط في فخها حتى اليوم.

– أنت تبالغ يا أبا كحيله، وتحمل المرأة فوق طاقتها.

– صدقيني، وعندي الدليل على ما أقول.

– وما دليلك هذا؟!

– انظري إلى الكاهنة الزبراء خالتي، تلك المرأة الأسطورية، أليست هي التي تحكم وتتحكم في الدير بكل ما فيه، ومن فيه منذ سنوات تتجاوز النصف قرن من الزمان؟!

– ربما تكون تلك الكاهنة حالة استثنائية.

— لا يا حبيبتى... تلك هي الحالة العامة، إن المرأة — بصفة عامة — هي القوة الناعمة الخارقة، الخادعة لكل الرجال.

— هذا ليس دليلًا مقنعًا يا أبا كحيلة.

— سأعطيك برهانًا آخر أكثر قوة، حينما أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة في الجنة، وطردهما الله، وأنزلهما إلى هذه الأرض... نزل كل منهما في مكان بعيد عن الآخر، وتفرقا في الأمكنة بالدنيا الواسعة، ولكن ظل آدم يجوب الأرض بحثًا عن نصفه الناعم أيامًا وشهورًا طويلة حتى تورمت قدماه، وحواء هي الأخرى تطوف في الأنحاء، بحثًا عن نصفها الخشن أيامًا وشهورًا طويلة حتى تورمت قدماه.

وعندما عثر عليها وتقابلا أخيرًا، وقد أنهكهما الإرهاق المضني، تظاهرت حواء بأنها كانت تعيش حياتها بصورة طبيعية، وأنها كانت مشغولة طوال الوقت بتدبير قوت يومها، والصراع من أجل البقاء على قيد الحياة، وأنكرت — كاذبة — أنها كانت تفكر فيه أو تبحث عنه!

كما أخفت عليه أنها تألمت كثيرًا، وتورمت قدماها بحثًا عنه.

أما هو فقد أخبرها على الفور، وعرض عليها قدميه لتراهما، والدم ينزف
منهما من شقاء البحث عنها في الجبال والوديان والأماكن الوعرة، وعندما
لاحظ أن حال قدميه من حال قدميها، ضحك متسائلاً:

— ماذا أصاب قدميكِ أنتِ الأخرى يا حواء؟!

ردت بمكر الأثني، ودهاء مراوغ:

— أبداً يا آدم... كنت أسير كثيراً بحثاً عن الطعام، حتى لا أموت جوعاً،
وأنا وحدي في هذا العالم القاسي.

عندئذٍ دهشت سباح من روايته، وأسعدها حسن حديثه، وقوة منطقته،
وبراعة فطنته، وواصل قائلاً:

— أرايتِ يا ست سباح أن المرأة لديها قدرة على الخفاء والإخفاء، والمكر
والدهاء، وهي التي تحرك الدنيا من حولها؟

— وماذا عن دور الرجل يا أبا كحيلة، لماذا تبخسه حقه... أليس له
دور؟!

— بالطبع له دور، إن الطائر لا يطير إلا بجناحين، والحياة لا تستقيم إلا
بالرجل والمرأة معاً، لكن في الأغلب الأعم يبدو لي أن الرجل هو ظل

المرأة التابع لها دومًا، المنفذ لرغباتها، الراضخ لأوامرها الناعمة، الخاضع لجبروتها الرقيق... أنوثتها سلطة جبارة.

قالت مندهشة:

— لكن المرأة هي أضعف كائن على وجه الأرض.

— تبدو المرأة ضعيفة، لكنها ليست أبدًا ضعيفة، إن قوتها الخفية في ضعفها الظاهر... قوتها رهيب، لكنها ليست القوة الغاشمة، بل القوة الناعمة غير المرئية، مثل قوة الريح، وقوة الموج، وقوة السحاب، وقوة الشمس.

تبسمت وقالت بإعجاب ممزوج بشيء من الفخر:

— من أين لك هذا يا ابن عبس؟!

ضحك مبتهجًا، وقال:

— من كاهنة بني رثام، وحنكتها في هذه الحياة، ومن كتبها القديمة، وأحاديثها الطويلة، وخبرتها العميقة في الحياة، كأنها التاريخ يمشي - على قدمين، ويختبئ في هذا الدير.

تنهدت، وعلى ثغرها ابتسامة غامضة، ثم قالت:

– آه يا أبا كحيلة... لا أدري، ربما يكون قولك هذا صحيحًا، وربما يكون
قد جافى الحقيقة وخاصم الواقع.

بنبرة حماسية، وإصرار على إقناعها:

– كيف يجافي الحقيقة، وعندي الدليل الدامغ الذي لا يقبل الشك؟!

همست مازحة، وغمزت بعينيها:

– وما دليلك يا أكحل العينين؟!

قال:

– دليلي هو أنتِ ذاتكِ يا فاتنة بني تميم.

بدهشة واستغراب:

– كيف هذا؟!

بكل صراحة قال:

– أكثر من عشر- سنوات وأنا أحبك في صمت، ولم ينطق حبي لكِ
ويعبر عن ذاته بتوهج، سوى في تلك الليلة الممطرة، حين فتحتِ النافذة،
وجاءتني منك الإشارة.

طأطأت رأسها خجلاً نحو الأرض، وتبسمت دون أن تنطق بكلمة،
فاسترسل بالقول:

– الآن أدركت أن المرأة بيدها الأمر والنهي، فهي التي تحكم الدنيا وتتحكم
في وقائعها، وأن الرجل مجرد معاون لها ليس إلا، بل ويأتي في المرتبة
الثانية بعدها، حتى ولو جلس على عرش الدنيا، وتقلد صولجان الملك،
ويده عصا الحكم، فلا بد من امرأة ما تحكم من وراء الستار، تُسير هذا
الكائن المغرور كالطاووس، المخدوع بحجمه المهوَّش وريشه المنفوش ولونه
الزاهي، بينما الحقيقة أن الأنثى هي عقل الدنيا وقلبها وضميرها، ويدها
الفاعلة المدبرة للأمر كله من وراء حجب أو في العلن.

لاذت بالصمت تفكر لبعض الوقت، وفجأة سقطت حبة بلح واحدة،
حمراء لامعة من النخلة الشاخنة مرفوعة الهامة إلى السماء، فالتقطتها سباح
مسرورة بها، ومسحتها بطرف ثوبها، ثم قسمتها نصفين، وضعت أحدهما
في فمها، ووضعت النصف الآخر في فمه، فتذوقه باسمًا بكل سرور،
وذاب العسل على شفثيهما، ثم قالت بمكر:

– ربما يكون قولك فيه شيء من الحقيقة.

– صدقيني... إنه كل الحقيقة.

20 ديسمبر

ديارُ بني تميم.

7 قبل الهجرة / 616 م

كان يدرك أن هذه هي لحظاتها الأخيرة في هذا المكان، ويتفنن في تضييعها، ويعاقبها على معاقبتها إياه هو وفتاته الآسرة، لكن في نهاية الأمر أمرت كبيرة الدير، وصاحبة الأمر والنهي، الزبراء بنت رثام، لهما براحتين ورفيقين ليكونا بصحبتهما في الطريق.

وقالت، وهي تودعهما بأوممة حانية، وتحتضن سَجَاحَ بحميمية غامرة، والدموع متحجرة في عينيها المخيفتين:

– أيتها التميمية... أنتِ بنت قلبي والأقرب إلى روحي، وما زلت أراك امتدادًا لي، لولا ما حدث، لكن من يدري ماذا تُخبئ الأيام لنا ولكِ؟!

– وإن كنتُ أنتظر أن أسمع عنكِ كل خير، وأتوقع منك – بعد كل ما علمتكِ إياه هنا في الدير لسنوات – حدثًا جليلاً يزلزل أرض الفرات

والجزيرة العربية، ويُبهر العرب في مكة وديار العرب قاطبة، ويجعل اسمك
نارًا مشتعلة على رؤوس الجبال والبادي، ويكون صيتك كالطبل
الزاعق... اذهبي يا بنيتي في أمان الله.

ثم نظرت إلى ابن أختها نظرة أخرى، فيها حب ولوم وعطف، قائلة:
— استغفري يا ولدي على ما فعلته، لقد غررت بتلك الفتاة، فلا تُضللها
الطريق مرة أخرى، انتبه على حالك واحرسها بعينك ولا تغفل عنها، ولا
تنس أن تُبلغ سلامي إلى أمك سدينة، لعلك نسيت أنها أختي.

هزَّ أبو كحيلة رأسه، ولم ينطق بكلمة، فودعتها بلطف وشجن، ثم انطلقا
في قافلة من أربع دواب، عائدين إلى مسقط الرأس، وإن كانت ديار
الفتى تبعد عن ديار سباح مسافة ربع نهار سيرًا على الأقدام، أو فوق
دابة عفية تعرف دروب الطريق، أو يعرف راكبها مسالك الصحراء
والبادي.

أحسَّ كلُّ منهما أنه عصفور غادر قفصه تَوًّا، ونال حريته المسلوبة في
الحال، وليس أعلى على الإنسان — في كل زمان ومكان — من الحرية؛
إنها جوهرة الإنسان الثمينة، إذا فقدتها فقد نصف روحه.

بدأت سَجَاح التَّمِيمَة مشغولة البال، مهمومة الخاطر، تفكر كثيرًا فيما هو آتٍ بخوف وحذر، أما أبو كحيلَة بن عبس فكان مسرورًا، لا يبالي بشيء، ولا يلوي على شيء؛ فماذا يريد من هذه الدنيا إذا كانت سَجَاح هي دنياه، وها هي معه الآن؟!

كان يدرك أنه لم يقابل في حياته فتاة مثل سَجَاح بنت الحارث التميمي؛ لأنه وجدها صنفًا من بنات حواء، يحب أن يهب الآخرين شيئًا ما على الدوام، فيها كرم يفوق كرم قبيلة الطائي الشهيرة بالجود والكرم بين العرب. هكذا تلك الفتاة خلقها الإله، وأراد لها أن تكون.

كأن الأقدار ساقتها في طريقه عن طريق هذا الدير، كل هذه السنوات العجاف، حتى تُخَفِّف عنه قسوة الرهينة والاعتكاف، واعتزال الدنيا وراء أسوار عالية، وعبادات صارمة لا تنتهي... إلا بنهاية العابد الراهب في صومعته.

تبدو التميمية الفاتنة فتاة عادية، يمكن لها أن تمر من أمامه في طريق ما دون أن ينتبه لها، ولكن ما إن يقع في محيط عينيها الواسعتين السوداوين الجذابتين، وفي مسمع صوتها الهادئ الرنان العذب، إلا ويصبح أسيرًا لها.

إنها أول فتاة في حياته، ويظنها الأخيرة، وإن كانت المرة الأولى التي يرى فيها فتاة قادرة على أن تحول تفاصيل الحياة اليومية إلى رحلة طيبة يشتهي المرء ألا تنتهي، وتحيطها بقدر هائل من البهاء والإلهاء.

في تلك الأثناء تضاربت مشاعرها، وهو يحوطها برعايته واهتمامه في طريق العودة إلى الديار بعد سنوات الغياب القسري، لكنها لم تكن تريد لأي لمسة من الحزن أن تقسد إحساسها الطاعني بهذه السعادة؛ خسرت الرهينة، لكنها كسبت الحب والحرية.

إنها قسمة عادلة، بل أكثر من عادلة... قسمة رابحة، والحياة دائماً حافلة بالإنارة، عامرة بالمكسب والخسارة، وتُخبئ في طيات أيامها الكثير من المفاجآت السارة.

وإن ظلت شاردة، مشغولة البال، مهمومة الفؤاد بما ستقوله لقومها حين يسألونها عن مغادرة الدير المفاجئة: أتكذب عليهم، وتقول إنها كرهت الدير وهجرت الراهبات، واستردت حياتها وحريتها... أم تصدقهم القول، وتبوح لهم بالحقيقة، وتقشي- قصة حبها وغرامها، وتكشف سر ضعفها، وسيرها وراء قلبها، وليكن ما يكون؟!!

نالت منها الحيرة، ونصت عليها بهجتها بالحرية، وفكرت في استشارة فتاها، وسألته الرأي، فقال لها بثقة:

— لا هذا ولا ذاك، بل قل لي لهم إنكِ أردتِ الزواج، فقالوا لي في الدير: لا زواج مع الرهبنة، فكان لزاماً عليك الاختيار، فاخترتِ الزواج، وطلقتِ الرهبنة... إن الأمر في غاية البساطة يا سباح.

أعجبت برأيه، ورأته عقلاً حكيماً، ينقذها من الموقف العصيب، والسؤال الذي لا بد لها من مواجهته حين تعود إلى أهلها وعشيرتها في ديار بني تميم.

أليس من حقها أن تتزوج، وتتجب أطفالاً مثل باقي النساء؟!

أليس من حقها أن تمضي في الحياة مثل كل الناس الأحياء؟!

إن من حقها الطبيعي أن تسعى لتخلد ذاتها بسلالة من الذرية، وكيف لها أن تقبل أن يُصلي عليها الكهنة والكهنيات من الرهبان والراهبات صلاة الموتى، وما هي بميتة؟!

إذا كان القلب قد خذلها، فما زال العقل لم يخذلها بعد، لكن لا بأس، طالما أن هناك شخصاً ما يحبها، ويخاف عليها، ويهتم بها، ويحرص على بقائها على

قيد الحياة، ويرغب بلهفة وشغف أن تشاركه الحياة، فكيف لها أن تعيش كالشجرة العاقر، بلا زوج ولا أولاد، ولا دار ولا أهل؟!

سألها فتاها، وفي عينيه بريق الحب يلمع:

— أخبريني يا سباح... ماذا تريد من هذه الحياة، بعد أن حررك الحب من أسر الرهينة، وغادرت أسوار الدير الحصين؟!

فكرت قليلاً، ثم قالت بهدوء ورزاة:

— أريد ألا أكون في يوم من الأيام نسيًا منسيًا، ولن أكون...

— كيف يا بنت التمي؟!

تنهدت طويلاً، كأنها ترى بعيني زرقاء اليامة ما هو آتٍ من أحداث
جسام، وقالت:

— آه... لن أكون ظلًا في عالم لا أملكه، لن أكون نخلة ضامرة تذروها رياح الصحراء، لا بد أولاً أن أملك زمام نفسي، وأملك هذا العالم من حولي، لكي أكون شيئًا مذكورًا في ذاكرة الدنيا، وأعيش خالدة مخلدة آلاف السنين، فلم أولد لأموت بعد حينٍ من الدهر، ويطويني النسيان، كما تموت الغزلان في الصحاري والوديان، وتصبح نسيًا منسيًا.

تهتد الفتى وقال:

- يا إلهي... إن طموحك يفوق كل شيء يا سَبَاح، أراه يفوق طموح الرجال النشامى، فكيف السبيل إلى بلوغ مجدك المأمول، وتحقيق أحلامك البعيدة، وإن كنت أراها مستحيلة، فلا أحد من البشر- مَخْلَد في هذه الحياة؟!

لمعت عينها الواسعتان الأسرتان ببريق عجيب، وهمست بإصرار:

- لا شيء مستحيل في هذه الحياة، من كان يظن أن نقضي- معظم سنوات طفولتنا ومطلع شبابنا في هذا الدير المنسي- من على خرائط الدنيا، والمغزول المنفي على مشارف الصحراء، ونقضي أجمل أيام طفولتنا وصبانا في صومعة وقلاية وأوامر غامضة، ثم ينتهي بنا الحال إلى ما نحن فيه الآن؟!

هز رأسه، وواصل سيره إلى جوارها، بينما الشمس بدأت تنسحب على استحياء، وتزوي في خفوت نجول، وظلال وغيوم تهبط بهدوء، بينما الدواب الأربع تأخذ طريقها المرسوم، وتقطع الدروب بإصرار دؤوب على بلوغ الديار. لا بأس على الإطلاق، طالما أن النهاية ستكون بين الأحباب بعد طول فراق.

في تلك الأثناء تلاشى النهار بنوره الوضاء، وبدأ الليل يغشى الدنيا، وينزل ستائره، ويحيط رحاله على الصحراء، وصوت الذئب تعوي يأتي من بعيد على هيئة عويل، كأنها جائعة وفي حالة سعار مخيف.

تذكر الفتى حلمه الغريب البعيد، ودبَّت في صدره هواجس لم تكن موجودة من قبل، نظرت إليه سباح، وقد أحست بما ألمَّ به، كأنهما مرتبطان بجبل سري واحد، وسألته:

— ماذا بك ؟!

— لا شيء يا نور العين.

— اصدقني القول يا ابن عبس... أتشعر بضيق من شيء ما ؟!

— نعم يا سباح.

— أخبرني بالله عليك...

— حلم قديم مخيف، كنت أظن أنني نسيته وألقيت به في غياهب النسيان، لكنه عاد يراودني من جديد.

— أطلعني عليه.

– قبل أن يلحقوني بالدير، كنت ما زلت صبيًا، وفي ليلة حارة سهرت قليلاً ألهو مع رفاقي، وعندما أوشك الليل أن ينتصف، دلفت إلى فراشي، وقد بدأ خدر النوم يتسلل إلى جسدي، ولا أدري كم مر من الوقت منذ استغرقت في النوم، ولكنني استيقظت مفزوعاً، وشعرت أنني أطير في الفراغ، وجسدي يسقط مرتطمًا بالأرض، ثم فتحت عيني فوجدت أشباحاً في ثياب سوداء كالحة تحيط بي من كل جانب.

أيادٍ خشنة قوية تمتد نحوي تجذبني بعنف، وأخرى تغلق فمي، حاولت قدر جهدي أن أخلص منها، صرخت عالياً، لكن صرخاتي تاهت في متاهات الصحراء، وضاع صوتي أشلاء ممزقة في الفضاء، ولا شيء يتردد سوى صوت الصدى.

سألته بوجه مدهوش:

– هل رأيت وجوه هؤلاء... من هم، ومن أي قوم؟!

تهدد وقال بصوت نديّ:

– للأسف... لم أبتين وجوههم في العتمة، وبعضهم كان يغطي وجهه، وأحدهم وضع كمامة على فمي حتى لا أصرخ وأزعج خيام الصحراء، وكان هناك من يقيد يدي خلف ظهري كي لا أقاوم هؤلاء الأشرار.

ثم سكت الفتى، فسأله:

— وماذا حدث بعد ذلك؟!

قال بصوت جهوري:

— وجدت من يركلني بعنف في جنبي وظهري، صرخت بصوت مكتوم محبوس خلف الكمامة، وحاولت جاهداً أن أدقق النظر في الوجوه المظلمة التي تتكاثر حولي، عسى أن أعرف هؤلاء من أي قبيلة هم، دون جدوى.

— وماذا بعد يا أبا كحيلة؟!

— كانت الريح تصفر، والذئاب تعوي من بعيد، والليل معتم صامت كالأخرس، ولكنني فوجئت بمن يضع عصا على رأسي، ويقتادني إلى مكان مجهول في جوف الجبل، تمت عملية الأسر بسرعة وعنف، وبأقل قدر من المقاومة، كأنهم تدربوا على تلك العملية مئات المرات، وصاح أحدهم قائلاً بنبرة حاسمة:

— خذوه.

لكني حاولت أن أتشبث بالأرض، وأثبت أقدامي في الرمال المتحركة
ولكن بلا جدوى، لقد دفعوني بخشونة وغلظة إلى خيمة تؤويني من هواء
الليل وصفير الريح وزمجرة الرمال وعواء الذئاب، وقد قرروا شرًّا بي،
ورفع أحدهم سيفه عاليًا فوق رأسه، وهمّ بقتلي.

ولم ينقذني سوى الاستيقاظ من نومي، فرعًا أتحسس عنقي.

هتفت سَجَاح، وبرقت عيناها بشيء من الخوف:

— عفوك ولطفك يا إلهي.

حين توقفت قافلة الدواب عند ديار آل تميم، بكت التميمية من فرط
الأشواق، وتسارعت دقات قلبها بشكل غير مسبوق، ولم تصدق أنها
عادت إلى مسقط رأسها بعد كل هذه السنوات، تأملت المكان والديار
والأشجار، وقد أوشك الليل أن ينقضي، والضوء شحيح، وتباشير الفجر
تخط أجنتها رويدًا رويدًا على الدنيا.

عندئذ نادى المنادي على أهل الديار، وبعد تردد وانتظار فُتح الباب،
وظهرت منتهى بنت القيسي-. ولم تصدق عيناها في بداية الأمر، وإن
ظنت أنها نائمة، وما هذا إلا حلم طيب.

رأت سَبحاً أمها في غبشة الفجر ووداع الليل، كما لو كانت تراها لأول مرة في حياتها، بدا وجهها طويلاً، وجبينها منحنيًا، وفكها دقيقًا، وثغرها باسمًا، وقوس أنفها بالغ الرهافة، وعلى ملامحها سماحة تكفي العالم، رغم بروز تجاعيد الزمن وبصماته عليها، وعروق رقبتها نافرة، لعل يد الزمن التي لا ترحم أحدًا قد نالت منها.

عينها الواسعتان – مثل ابنتها – ناعستان قليلًا، ولهما رموش طويلة، وفيهما بريق آسر، لكنه خافت، وصورة سَبح منعكسة في مقلتيها، لا بد أنها احتفظت بهذه الصورة زمنًا طويلاً، لكن المدهش أنها ظلت تبتسم، وتتحسس طفلتها التي كبرت فجأة، وتجهش بالبكاء، ثم تعاود الابتسام والضحك الهستيري، وتفتّر شفتها عن أسنان بيضاء منتظمة شمعية، تبرق في غبشة الفجر.

وفجأة دارت حول نفسها كفراشة تحوم حول الضوء، وانهمرت على ابنتها بقبلات متوالية متتالية، وكانت تلك القبلات هي التي أعادت بعضًا من الروح التي فارقتها.

انتابتها فرحة جنونية، والتقطت طفلتها الكبيرة في حضنها، وهي ترتجف بشغف، وتهتز كأن زلزالاً ضربها بغتة، وأثار النوم القلق لم تغادر عينيها بعد، وفجأة تذكرت الأم حكاية الدير وقوانينه الصارمة، فسألته باستغراب:

– كيف سمحوا لك – يا حبيبتى – بمغادرة الدير؟!

تلعثت سباح قليلًا، وقالت بحذر مشوب بقلق:

– لكل شيء نهاية يا أماه.

– ماذا تقصدين يا بنيتى؟ قالوا لي إن نهاية الدير هي القبر، وليست الدار!

– لن أعود للدير مرة أخرى.

ارتبكت الأم واضطربت مشاعرها بين الفرح والفرع، وصاحت متسائلة:

– لا أفهم شيئًا يا بنيتى، هل ماتت الزبراء؟!

– مصيري بيدي يا أمي، وليس مرهونًا بمصير تلك الكاهنة، لم يعد الدير بحاجة إليّ، وكذلك أنا ما عدت أحتاج إلى الدير.

– شيء عجيب... لماذا يا صغيرتي؟ أخبريني، أنا أكثر الناس فرحًا بعودتك، كنت أتعذب كثيرًا في غيابك الطويل!

عندئذٍ تذكرت كلمات أبو كحيلة ونصيحته لها، فقالت باسمه واثقة:

– إن الراهبات أموات يا أماء، وأنا ما زلت على قيد الحياة، وأريد أن أعيش حياتي كاملة، وأتزوج.

انفجرت أساور أمها، وهالها ما سمعت، فصاحت:

– تتزوجين يا سَجاح؟!

– نعم يا أماء، أليس من حقي أن أتزوج مثل كل البنات، ويكون لي زوج وأولاد؟!

احتضنتها بسرور، وربت عليها بحنان، وأطلقت تهيدة ارتياح:

– بلى يا حبيبتي، من حقك كل شيء... الحمد لله الذي ردك إليّ بعد كل هذه السنوات، كما رد موسى إلى أمه بعد خوف وفزع.

حاولت سَجاح أن تغير مجرى الحديث، فقالت متسائلة بلهفة:

– أين أبي وإخوتي؟ أشتاق إليهم كثيرًا!

مصمصت الأم شفتيها، وقالت بشيء من الضيق:

– إخوتك غادروا الدار، أما والدك فهو بالداخل طريح الفراش، يئن ويتوجع دائمًا، وأظنه لم يعد يعرف طعم النوم، وأنا كذلك.

بدا الأسى على وجهها، وتقلصت ملامحها:

– إخواني غادروا الدار... إلى أين يا أماء؟!

– تزوجوا جميعًا يا بنيتي، وأصبح لكل واحد منهم دار وزوجة.

– هذا أمر طيب... وأبي ماذا أصابه؟!

– تمكنت منه الأمراض، وصار ملازمًا للفراش، وما عدت قادرة على خدمته ورعايته.

هرولت إلى الداخل، تسبق أمها بخطوة، قائلة:

– سأتولى أنا خدمته ورعايته ليل نهار يا أماء، حتى يتعافى بأمر الإله، ويعود كما كان، لقد آن الأوان لك أن تستريح.

تبسمت منتهى، وتذكرت إصراره الغشوم على قتلها حينما كانت طفلة في مهدها، ثم همست:

– أراد لك الموت، وكان حريصًا عليه، وتريدون له الحياة وتحرصين عليها.

وعندما اقتربت من فراشه، سمع ما دار بينهما بشأنه، وفتح الحارث التميمي عينيه على ضوء باهر يدخل غرفته، أو هكذا أحس، فأعاد إغماضهما في

وهن، وهو يشعر بعطش مهلك، وعندما حرك شفّتيه الجافتين، سرى تيار من الألم في رأسه، ثم سرى إلى بقية جسده المسحى في الفراش، يشعر بأن كل عضو فيه مقيد بأساور من حديد، ومربوط في سرير، كما لو كان التابوت الذي سينقله إلى الدار الآخرة!

حين سمع صوت سباح، ورأى طيفها فوق رأسه، خُيِّل إليه أنه رأى نهراً من الماء العذب الرقراق يتدفق من حوله، كأن بئر زمزم تركت مكة وجاءت إليه هنا تسعى.

رأى صغيرته التي كبرت ونضجت، وصارت وردة متفتحة تسر- العين وتريح القلب، ورأته هي أيضاً في حال لا يسر، ليس نائماً ولا مستيقظاً، إنما بين هذا وذاك، يئن ويتأوه، ويغمغم بصوت متحشرج مكتوم، مثل مواء قطّة جائعة في الليالي الباردة.

يتطلع نحو صغيرته في جمود، وضوء خافت من عينيه يسطع على وجهها، يضيقهما ويوسعهما عساه يرى أفضل، ويملاً وجدانه بوجهها الجميل وجسدها المستقيم، يحاول أن ينهض فلا يقدر؛ إن السلاسل الوهمية، كخط الاستواء، تقيده بالفراش وتبقّيه حيث هو.

يسود الصمت الرهيب فوق كل شيء، كأن من الصعب أن تأخذ الحياة
مجراها الطبيعي، وتعود طفلة التي لم يكن يرغبها - وظنها وبالأعلى عليه -
إلى أحضانه بعد سنوات طوال.

لكن لا بأس... فتح عينيه على كامل اتساعها، وعرفها وسرها، وهتف
من فرط الفرحة الممزوجة بالندم والحسرة:

- سَجَاحِ ابنتي، ما أجملك... سامحيني يا طفليتي.

احتضنته وهو نائم في فراشه، وقبّلت رأسه ويديه بشوق ولهفة،
وهدهدته كأنه طفلها الوحيد في هذه الحياة الدنيا، فتبسم وهو يئن، ثم
قال بصوت متحشرج، والدموع تسيل على خديه:

- هل سمعتِ برجل ظهر في مكة يدّعي النبوة يا سَجَاحِ؟!

- سمعت يا أبتاه.

- وما رأيكِ فيما يقول هذا القرشي الهاشمي الأمي؟!

- لا أدري يا أبي، سمعت عنه القليل... قليل صدّقه، والبعض قالوا إنه
ساحر، والبعض قالوا إنه شاعر... لا أدري.

— سمعت أنه يحرم وأد البنات، ويبدو أنه على صواب في هذا الأمر، وهو يقول للناس إنه يأتيه وحى من السماء، ويتنزل عليه قرآن من ربه، وأن تحريم قتل البنات أمر من ربه وليس من عنده، وقال في ذلك قولاً عجيباً يعبر عن حالي تماماً، كأنه كان يعلم بأمرى مع ابنتى، وتديري لها ومشاعري نحوها حين ولدت... يقول في قرآنه:

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ).

ثم أغلق عينيه مرة أخرى وارتاح... كان الظلام أخف ألماً إليه، وإن ظلت حواسه مستيقظة، بينما زوجته وابنته اقتربتا منه، وجلستا على حافة فراشه يراقبانه وهو يتنفس بصعوبة، وصدره يعلو ويهبط، بينما جسده مسجى تماماً بلا حراك.

5 يناير

الطريق إلى مكة.

6 قبل الهجرة / 617 م

يستيقظون وهم مبللون بندى الصباح، ترحل فوقهم سحب، وتحوم في السماء طيور بيضاء، وتوشك شمس جديدة على الولادة، رغم الفرش الخشن الذي ينامون عليه، كان نومهم هادئاً، لم تهاجمهم الكوايس السوداء، وقد اعتزموا السير برواحلهم ودوابهم ضمن قافلة كبيرة تتجه نحو مكة، للتجارة والزيارة والتبرك بالبيت العتيق.

يتأمل أشقاء سباح الأربعة (حنظلة، يربوع، عققان، وزان) أنفاس الضباب الهشة في هذا الوقت المبكر، وهي تنساب صاعدة بين أشجار النخيل التي تحيط بالديار إحاطة الأساور بالمعصم.

يتوقفون قليلاً على شاطئ الفرات، والنوم ما زال يغشاهم، يحاولون أن ينفضوا غباره عن عيونهم، يبدأ حنظلة بغسل وجهه، ويتبعه إخوته

الثلاثة، وإن كان ما يزال يشعر بالدوار والرغبة في مواصلة النوم، يبغض الرحيل والقوافل والتجارة.

وقد سمع أن مكة تموج بصراع غريب - هذه الأيام - وربما تندلع فيها حرب أهلية بين رجل يقول إنه نبي هذا الزمان، وخاتم الأنبياء والمرسلين، يأتيه الوحي من رب السماء، وقومه يكذبونه ويتآمرون لقتله، ويعذبون من يتبعه، ليتهم كانوا قد أجّلوا تلك الرحلة المشؤومة إلى أجل غير مسمى.

ضباب الصباح ما زال راقداً على سطح الماء، ومع ذلك اشتعلت ضجة الحياة، وهما هم يقتربون من القافلة الكبيرة، بدواها وأحمالها وبضائعها ورجالها.

في تلك الأثناء كانت شبه الجزيرة العربية، قبل أن يظهر هذا النبي الأمي، مسرحاً لكثير من الأحداث المذهلة، أهوال لا تخطر على بال، فهذه المنطقة من جغرافيا الأرض العربية هي قلب العالم قديماً وحديثاً، في إحدى قراها القديمة، وهي مكة المكرمة، يوجد أشرف وأقدس وأول بيت وُضع للناس في الأرض، بيت الله الحرام.

ومن قبل أن يظهر على أهلها هذا النبي الأمي، شهدت تلك البقعة ميلاد دعوات لعدد من الأنبياء والرسل، منهم نبي الله صالح - عليه السلام - الذي أرسله الله تعالى إلى قوم ثمود الذين سكنوا منطقة الحجر.

وكذلك قوم نبي الله هود - عليه السلام - الذين سكنوا في منطقة الأحقاف.

وها هي نقطة التحول الكبرى في تاريخ الجزيرة العربية قد حانت، حين حمل محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - أمانة تبليغ الناس رسالة السماء، ودعوته للعرب والعجم إلى دين التوحيد، ونبذ الأصنام، وهجر الشرك المبین.

كانت بداية هذا الحدث الجلل في بلاد العرب يوم بُعث النبي محمد الصادق الأمين بعد أربعين سنة من مولده، أي في عام 611 ميلادي.

وأدى ظهور دعوة الإسلام وسطوع نورها من مكة إلى تغيير الكثير من المظاهر التي أَلقت بظلالها على الناس على مدى قرون طويلة مظلمة من الجهالة والضلال.

جاءت دعوة النبي محمد لتُنهى القبليّة، والنزعة العرقية البغيضة التي كانت سائدة بين العرب، وهم آنذاك قبائل وعشائر متشرذمة تتناحر فيما بينها،

وتتصارع وتتفاخر بأوهام مزيفة، مثل قريش وبنى كنانة في مكة، والأوس والخزرج في المدينة، وكعدة وطيء وغطفان وغيرها في مناطق أخرى.

وكان التفاخر بالأنساب عندهم عظيمًا، وكل فرد يتفاخر بقبيلته وعشيرته، ويرى أنها الأفضل دون الآخرين، لذلك دارت المعارك والصراعات في مكة وما جاورها من بلدان شبه الجزيرة العربية، دامت لسنوات بلا أسباب ومبررات منطقية، لعل أشهرها حرب داحس والغبراء، وبعث، وحرب البسوس.

وظلت القبائل العربية في الأغلب الأعم تعج بالمنكرات بجميع أشكالها، وتأتي الفواحش جهارًا نهارًا بلا خجل، فاستحلوا الخمر والميسر، وارتكبوا الزنا والشذوذ، وأقدموا على كل مساوئ الأخلاق، ولم يكتفوا بهذا، بل عبدوا الأصنام التي صنعوها بأيديهم من حجارة صماء، بدعوى أنها تقرّبهم إلى ربهم ورب آبائهم، وهم على بعد خطوات من البيت الحرام الذي بناه خليل الله ونبيه إبراهيم - عليه السلام - وولده إسماعيل الذيح المفدى.

دار النقاش طويلًا بين رفقة الرحلة إلى مكة، الأشقاء الأربعة وغيرهم من قرناء الترحال... إن الطريق طويل، ولا بد من شيء يشغلهم عن مشاق السفر في دروب الصحراء من جزيرة الفرات إلى مكة في جزيرة العرب.

لم تكن مكة قرية عادية، حيث يرجع تاريخ تأسيسها إلى أكثر من 2000 سنة قبل الميلاد، وفي بدايتها كانت قرية صغيرة نائية منفية، تستقر في وادٍ جاف قحط، تحيط بها الجبال من كل جانب، ثم بدأ الناس التوافد عليها والاستقرار بها في أيام نبي الله إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، وذلك بعدما ترك إبراهيم زوجته هاجر في تلك البقعة القاحلة الجرداء من كل شيء، سوى الرمال القاسية والجبال الصخرية والحر اللهب، وذلك امتثالاً منه لأمر ربه الكريم.

وبقيا في الوادي الصحراوي، الأم ووليدها الصغير، حتى تفجر الماء العذب من الصخر، إنه بئر زمزم ليسقي الظمأى حتى قيام الساعة، ثم وفدت بعد ذلك قبيلة (جرهم) أولى القبائل العربية إلى تلك البقعة الإلهية لتسكن مكة وتستقر بها.

وشرع إبراهيم وولده إسماعيل في بناء الكعبة، وقد حرم الله - من فوق سبع سموات - بعد ذلك دخول مكة على غير المسلمين، وتحديدًا بعد العام التاسع من الهجرة، بقوله الكريم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 28]

زاروا البيت العتيق، وتاجروا، باعوا واشتروا، وسمعوا حكايات مثيرة عن الدين الجديد، ومحمد الذي قال لقريش ومن والاها:

(لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الدين، ما فعلت).

كيف سيكون حال مكة في ظل حرب ضروس بين فريق المصدقين، وفريق المكذبين لتلك الدعوة؟! إنها معركة تبدو غير متكافئة بين قلة مستضعفة آمنت بمحمد، وكثرة مستقوية بمالها وعيالها من سادات قريش وأكبرها، فلمن تكون الغلبة، وأين الحقيقة؟!

سأل حنظلة إخوته الثلاثة في هذا الأمر، فاحتاروا جميعًا، وقال يربوع:

– النار تأكل بعضها، وأرى أنه لا غالب ولا مغلوب، وإنما سيجهزون على بعضهم بعضًا لصالح القبائل الأخرى.

رد حنظلة مستهجنًا رأي أخيه الأصغر:

– لا يا أخي... لكل معركة غالب ومغلوب.

قال وزان:

– أظن أن سادة قريش قوة لا يُستهان بها، وستقضي على محمد ودعوته.

أما عتقان فقال متسائلاً:

— من يدري... ربما لو كان محمد تؤيده السماء كما قال لأهل مكة، ربما ينصره ربه، ولا يخلذه في معركته مع هؤلاء؟!

صاح يربوع:

— إن هذا الأمر يتوقف على صدق محمد، وهل هو صاحب رسالة فعلاً، برغم أن من يؤيده حتى الآن شرذمة قليلون؟!

تبسم وزان قائلاً:

— المدهش أنهم كانوا يصفونه قبل أن يدعوهم للدين الجديد بالصادق الأمين، فكيف لهم أن يصفوه — الآن — بالكاذب والساحر والشاعر؟!

قال حنظلة:

— تلك هي المعضلة، وعلينا أن نتحرى أمر هذا الرجل، إذا كانوا قد أجمعوا من قبل على أنه الصادق الأمين، فلماذا يكذب عليهم الآن؟!

قال عتقان:

— ربما يطلب مالاً أو ملكاً أو نفوذاً.

– لا... سمعنا أنه رفض كل شيء، عرضوا عليه أن يجمعوا له من أموالهم حتى يكون أغناهم فأبى، وعرضوا عليه أن يحكمهم جميعًا ويكون سيدهم فرفض، لا يريد شيئًا على الإطلاق سوى أن يجهر بدعوته، ويلبي نداء ربه مهما رأى من أهوال، يقول إنه جاء لينقذهم من عذاب الآخرة.

شرد حنظلة قليلًا:

– إنه لأمر محير، ولا بد من القول الفصل في هذا الرجل.

هتف وزان:

– ومن عنده القول الفصل يا حنظلة؟!

– ستعرفون من يملك القول الفصل في هذا الأمر، فلا تتعجلوا.

قال يربوع:

– أخبرنا يا حنظلة، ولا تحيرنا.

– امرأة عجوز حكيمة من أهل الكتاب، كرست كل حياتها للرهبنة، وهي تعرف خبر السماء، وتعلم بقصص الأنبياء من أولهم حتى آخرهم.

بلهفة سأله عققان:

– تكلم يا أخي ولا تبخل علينا... من تكون تلك المرأة؟!

– قلت لكم: في طريق عودتنا إلى الديار سنمر عليها عند أطراف الصحراء، هناك في الدير العتيق، ونعطي لها الأمارات والإشارات، وكل ما سمعناه وعرفناه من أهل مكة، لا أشك أن لديها الخبر اليقين.

بفضول كبير تساءل:

– من تكون؟!

– ومن يكون غيرها الكاهنة الكبرى الزبراء بنت رثام.

شهبوا جميعًا، وهتفوا:

– آه... بالفعل... لعل عندها سر هذا الرجل الذي قلب مكة رأسًا على عقب.

6 فبراير

ديار بني تميم.

6 قبل الهجرة / 617 م

لم تتح له فرصة اللقاء مع سباح التميمية إلا بعد شهر كامل من عودتها من الدير، في أحد الأيام الربيعية البهية زارها بصحبة والديه ونفر من عشيرته الأقربين، جاءها وعزمه لا يلين عن الزواج منها، ولو كان مهرها ألف ناقة حمر من ناقات الملك النعمان بن المنذر.

لن يتخلى عن حلمه في الاقتران بها بعد أن ذاق عسلها، وعرف طعم حلاوتها، في هذا اليوم رآها نضرة الوجه، هادئة البال، مسرورة الحال، أصغر منه سنًا، وأكبر عقلاً، وأعلى قامه.

إن جسدها، مثل نظراتها، واضح وصريح، ورأى شعرها القصير من أيام الدير قد بدأ يتمرد على التقصير، وها هو يستطيل ويتمدد بحرية، وقد لاحظ أيضًا أنها صففته بشكل مجدول في جدائل صغيرة ملفوفة، قصيرة

مسترسلة على طريقة الأحباش الأفارقة، وتلف حول جبينها ومؤخرة رأسها لفافة خضراء زاهية، توشي بأياهما القادمة، وتلمح إلى تفاؤلها بقرب ذهابها إلى داره.

إن صدرها النافر يتنفس هواء النشوة التي تغمر المكان، وتطل من عينيها الواسعتين الآسرتين أشعة الحب المحملي، ولهفة الشوق السريالي... يا لها من لحظات!

ولم لا... وفتاها أبو كحيلة جاءها بقدميه شغفًا وحبًا، يسعى من آخر حدود بلاد العرب الشرقية، قاطعًا مسافة طويلة ليتوج حبه لها بأكاليل الزواج.

بالطبع كانت قد أعطت أمها فكرة كاملة عن الأمر، ولأن الأب الحارث التميمي مريض يعاني ولا يفارق فراشه، لا يعي من أمر الدنيا شيئًا، وما يدور حوله إلا أقل القليل، تبوأَت هي مقعده في الأمر والنهي والمشورة، وتحدثت معها في كل التفاصيل.

في تلك الأثناء استدعت منتهى على الفور شقيقها سلمان بن القيسي - بن تغلب، ليكون عونًا وسندًا لها في هذا الشأن، وسارت الأمور على خير ما يرام، وقدمت اعتذارًا للضيوف عن مرض زوجها الحارث، وسفر

أولادها الأربعة في قافلة إلى مكة، وأبدت ترحيبًا طيبًا بالفتى ووالديه
ومن معهم من الأهل والعشيرة، وأفصح لهم عن رضاها التام وسعادتها
الكاملة بأن يكون أبو كحيلة زوجًا لابنتها، وما تختاره سَجَاح ترضى أمها
به، وتحدثوا في كل شيء، وانفقوا على أن يكون موعد الزفاف بعد شهر
واحد من اليوم.

وارتضى الطرفان، وانفقا وتفاهما وانسجما، والتقى الفتى بسَجَاح وقال لها
بنبرة عاشق متيم:

— ها نحن قد جئنا أخيرًا أيتها التميمة الجميلة، عسى- أن نأخذكِ إلى ديارنا
قريبًا، ويصير زيتنا مع عسلكم في دقيقنا.

تبسمت بنجل، وحلَّ في عينيها الواسعتين الآسرتين الساحرتين حياء
الغدارى، وتضاعدت نبرات صوته غريبة متهدجة، ومليئة بالشوق واللهفة،
تتأمل وجهه، يبدو مرهقًا من وعشاء السفر في دروب الصحراء وحرها
وغبارها، ومشقة الطريق الطويل والدروب الوعرة... عيناه لامعتان ببريق
أخاذ، ييوح بما في قلبه، وشفته منفرجتان مرتجتان لهفًا عليها.

قالت سَجَاح بصوت هامس خجول:

— إن طرق الله غريبة حقًا، فهي تقودنا في مسالكها الغامضة، دون أن ندري ما هو مقدر لنا بطريقة خفية.

تنهد قائلاً:

— جئتُ قاطعًا كل الدروب الوعرة في صحراء مقفرة، وفوق ناقة صبورة، وآبار ضحلة، وصبار عطش، وعشب جاف، وقبائل معتزة بأنسابها، تفاخر بأمجادها، وعشاق يختبئون في ظلال النخيل، وتحت ستائر الليل، وستر الخيام، ورعاة إبل مارقة، وأغنام شاردة هائمة، تمشي- على بطونها بحثًا عن الكلاء الأخضر والماء العذب.

تبسمت قائلة، وعبثت بأناملها في شعرها المنسدل:

— إن المكافأة تستحق المشقة، لم تأتِ إلى هنا يا ابن عبس لنعذبك، بل جئت لتحصل على هدية لا تُقدَّر بثمن، وأظن أنك قد ذقت الهوى، وشربت من نهر العسل في تلك الليلة الماطرة التي تراها بعيدة، وأراها قريبة.

تنهد قائلاً، وحطت على وجهه ابتسامة امتنان وسرور:

— أود أن أغمض عيني وأفتحها لأجدك يا سباح في مخدعي الأثير، وداري الكبيرة التي تليق بأميرة من أشرف بني تميم.

– قليل من الصبر يكفي، أيها العاشق المجنون.

– الانتظار يعذبني أيتها التمية، لا أكره شيئًا في حياتي كلها قدر كراهيتي للانتظار... أفلا يعذبك أنت أيضًا يا فالتتي؟!

أطرت حياء، ثم تهدت وزفرت، وأخيرًا تكلمت:

– كيف لا يعذبني الانتظار؟! إنه جمره من نار تكوي، لكن سبق وقلت لك: إن بنات حواء لديهن جهاز سري خصه الله بهن دون الرجال، مهمته أن يعودهن على الصبر وطول البال، ويضبط إيقاع التوقيتات، بحيث لا يتسرعن فيخسرن كل شيء، لذلك لا يتعجلن أي شيء، حتى ولو كان الشوق سيقتلهن... أليس الصبر مهارة الصياد الماهر لقنص فرائسه؟!

– كنت أظن أنني سأحملك اليوم إلى داري يا سباح، لكنني سأعود خالي الوفاض.

– ما جئت لتأخذ ناقة وترحل يا أبا كحيله، إنما جئت لتتزوج من بني تميم سادة القوم وأكبرها، وجميلة جميلات القبائل.

هز رأسه مستسلمًا:

– أعرف يا بنت التميمي.

هتفت مازحة:

– قلنا لك يا رجل: تعالَ بعد شهر من الآن... ماذا أصابك؟!

تنفس بعمق، شهق وزفر، ثم قال:

– لا أصدق أنني سأعود عبر نفس الدروب التي جئت منها، دون أن أرتوي من النهر المليء بالماء الزلال الصافي، والعطش قد أضناني.

ضحكت وفهمت مغزى كلامه، وقالت بنبرة واعظة:

– لا تكن متعجلاً... كل شيء وله أوان، لقد أمضينا الكثير من الأيام خلف أسوار الدير، فلا بأس من الصبر عدة أيام آخر، ونلتقي تحت سقف واحد في دار واحدة.

– لا أدري كيف تتحملين الصبر على الفراق يا سباح، بينما أنا لا أطيق الفراق، والمفروض أنني الأقوى جلدًا والأكثر تحملاً؟!

بنبرة ثقة قالت:

- إن المرأة - يا حبيبي - مثل تمثال من السكر، تذوب عند أول لمسة
عشق.

سكنت فجأة، وحدثت في عينيه بتركيز، فقال:

- يا إلهي... وماذا بعد؟ هيا تكلمي، تعجبنى فصاحتك، وتبهرنى
بلاغتك أيتها التمية المفوهة!

تنهدت وأطرقت قليلاً، ثم تكلمت بجرأة:

- إن حبك أطيب من خمر معتق، وعطر أنفاسك عذب كماء الفرات،
أخبرني يا من تحبه نفسي وتهواه روحي، وتشتاق إليه كل حواسي... أين
ترعى، وبمن تحلم في وقت القيلولة؟!

سألها مدهوشاً:

- أهذا سؤال لي يا سباح، أم أغنية قديمة لعاشقة تنادي حبيبها في
دروب الصحراء ومتاهاتها؟!

تبسمت قائلة:

- بالفعل أغنية، وأظنها أقدم أغنية تشدو بها امرأة داهمها الحب بعنفوانه
وجنونه، فصدحت بها على فراش حبيبها، إنها نشيد الإنشاد.

– أحيانًا أسأل نفسي: ماذا تريد من مهر؟!

ضحكت وقالت:

– لا ذهب، ولا إبل، ولا نوق حمر، مهري هو عمرك كله يا أبا كحيلة، مهري هو أن تُخلص لي إخلاص العبد للسيد، ولا تفارقني إلا للقبر، وتعاهدني ألا تفكر في امرأة غيري مهما كانت، أريد إخلاصًا كإخلاص الراهب للدير، والعابد للرب.

شرد قليلًا وقال:

– ما أجملك أيتها التيمية التي خطفت قلبي.

لكن هل كان يعرف الفتى أن النحلة تحتاج لمن يتحمل لساعاتها ليقطف عسلها؟!

وهل كان يعرف أن الصديق يوسف – عليه السلام – قد تعرض مثله للغواية الأولى، وأنه استسلم لها دون الحاجة إلى شق قميصه من دبر، لولا عناية السماء به في اللحظة الحاسمة، لجرت الأمور في غير ما جرت به؟!

تنظر في عينيه بإمعان، عساها تسبر أغواره، وتظل مصوبة نظراتها لعلها تنفذ إلى أعماقه، تمسك عصا من سعف النخيل، وتخط حروفًا ورموزًا مجهولة، كأنها تئأم سحرية!

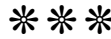
تعلو أصوات الغناء كعويل قادم من بعيد، وتدق الصنوج، وتضرب الدفوف احتفاء بالنبأ السعيد، ويأتي بعض الرجال والنساء من بني تميم، وبني تغلب أخوال سَبَاح، ليشعلوا النار تحت القدور، ويعدوا الطعام إكرامًا للضيوف... أليس الفرح بقريب؟!

ومن حين لآخر يروي لها جانبًا من ذكرياتها القديمة، يقدم الكاهنة الزبراء على وجه الأرض، يذكرها بشجرة التوت العملاقة، والنخلة الباسقة المثمرة مرفوعة الهامة، تُلقى عليهما - حبًا وكرامة - بعضًا من ثمارها.

وكيف كانا يلهمان تحتها، وهما طفلان يانعان بريئان، لا يدريان من مكر الأقدار شيئًا، فتضحك وتباغتها حالة من السعادة، ثم يذكرها بآخر عهدهما هناك، وهما يعبثان في قلايتها، والسماء لا تكف عن إرسال المطر.

تلك المخالفة التي طردتها من الدير، كما طُرد آدم وحواء من الجنة لارتكابهما مخالفة الأكل من الشجرة المحرمة.

تبسمت بخجل، وسرّتها تلك الذكرى، ثم أطرقت نحو الأرض قليلاً تتذكر
وتفكر، وتلكزه حياءً بيدها في صدره بلطف ورقة، كما لو كانت تريده أن
يزيدها مما حدث في تلك الليلة الأسطورية، وإن كانت لا تطلب منه أن
يخرس وينسى - الأمر؛ لأن الأمر - مزروع في وجدانها - يتحدى
النسيان.



3 مارس

مكة / الدير.

6 قبل الهجرة / 617 م

في طريق العودة من مكة، والقوافل تسيرُ نحو الديار، بعد رحلة شاقّة فيها البيع والربح، والنفوس مرتاحةً للمكسب المتاح، بينما العقول مضطربة من أحداث مكة وتلاطم أمواج الصراع فيها، ونداء السماء الذي نزل عليها، وشقّ صفّها بين مؤيّد ومُصدّق للهاشمي القرشيّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وبين مُعارض مُستنكر مُكذّب!

انقسمت أمّ القرى، التي تحيطُ ديارها بالبيت العتيق، إلى ثلاثة فرق: الفريق الأول: آمن بما جاء به الصادق الأمين، وتبعه وصدّقه بإخلاص. والفريق الثاني: كفر به، وأنكر عليه رسالته، واتّهمه بالجنون والسحر والشعر. والفريق الثالث: بدا أنّه لا يُبالي، وإن ظلّ يترقب ما تُسفر عنه جولات هذا الصراع المثير.

وبينما مكّة تغلي كالقدر فوق الحطب المشتعل، والسيوف مشهرة،
وطبول الحرب تدق بين الطرفين، وآله التعذيب تعمل بيد كفّار قريش،
كل فريق بما لديهم فرحون.

ولسوف تنصر السماء من ينصرها ولو بعد حين، والحق أقوى من حدّ
السيف، والنار مُستعرة تحت الرماد، وفوق رؤوس الأشهاد.

ولا أحد يدري إلى أين ينتهي هذا الصراع؟!

عند الدير العتيق، حطّت رواحلُ الأشقاء الأربعة رحالها، ودلفوا إلى
داخل الدير يلتمسون البركة والمشورة. وعندما التقوا بكبيرة الكهّان،
رئيسة الدير، الزبراء بنت رثام، سألهن حنظلة:

— أخبرينا يا أمنا الكاهنة، هل سمعت بما يدور في مكّة، وحكاية هذا
الرجل الذي يُنادي في الناس، ويقول إنه نبيّ يُوحى إليه من السماء، وأنّه
آخرُ الأنبياء للناس أجمعين إلى يوم الدين؟

زأمت طويلاً، ولزمت الصمت إلى حين، وإن بدت لهن امرأة لها هيبه،
تتفاقم هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسودّ فاحم كالليل الدامس، لم ينل منه
الشيب على غير العادة، وهي في أرذل العمر. تبدو راهبة وحشيّة بزّيها
الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنيّة المتعدّدة في عنقها ويديها.

تبرقُ عيناها حين تتكلّم، بصوتٍ رجوليٍّ خشنٍ أجشّ، كأنّه يخرج من بئرٍ
سحيقة. نخيفةُ العود، عجفاءُ ضامرةُ البنيان، لكنّها مهيبةٌ مخيفة، نظراتُها جادةٌ
جريئةٌ من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعةٍ بريّةٍ شرسة.

لقد حدّقت فيهم جميعاً، وزأمت وزمجت، وانتابتها حالةٌ غضبٍ حين
سمعت منهم أخبار مَكّة، وقالت:

— ومن الذي لم يسمع بخبر محمد وحديث مَكّة، والعربُ أجمعين؟!

قال يربوع:

— نحن عائدون الآن من مَكّة، ورأينا فيها ما رأينا، وسمعنا من خبره ما
سمعنا، لكننا جئنا إليك نريد أن نسمع قولك في أحوال مَكّة، وأمر هذا
الرجل الذي يقول إنّه مُرسل من السماء، ويأتيه الوحي من ربّه؟

قالت متسائلة:

— وماذا سمعتم عنه من أهله وعشيرته في مَكّة؟

قال وزّان:

— قبل أن يُنادي فيهم بنداء السماء، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد
الأحد، ويطالبهم بنزد الأصنام، وصفوه بالصادق الأمين، الذي لا مثيل له

في الخُلُق الكريم، ولم يعهدوا عليه أمرًا من أمورهم مثل شرب الخمر أو الكذب.

زأمت وزجرت من جديد، وفركت أصابعها الطويلة المعروقة على مضض، ثم قالت بصوتها الرجولي الخشن:

— لا بأس، وماذا بعد أن صدع بأمره، ودعاهم إلى اتّباعه، وأخبرهم بأنّه خاتم الأنبياء؟!

— اتّهموه بالجنون، ورموه بالسحر والشّعْر والكذب.

تبسّمت، فظهرت أسنانها البيضاء الشمعيّة كطفلة، ثم قالت:

— لا رأي لي في هكذا أمر، حتى أرى بعيني هذا الرجل، وأسمع منه كلامه، وأعرف صفاته وأعالين قسماته؛ حينئذٍ أستطيع أن أحدّد إن كان نبيًّا حقًّا أو كاذبًا مُدّعيًّا.

قال عقفان:

— ولو قلنا لك صفاته ومواصفاته، اتّحسّمين أمره لنا؟

— هل رأيتموه بأنفسكم؟

همس حنظلة:

— للأسف لا، لم تسمح لنا الظروف برؤيته هذه المرة؛ لأنه مُعتكف عن الناس، وأكابر قريش يُدبّرون له المكائد للنيل منه، وربما نراه في المرات القادمة.

عادت تزأم وتزأر وتتحشرج، ثم قالت بصوتٍ مخيف:

— ربّما لو رأيته بنفسي، أتبيّن حقيقة أمره.

سألها يربوع:

— وهل الكتب المقدّسة والمخطوطات القديمة، وعلوم الدين والدنيا عندكم في الدير، تُخبر شيئاً عن رجلٍ كهذا يظهر في زماننا هذا، ويقول إنّه خاتم الأنبياء ونبيّ آخر الزمان؟

تنهدت بمرارةٍ طويلة، وتكلّمت:

— أصدقكم القول، وأنا في خريف العمر، وقدمي تقترب من عتبات القبر: إنّ الكتاب المقدّس يُعطي إشارات، ويحدّد مواصفات بأنّ رجلاً سيأتي نبياً لآخر الزمان، وسيظهر حاملاً رسالة السماء.

بدت على ملامحهم الدهشة، وأخذهم الدهول كلّ مأخذ، فقال وزّان بلهفة:

— وما العمل الآن، أيتها الكاهنة؟ أهذا نبيّ أم دعيّ؟

— لا أدري، قلت لكم: لا بدّ أن أراه بعيني، وأسمع منه بأذني لأحكم عليه.
قال يربوع:

— الويل لأهل مكّة، إنهم في حيرة كبيرة.

قالت الكاهنة بنبرة واقفة:

— لا بأس عليهم، من شاء فليؤمن به، ومن شاء فليكفر.

تساءل عقفان بضيق:

— ومن أين لنا أن نعرف هذا الأميّ اليتيم الفقير نبيّ آخر الزمان؟

زأمت الزبراء، وغامت عيناها، وأطرقت لبعض الوقت، ثم نظرت إلى أعلى وقالت بهدوء:

— لكلّ نبيّ أماراتٌ وعلاماتٌ نعرفها نحن الكهنة جيّدًا، وأظنّ أنّه حان وقت ظهور نبيّ هذا الزمان.

هتف وزّان:

– ولماذا لا يكون هذا النبيّ أحد سادة قريش ووجهائها الكرام الأثرياء؟

نظرت الزبراء إليه شزراً بازدراء، وزجرته بقولٍ حادّ:

– هذا أمر الإله واختياره، وللالله مقاييسُ أخرى في أنبيائه ورسله
تختلف عن مقاييس البشر، ولدينا في المسيح عيسى- بن مريم عبدةٌ
وعظمة، ومن قبله موسى ويعقوب وغيرهم من رسل السماء عليهم السلام.

ثم وقفت المرأة العجوز العجفاء، وعلى وجهها تكشيرة، في إشارة إلى انتهاء
الزيارة، وتوكّأت على عصاها، وعن يمينها راهبةٌ شابةٌ، وعن يسارها
أخرى مثلها تستند عليها، بعد أن وهن العظم منها، وتحركت ببطءٍ متجهةً
إلى مقرّ إقامتها ومستقرّها، وتركتهن في حيرةٍ من أمرهم، بل زادتهم حيرة.

قال وزّان بشيءٍ من التعجب:

– صدقت الكاهنة فيما قالت، لقد حان وقت ظهور نبيّ هذا الزمان.

قال عقفان:

– لكنّها لم تحدّد شيئاً، ولم تؤكّد شيئاً.

هرش حنظلة رأسه الكبيرة المنبجعة، وتقلّصت ملامحه:

– الأيّام حبلى بالأحداث والمفاجآت، وإذا كان هو النبيّ الموعود،
ستنصره السماء على كلّ الأعداء، وسيعلو شأنه ويعظم أمره ويبلغ
الآفاق، لا ريب في هذا على الإطلاق.

ثم نهضوا مطأطيّ الرؤوس، تضرب الحيرة والدهشة أفكارهم، امتطوا
رواحلهم، وتوجّهوا صوب ديارهم، وقال عققان:

– لم تزدنا تلك المرأة العجوز سوى المزيد من القلق والحيرة، يا ليتنا ما
تكبدنا عناء المشوار إلى ديرها النائي هذا، لقد كان علينا أن ننتظر لنرى،
والأيّام قادرة على أن تُفرّق بين الحقّ والباطل.

5 مارس

ديار بني تميم.

6 قبل الهجرة / 617 م

عندما عادوا إلى الديار، كان في انتظارهم الخبر السار؛ أختهم الصغرى صارت عروساً مُشرقة، كشمس الضحى الحانية في موسم الشتاء، ولسوف تتزوج في الأجل القريب، وتنتقل إلى ديار فتاها الأثير، أبو كحيلَة بن عبس.

لا بأس، بقدر ما سرهم هذا الخبر، بقدر ما أحننهم، لسببين لا ثالث لهما: الأول: أن سجاح عادت إليهم بعد غيابٍ طويل، ولسوف تدخل في غيابٍ آخر أطول منه، بمغادرة الديار إلى حيث تتزوج.

أمّا السبب الثاني: أن والدهم عليلٌ بمرضٍ عضال، ويستحقّ مَنْ يرعاه، ويسهر على راحته، ويقوم على خدمته في محنته، وما عادت أمهم منتهى قدرةً على ذلك بفعل الزمن والوهن؛ إن الزمن لا يرحم أحداً.

ارتَضَوْا بالأمر صاغرين، وربما مجبورين مضطرين، ولكل واحدٍ منهم زوجته وعياله وحياته الخاصة، وليس من حقهم أن يطالبوا أختهم أن تترهب من جديد، وتُرجع زواجها أو تمنعه إلى حينٍ لأيِّ سببٍ كان.

وعندما عادوا من مكّة، كان اللقاء الكبير في البيت الكبير، في حضرة الرجل الكبير الحارث التميمي، ومنتهى بنت القيسي.. وبعد انتهاء اللقاء، وإيفاء الأشقاء الأربعة بمراسم الإخاء، وبثّ الأشواق لأختهم القدّيسة – كما اعتادت أمهم أن تُسميها – وتُطلق عليها هذا الاسم في غيابها، اختلى بها شقيقها الأكبر حنظلة، وهمس لها برفقٍ وحب:

– يا قدّيسة بني تميم، ها قد عدتِ إلى الديار بعد طول هجران، ولم نشبع منكِ بعد يا أختاه، وسرعان ما تُفارقين الأهل والأحباب وديار القبيلة، وترحلين إلى مكانٍ آخر... ما هذا بعدل القدّيسين يا سجاح!

ضحكت، وقالت مازحة:

– أتريدني ألا أتزوَّج يا حنظلة، وأكمل حياة الرهبنة هاهنا في ديار بني تميم؟

– لا، ما قصدتُ هذا يا بنت أبي وأُمِّي.

– وماذا قصدتِ إذن؟

– كُنْتُ أَنَا وَأَخَوْتُكَ نَرِيدُ أَنْ نَشْبَعَ مِنْكَ، لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، بَعْدَ حَرَمَانٍ لِسَنَوَاتٍ طَوَالٍ؛ أَنْتِ أَخْتُنَا الْوَحِيدَةَ، فَمَا زِلْتُ أَذْكَرُ وَنَحْنُ أَطْفَالٌ صَغَارَ، كُنَّا نَلْهُو سَوِيًّا، حَتَّى أَخَذُوكَ مِنَّا فَجْأَةً، وَذَهَبُوا بِكَ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ مُجْهُولٍ، وَقَالُوا لَنَا: إِنْ أَخْتَكُمْ سَبَّاحَ ذَهَبْتَ إِلَى رَبِّهَا لِتُصَلِّيَ وَتَعِيشَ إِلَى جَوَارِهِ.

غَمِغَمْتَ وَتَمَتَّتْ بِصَوْتٍ حَزِينٍ:

– صَلَّيْتُ كَثِيرًا، وَبَقِيتُ إِلَى جَوَارِ رَبِّي كَثِيرًا.

– أَمَا آنَ الْأَوَانُ يَا أَخْتَاهُ أَنْ تَبْقِيَ مَعَنَا لِبَعْضِ الْوَقْتِ؟ فَمَا زَالَ الشُّوقُ إِلَيْكَ يُلْهَبُ قُلُوبَنَا، وَنَرِيدُ أَنْ نَمْلَأَ عَيُونَنَا مِنْ نُورِ وَجْهِكَ، أَلَسْنَا أَهْلَكَ وَعَشِيرَتِكَ؟

– بَلَى يَا حَنْظَلَةَ، أَتَمَّ الْأَهْلُ وَالْعَزْوَةُ، أَنْتُمْ الْعِزُّ وَالشَّرَفُ وَالْمَجْدُ الْكَبِيرُ، وَلَكِنْ مَا الْعَمَلُ وَأَبُو كَحِيلَةَ يُوَدُّ أَنْ يَخْطِفَنِي مِنْكُمْ، وَقَدْ جَاءَ مُتَعَجِّلًا يَطْلُبُ الزَّفَافَ إِلَيَّ، وَالرَّحِيلَ إِلَى دَارِهِ.

– هَذَا حَقُّهُ يَا أَخْتَاهُ، لَا نَنْكَرُهُ عَلَيْهِ وَنَحْنُ لَا نَمْنَعُ، وَلَكِنْ نَحْنُ أَيْضًا لَنَا عَلَيْكَ حَقُوقُ الْأَخَوَةِ، وَلَوْالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقُوقُ أَيْتِمِ الْقَدِيسَةِ... انْظُرِي مَاذَا تَفْعَلِينَ، وَلَا تَنْسِي أَنْ وَالِدَنَا مَرِيضٌ بِالْإِذَاخِ، وَيَحْتَاجُ لِيَدِ الْقَدِيسَةِ تُدَاوِيهِ،

كما أن أمتنا نال منها الزمن، ويدها صارت مرتعشة، وصحتها ما عادت تُسعفها كما كانت في الماضي.

شردت سباح قليلاً، واكتسى - وجهها بحمرة الخجل، وحسرة الحزن، وظلّت تفكر فيما قاله، وعاد يُكرّر على أسماعها:

– الأمر لك يا أختاه... انظري ماذا أنتِ فاعلة، أيتها القديسة، ولا بأس عليك في أيّ قرارٍ تتخذين، وإن كان عندي يقينٌ بالعقل والمنطق أنّك ستبتقين معناها هنا لمزيدٍ من الوقت، لا نريد منك غير ذلك... مزيدٌ من الوقت.

انزوت في غرفتها، وأغلقت عليها بابها، وهي دائماً تفعل ذلك عندما تضطرب نفسها منذ أيام الدير، وتظلّ تتم بصلواتٍ خاصة، وإن كان يُحِيل إلى أخوتها أن كلّ ما تعرفه عن دينها هو ذلك الصليب الفضي- المعلق على صدرها، والذي أعطتها إيّاه الزبراء بنت رثام يوم عمّمتها بالكهانة مع آخرين في يومٍ مشهود، وصلت عليها صلاة الموتي.

في السهرات الليلية على ضوء القمر، كان أحد أشقائها يسألها أن تحكي لهم عن أيّامها ولياليها، وتجربتها الطويلة وراء أسوار الدير العتيق بين

الغرباء، فكانت سباح تحكي بهدوء وبساطة، كأن الدير الرهيب المهيّب هو قصرها المألوف، وهي الملكة التي تسكنه وحدها.

وتظلّ تحكي وتحكي، ولا تتوقّف عن الحكايا، وتتفعل بحكاياتها، وتصيح وسط انفعالها ودموعها وشجنها، وهي الأميرة السجينة وراء الأسوار، وفتاها هو الأمير المسحور، والعاشق المهجور، بأمر قوانين الدير وكهنته الكبيرة، ثم يشرق وجهها - فجأة - بالفرح ساعة الخروج من هذا السجن القصر، فتصبح هي وحبّيتها داخل الحكاية ليسا وحدهما، بل معهما أمراء وفقراء وعشّاق ونسّاك، وعليها أن تختار أيّ الحياة أفضل: التبتّل والبقاء في الدير بلا حبّ ولا زواج - مثل كلّ الرهبان - أو الخروج للعالم في خلع رداء الرهبنة لتعيش حياة الناس العاديين.

يطول الليل والسهر والسمر والحكايات في البادية، تحت أضواء القمر الساطع، وفي حراسة النجوم الزاهية، وترى أشقاءها الأكبر منها وقد عادوا أطفالاً صغاراً كما تركتهم قبل زمن الدير، وهما هم يسألونها أن تحكي المزيد، ولا تتوقّف عن الحكايا، فتفعل ما يريدون مسرورة، كأنها شهرزاد، وهم جميعاً شخصّ واحد مفتون بالحكايا... شهر يار الجبّار، سقّاح النساء الذي روّضته الحكاية.

تبتسم سباح وتحكي لهم قائلة:

- كان هناك ملكٌ ثريٌّ جدًّا، يسكن قصرًا فخماً وسط صحراء فسيحة واسعة ممتدة، ومن حول هذا القصر الكبير أشجارٌ عالية تكسوه بظلالها الوارفة، وتحميه من قيظ الصحراء ونارها اللاهبة، وبرغم هذا النعيم والثراء الذي يعيش فيه، كان يؤمن أن ثروته الحقيقية التي يمتلكها هي نبع الماء الذي يتفجّر بالقرب من أسوار هذا القصر- البديع، ولم تعرف الصحراء مياهًا أنقى، ولا أعذب، ولا أصفى من هذه المياه.

واعتماد الناس أن يأتوا من كلّ فجٍّ عميق، ومن كلّ ركنٍ بعيد، ومن أماكنٍ قطِ شتّى، ليشربوا ويرتووا من هذا النبع العظيم؛ فهو عينٌ من عيون الجنة، تفجّرت بالقرب من قصره الفخيم.

لكن الملك بدأ يقلق وينزعج كلّما زاد تدفّق جموع الناس من الصحاري والوديان والواحات وقواحل الأمكنة، ليشربوا ويسقوا دوابهم، ويحملوا معهم ما يكفيهم من هذا السلسيل العذب الذي ليس له مثيل في صحاري العرب.

لكن الملك خاف أن يشحّ الماء من شدّة الإقبال عليه، وتنضب تلك العين السحرية المعمورة مثل بئر زمزم في مكة التي لا تنضب أبدًا.

فكّر طويلاً، والهواجس العديدة تُداهمه ونقص مضجعه: ماذا لو جفّ هذا النبع، ونضبت تلك العين، وتلاشى الماء العذب الرقراق؟ كيف يعيش هو وأشجاره الظليلة، وأهله وخدمه وحراسه، وحشمه الذين يعجّ بهم قصره الكبير؟

في نهاية الأمر اتخذ قراره، وحسم مصيره، وقرّر أن يُحيط نبع الماء هذا بسورٍ حصينٍ مرتفع، وحُرّاسٍ شدادٍ غلاظ، وبوابةٍ ضخمةٍ من حديدٍ متين، ومنع الناس من أن يقربوا هذا البئر باعتباره كنزه الثمين.

وكلّمًا أراد أن يشرب الماء، يُرسل ابنته الأميرة الجميلة، وهي الوحيدة التي أعطاهها مفتاح بوابة النبع الصافي، لتجلب له بعضًا من الماء في دلوٍ ذهبيٍّ صنعه خصيصًا لهذا الغرض.

ومن شدّة حرصه على النبع، لم يأمن أن يعطي المفتاح لأحدٍ من الخدم، خشية أن يسلب بعضًا من الماء، أو يسمح للآخرين أن يأخذوا منه ما يحتاجون خلسة.

إلى هذه الدرجة وصل خوف الملك على كنزه الثمين المدفون في باطن الأرض، بالقرب من قصره.

سكنت سباح عن البوح المتاح، وظلّت لحظات تراقب أثر حكايتها على أخوتها الرجال الأربعة، وهي تراهم - بعين الخيال - صبيةً صغارًا كما تركتهم منذ سنوات، ثم استرسلت قائلة:

- في إحدى الليالي المقمرة، والضوء يسطع على القصر، أقام الملك حفلًا كبيرًا، دعا إليه الأشراف والنبلاء والأمراء، وسادة القبائل ونخبة من شبابها وفرسانها، وتلاّأ القصر- بالأضواء، وعزفت الموسيقى ودقّت الطبول، وانتشرت الموائد العامرة بكلّ ما لذّ وطاب.

ويدخل في تلك الأثناء فتى وسيم قسيم، يشبه الأمراء، وفيه سمات النبلاء، وقد رأى الأميرة الجميلة بنت الملك، فخطفت بصره وملكت قلبه في الحال، وظلّ طوال الحفل يراقبها ويختلس من حسناتها النظرات، دون أن يرفع عينه عنها، وقد أحسّت آنذاك بحاله، ولم تكن هي أحسن منه حالًا، فقد أعجبت به هي أيضًا.

وبينما الموسيقى تعزف بسحرٍ أخاذ، وبعد تناول الملك وضيوفه العشاء الفاخر، طلب من ابنته الأميرة أن تذهب لتملأ الدلو الذهبي ليشربوا جميعًا ماءً عذبًا فراتًا، فاستجابت الأميرة لأبيها، ولكن لأن الدنيا ليل، والظلام يغطّي المكان خارج القصر حيث البئر، التمسّت من الفتى الوسيم القسيم أن يصحبها إلى نبع الماء، وفي يدها الدلو الذهبي.

رافقتها الفتى مزهوّاً بذاته، معتزّاً بقسماته، وبشهامته وجرأة ونبل أخلاقه، وظلّ بجوارها. فتحت هي البوابة، ووضعت الدلو في البئر، فامتلاً عن آخره، حاولت أن ترفعه فكان ثقيلاً عليها، وقبل أن تسأل الفتى أن يساعدها في حمله، مالت بجسدها العلوي لترفعه، فانزلقت قدمها وسقطت في البئر على الفور.

استغاثت بالفتى الوسيم النبيل أن يُنقذها، حاول قدر طاقته، لكن النبع فاض بقوة، وغمر المكان بسرعة هائلة، وطغى الماء على السطح حتى وصل إلى رقبة الفتى، ودخلت المياه إلى القصر مثل شلالٍ رهيب، تغمره حيث الحفل في القاعة الكبرى للمراسم والاحتفالات.

ومع مرور الوقت تحوّل المكان إلى واحةٍ خضراء، مثل المكان الذي تعيش فيه الآن.

بدهشةٍ بالغة، هتف وزّان متسائلاً:

— وماذا حدث للفتاة الجميلة، الأميرة بنت الملك؟

تبسّمت سجاح وقالت:

— أنقذها الفتى الوسيم، ونجا الجميع، وشربوا أيضاً، ولم يعد باستطاعة صاحب القصر - أن يحتكر النبع بأسوارٍ وحراسٍ وبواباتٍ من حديد

ومفتاحٍ وحيد... هناك أشياء يجب أن تبقى هكذا، حرّةً طليقةً كالعصافير
في السماء.

استغربوا جميعًا، ونالت الحكاية المدهشة إعجابهم، وصاح يربوع:

— ومن علّمك مثل هذه الحكايات يا أخته؟

قبل أن تتطق، قال عققان:

— لا بدّ أنهم علّموها كلّ شيء في الدير.

لم تتكلّم، بل اكتفت بإيماءة من رأسها، وابتسامةٍ على ثغرها.

وعندما انصرفوا وانفضّ جمعهم، ظلّ حنظلة يفكر كثيرًا في حكاية أخته:
ما مغزاها؟ وماذا تريد أن تقول لهم على وجه الدقّة، وبشكلٍ ذكيٍّ غير
مباشر؟ وهو يعرف أن هذا طبع النساء: المكر والمدارة، واستهداف
الأهداف بشكلٍ مراوغ، لا شيء مباشر عندهن!

إن حنظلة بطبعه شكّاكٌ موسوس، يرتاب في كلّ شيء، ويبحث فيما
وراء كلّ فعلٍ أو قول، ولا يأخذ الأمور على عواهنها، يُدرك دومًا أن ما
خفي كان أعظم، بينما إخوته اكتفوا بسحر الحكاية، ولم يفهموا مغزاها

المقصود، وظلّوا يتطلّعون في لهفةٍ للبقية أن تأتي، لكن سباح كان لها رأيٌّ آخر، وقالت:

– البقية تأتي في موعدٍ آخر.

سألها عققان بشغفٍ لهوف:

– هيا يا أختاه، أكليها.

– في حينٍ آخر.

– ولماذا؟

– سمّث الكلام، ستأتي البقية في موعدها.

– ولماذا لا تُكلمين الآن؟ نحن مشتاقون.

ضحكت وقالت:

– هكذا أنتم معشر- الرجال، دائماً شغوفون، مشتاقون، متعجلون، لا تُطبقون صبراً، كأنكم أطفال لا تكبرون أبداً.

أرادت أن تُرسل إليهم رسالةً بتلك الحكاية، ربّما فهموها، وربّما لم يفطنوا
إليها، لكن لا بأس... المهم أنها حكّت الحكاية لغرضٍ ما في نفسها، مثلما
فعلت شهرزاد.



3 أبريل

ديار بني تميم.

6 قبل الهجرة / 617 م

قبل أسبوعٍ واحدٍ من موعد زفافها إليه، سألته أن يُرجى الأمر إلى أجلٍ غير مسّى، فدهش أبو كحيلة، وكان مشتاقاً إليها، متلهفاً لانتقالها إلى داره، لتكون تحت جناحه؛ فاحتجّ مستنكراً بلطف، وسألها:

— ولم الإرجاء يا بنتَ التميمي، وكلُّ شيءٍ على ما يُرام، وقد أعددتُ لك داراً تليق بأميرة، ولا ينقصها غيرك؟!!

بشيءٍ من الأسى قالت:

— أرجوك يا حبيبي، أمهلني بعض الوقت حتى يتعافى أبي، فليس من المعقول أن أتركه وهو في هذه الحالة من المرض.

— وهل وجودك إلى جواره سيشفيه؟!!

– ربما يكون وجودي إلى جواره سببًا في شفائه، أو على الأقل يخفف عنه آلامه، ولسوف أخدمه وأرعاه، وأعطيه الأدوية بنفسى، وأطعمه الطعام بيدي.

– وأملك يا سباح، ماذا تفعل؟!

– لقد تقدّم بها العمر، وصارت تحتاج هي أيضًا لمن يرعاها ويقوم على خدمتها.

بدا غاضبًا مستنفرًا، وغمغم بغیظٍ مكتوم:

– وما ذنبى أنا فى كل هذا؟!

– ذنبك أنك أحببتنى.

ثم أدارت وجهها للناحية الأخرى حتى لا تضعف أمام رغبته، وترضخ لإرادته وتسلم له بما يريد، وهو لا يريد سوى أن يتم الزفاف فى موعده.

لكنها سمعته يتهدد ويزفر وينفر كالبعير الثائر، وبعد فترة قصيرة من الوقت، والصمت مطبق بينهما، هدا قليلًا، ثم سألها باستجداء:

– ولو أرجأنا الأمر كما تريدین، فإلى متى سيكون انتظارى يا بنت التمي؟!

تلعثت قليلاً:

– قلتُ لك حتى يتعافى أبي.

– وماذا لو ظلّ على حاله، ولم تتحسن أحواله؟ هل تتوقعين أن أظل أنتظر العمر كله يا سباح؟!

أطرت نحو الأرض قليلاً، ولاذت بالصمت، فقال:

– تكلمي... تكلمي يا سباح.

بنبرة ضعيف وانكسار همست، وهي تجهش بالبكاء:

– وماذا بيدي أن أفعل؟!

– أرجوكِ حدّدي موعداً، أريد أن أعرف رأسي من قدمي، فليس من المنطقي أن تكون الأمور غامضة وهلامية هكذا.

– يا أبا كحيلة... أنا أتمنى أن أكون اليوم قبل الغد في دارك، وإلى جوارك، لكنه أبي، وليس لي في الدنيا سواه... ألا يستحق أن أُرعاه؟!

بنبرة ساخرة قال:

— حَقًّا ليس لك في الدنيا سواه؟! أليس هذا هو الأب الذي أراد أن يندك بالحياة وأنت صغيرة، ودفعت بكِ أملكِ إلى الدير لتتقذكِ منه ومن شيطانه، كما أخبرتني... أم أن النسيان آفة العرب؟!

— لم تكن تلك خطيئته وحده، إنها عادة مذمومة، والكثير من الآباء العرب يفعلونها للأسف الشديد، إنها جريمة في حق بناتهم، ولسوف يندمون عليها ذات يوم.

تهدد بحرقه، وقال بنبرة غاضبة:

— اسمعي يا سجاح... أنا لا يرضيني هذا الأمر، ولن تقبل عائلتي بهذا التأجيل الذي أراه ماطلة... عليكِ أن تحددي موعدًا جديدًا، وإلا...

قاطعته بنظراتٍ مستهجنة:

— وإلا ماذا يا ابنَ عبس؟!

— وإلا سأصرف نظراً، وأدفن قلبي في حفرةٍ من حفر الصحراء، ولن أعود إلى دياركم مرةً أخرى.

— هكذا، بهذه البساطة، تركني وتدخلني عني في محنتي، وأبي يصارع الداء من أجل البقاء على قيد الحياة؟!

– لا بأس... نسأل الله له الشفاء، لكن لماذا لا تفكرين في الشخص
الذي يحبك، ولا يطيق فراقك، وجعل من دروب الصحراء القاحلة ممراً
إلى ديارك؟!

هتفت بمكر:

– يبدو أنك لم تعد تحبني يا أبا كحيلة.

– لو لم أكن أحبك، ما كنتُ هنا اليوم.

تراجعت قليلاً، وأحسّت أنه محقّ في قوله، وخشيت من تحذيره
وتهديده لها، فقالت:

– أرجوك يا حبيبي... أمهلني شهرين آخرين.

بدا غاضباً، وقال متوعداً:

– لا... لا يا سجاح، هذا كثير... شهرٌ واحدٌ ليس أكثر، ولو لم يتم زفافك
إلى داري بعد شهر، فلن أعود إلى هنا أبداً، وسأقاطع ديار بني تميم مدى
الحياة.

– طيب... اهدأ يا أبا كحيلة، ولا تغضب أيها العاشق المجنون، شهرٌ
واحدٌ فقط.

- لا تراجع بعد ذلك؛ لأنني سأخبر عشيرتي، ونعدّ الركائب، ونذبح الذبائح، وندعو الشيوخ والأكابر للعرس الكبير، فلا تخلفي الوعد، ولا تنقضي العهد - بعد اليوم - بأي حجج وذرائع.

تبسمت برقة، واقتربت منه، وأمسكت يده بنعومة ولطف، ثم همست بأنوته، وعيناها في عينيه:

- كنت أعرف أخلاقك النبيلة، وقلبك الكبير، وأثق أنك لن تخذلني في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها القبيلة، وأتأني أن تمر بسلام وسرعة، ويتعافى أبي.

ارتاح لرقمها وعذوبة نبرتها وسحر لمستها، وقال لها وقد انفرجت أسايره:

- شهرٌ واحدٌ يا سجاح... لن أزيد عليه لحظة، ولا أستطيع صبراً أكثر من ذلك، وكفى ما ضاع من عمرنا وراء أسوار الدير، وتحت رحمة خالتي العتيدة الكاهنة الكبيرة الزبراء بنت رثام.

تبسمت واطمأن قلبها، ثم قالت بروحٍ مرحة:

- أعدّ الركائب، واذبح الذبائح، ووجه دعواتك للقوم والعشائر، وسأكون في دارك في الموعد المعلوم، واليوم المحتوم، أيها العاشق المجنون.

ولم تكتفِ بهذا القول اللين، ولم تتركه يمضي- غاضبًا، بل طبعت قبلةً
سريعةً على خده الأيمن، وهمست في أذنه:

- لن أكون لأحدٍ سواك، قلبي ملكٌ لك، أيها الأهوج الطائش... ألا
تعرف أنني أحبك؟

تبسم ونهض متوجِّهًا نحو الباب:

- الآن يجب أن أغادر... ها هي الشمس قد بدأت في التقافز فوق
رؤوس أشجار النخيل العالية.

سارت إلى جواره، ويدها الناعمة تداعب قبضة يده الخشنة، حتى غادر
الدار، وامتنطى ناقته التي نهضت واقفةً متأهبةً للرحيل، وصار هو في
الأعلى، ثم أشار لسجاح بيده مودِّعًا، كأنه أمير يودِّع حاشيته، وهو
ذاهب إلى رحلة صيدٍ في الصحاري والبراري، ربما تطول أو تقصر.... لا
أحد يدري.

أناخت الناقة، وأصدرت صوتًا مكتومًا، وهي تتأهب للسير الطويل، ثم
التفت برأسها نحو سجاح، كما لو كانت تلقي عليها تحية الوداع، بينما هو لم
يلتفت إليها، وظل مسلطًا عينيه إلى الأمام دون أن يبالى بالنظر إلى
الوراء.

كان مهمومًا يفكر... ماذا سيقول لأهله عن هذا التأجيل؟ ويشعر بالحيرة
الشديدة من شهر التأخير!

وإن كان يشك في أن ينزل طائر الشفاء من السماء في هذا الشهر،
فيمسح بجناحيه على رأس الحارث، وجسده المسجى في الفراش، فيشفيه
من أمراضه المستعصية على نداء الدواء وتشخيص الأطباء.
ويسأل نفسه بحسرة:

— ماذا لو طال به الداء، واستبد واستعصى على الشفاء؟!

وماذا سيفعل لو ماطلت سباح، وطلبت مهلةً أخرى لتكون إلى جوار
هذا الأب العليل، الملتصق بالفراش؟!

أسئلة كثيرة بلا إجابات شافية ضربت رأسه، وسرعان ما استفاق على
الغروب الذي حلّ، والظلام الذي استحلّ الدنيا، وهبط على الأرض
بسرعة، وأصوات الذئب تأتي من مكانٍ ما مجهول، لكن يبدو أنه قريب،
تعوي مثل كلابٍ مسعورة، ربما تكون جائعةً وتترقب فرائس الليل، وربما
تكون غاضبةً مثله لسببٍ ما.

15 أبريل

ديار بني تميم.

6 قبل الهجرة / 617 م

هبط طائر الموت المهيّب في الفجر، فخرّ الجسد العليل المنهك من عذاباته وأوجاعه، وسحب منه أنفاس الحياة، ووضع يده على مشتملاتها، وبدا لسجاح وأمها مرارة العجز التام أمام جبروت الموت الذي لا يستثني أحداً.

وجاءوا بالأخوة الأربعة على الفور، ودوت صرخات الأم، وتبعها بكاءً محمومٌ من الابنة المكلومة التي لم تمكث طويلاً في رحاب الأب. كانت تتكئ بمرفقيها على ركبتيها، وتدفن وجهها في كفيها، ثم رفعت رأسها وقالت من بين دموعها:

— لقد كان أبي كالشمس، نوره يسطع فيملاً الدنيا من حولي.

حين طار الخبر إلى ديار عبس، جاء أبو كحيلة مهرولاً على دابةٍ عفيةٍ سريعة، قطعت المسافة الطويلة في أقصر وقتٍ ممكن، ربع نهارٍ إلا قليلاً.

ساد الحزن، وعمّ العويل، ولم ينقطع النحيب في ديار بني تميم، لا شيء يهزم الموت أو يقدر على رده؛ لأن الموت أقوى من الجميع... إن الموت يهزم الجميع - ولا يهزمه أحد - إما بالضربة القاضية، أو بضرباتٍ متواليةٍ على طريقة المصارعة!

عندئذٍ اكتست النسوة بالسواد، وغيم الأسى على وجوه الرجال، بينما بدت سباح منهارةً من صدمة الفقد المباغت، بعد الحرمان والشوق الطويل للأب الذي كانت تراه دومًا عمود الخيمة، ونخلة العائلة المثمرة، هو سيد القوم وكبير القبيلة.

في حين ظلت منتهى راسخةً مثل جبل أحد، تبكي حينًا حتى تحمر عيناها، ثم تتوقف لتتابع أولادها ومراسم وداع زوجها، وعزاء أهلها وعشيرتها... فلا شيء يعوض الإنسان في هذا الكون... أليس الإنسان أغلى الكائنات؟!

اتكأت على ولدها الأكبر حنظلة، وبجواره يربوع، وهي تسير بخطى متساقطة كسلحفاة مريضة إلى منطقةٍ قريبةٍ من ديار بني تميم، تُسمى

"الجرف"، وتوقفت عندها، تأملتها بعناية، ثم أشارت نحو حفرة قديمة كان قد حفرها زوجها الحارث قبل عدة سنوات، وقالت لهما وهي تمصص شفثيها بحسرة:

— عليكم بتوسيع تلك الحفرة قبل دفن أبيكما فيها.

استجابا على الفور، ولم يقصّرا في الأمر، ونقّذا لهما ما أرادت دون أن يسألأها عن شيء. وعندما حمل الناس زوجها إلى مثواه الأخير، وساروا به إلى منطقة الجرف، أمرتهم أن يضعوه في الحفرة المقصودة.

غمغمت سباح متسائلة:

— لماذا وقع اختياركم على هذا المكان لتدفنوا فيه أبي، ولم تدفنه في مقابر القبيلة؟!

قال حنظلة:

— لا ندري لذلك سبباً، أسألي أمك، هي التي قررت وأمرت، وهي التي أشارت لنا على هذه الحفرة، وطلبت منا أن نوسعها لأجله.

عندما انقضى المشيعون، بعد أن واروا جثمان الحارث التميمي في الحفرة، وأهلوا عليه الرمال الصفراء، سألت أمها، والدموع تظفر من عينيها:

– أخبريني يا أمّاه... لماذا اخترتِ منطقة الجرف تلك لتكون مشوى أبي الأخيرة، ومقبرته الأبدية؟!

شردت منتهى قليلاً، ونظرت إلى ابنتها بحزن، وهمست بصوتٍ مبحوح:

– هذه المنطقة تحديداً يا سباح، وتلك الحفرة التي وسّعوها لأبيك، كان قد اختارها لتكون قبراً لك، وعندما رفضتُ تفكيره الشيطاني بوأدك بالحياة، ظلت الحفرة قائمة، وكلما شعر والدك بالذنب، كان يذهب إلى تلك المنطقة خلف الوادي القريب من ديار بني تميم، ويجلس بجوار الحفرة التي أعدّها ليدفنك فيها وأنتِ طفلة في المهد.

تهددت طويلاً بحرقة، ثم قالت:

– ذات مرة يا بنيتي سألته: لماذا يا حارث تذهب – من حينٍ إلى آخر – إلى تلك الحفرة المشؤومة؟!

فردّ عليّ بالقول: عساني أعتبر، وإن كنتُ لا أدري إن كنتُ على حقٍّ أم على باطل!

وظلت تلك الحفرة موجودة، لم يغير منها الزمان شيئاً حتى مات، ولم أجد مكاناً أفضل منها ليرتاح فيه إلى الأبد بعد أن انقضى الأجل.

تهدت سباح مدهوشةً مما سمعت، ثم هتفت:

– يا إلهي... يا أمّاه، دفنت أبي في الحفرة التي اختارها لي منذ سنوات
لتكون قبري؟!!

– ولم لا أفعل يا سباح؟! أليس هو من اختارها لتكون مثواك الأخير؟!
تلعثت قائلة:

– ولكن يا أمّاه...

قاطعها بالقول:

– طالما أنه رآها مناسبةً لك يا سباح، فلا شك أنها ستكون مناسبةً
له، أتمنى أن ينعم فيها بالراحة الأبدية، ويرتاح جسده المتعب في تلك
الحفرة.

– وهل هو الذي طلب منك ذلك يا أمي؟!!

– لا يا بنيتي... لم يطلب شيئاً، ولم يكن يفكر في الموت، بل أحياناً كنتُ
أحس – من شدة حبه للحياة وحرصه عليها – أنه لا يعترف بالموت،
ولن يتذوق كأسه المريرة في يومٍ من الأيام.

— وماذا قال لك يا أمّاه في أيامه الأخيرة؟! —

هزّت رأسها بأسى، وكأنّها تقلّب في ذاكرتها، ثم قالت:

— كان مشغولاً بالأخبار التي تتواتر من مكة، وظهور رجل هناك يدعو الناس إلى دينٍ جديد، يخالف دين آبائهم وأجدادهم، ويحطم أصنامهم ومعتقداتهم.

— وكيف عرف أبي بهذا الأمر؟! —

— يا بنيّتي... لا سرّ يبقى سرّاً إلى الأبد في هذه الصحاري المفتوحة، وتلك البوادي الواسعة، أنسيّت أن قوافل التجارة تجوب الأمصار والبلدان في الجزيرة العربية والشام ومكة واليمن، والناس ترى وتسمع وتحكي وتنقل ما ترى؟! —

كما أن أمر الرجل القرشي الهاشمي لم يعد سرّاً، بل جاهر بدعوته التي كانت سرية في البداية، وأمر الناس باتباعه وعبادة الإله الواحد، فأمن به من آمن، وكفر به من كفر، وناصره من ناصر، وحاربه من حاربه، وما زالت مكة تموج في هذا الصراع الرهيب.

— وماذا كان ينوي أبي أن يفعل؟! —

– قال لي قبل أن تداهمه سكرات الموت إنه سيذهب إلى مكة، فور أن يتعافى من الداء، ويقابل محمد بن عبد الله ليعرف حقيقة أمره، ويسمع منه بنفسه، لكن ليس بالأمنيات تتحقق الغايات، وها هو سيف الموت مسلطاً على كل الرقاب، ولم يمهله حتى يذهب إلى مكة.

– ولماذا كان مهتماً بأمر مكة، وما يحدث فيها؟!

– لا أدري يا بني، ولكنه كان دائماً يسأل إخوتك، وبعض أفراد القبيلة من هؤلاء الذين يزورون مكة لأسباب مختلفة، أو يلتقون مع تجارها وأعيانها، ليعرف كل ما يدور هناك، وكان شغوفاً بأمر هذا الأمي اليتيم، ويسأل عنه كثيراً، ويستقصي أحواله وصفاته وأقواله وأفعاله بدأبٍ غريب.

جحظت عيناها، وارتسمت أمارات الدهول على محياها:

– ماذا يعني هذا يا أمّاه؟!

– لا أدري يا بني، لقد عشتُ مع أبيك سنوات عمري كله، ولم أفهمه، ولا أستطيع أن أتوقع تصرفاته، كُتُّ أحس أنه أكثر من شخص!

– وماذا كان ينوي أن يفعل إذا طال به العمر، وأمّله طائر الموت؟!

– أظن أنه كان ينوي الترحال إلى مكة ليرى ويسمع بنفسه عن كذب،
وفي أيامه الأخيرة تملكته الحيرة، وظل مهمومًا بمكة وما يحدث فيها... وفي
الليلة الأخيرة، ومع أنسام الفجر، تقطعت أنفاسه – فجأة – التي ظلت
تدوي طوال الليل بمحشراتٍ غريبة، وتقلق نومي المضطرب أصلاً، حتى
حانت لحظة النهاية، واستقر في الحفرة إياها... لا أدري أيّ تحدّ تلبّسه،
لكن العجز منعه عن فعله.

خبأت سباح وجهها بين كفيها، وبكت بكاءً مريراً، ثم غمغمت:

– يا حبيبي يا أبي... ماذا كنت تريد أن تفعل؟ وفي أيّ شيء كنت
تفكر؟ ما لك بمكة وأهلها وشأنها وما يجري فيها؟!



11 مايو

ديار بني تميم

6 قبل الهجرة / 617 م

كلُّ شيءٍ يُولَدُ صغيراً ثم يكبر، إلا الحزن دون سواه؛ يُولَدُ ضخماً عملاقاً
بحجم ديناصور، وسرعان ما يتضاءل رويداً رويداً حتى يصير ندبةً صغيرةً
في القلب... أثّر بلا جسد!

مرّت الأيام تطوي نفسها إلى الأمام كعاداتها، بينما السواد ما زال يكسو
نساء القبيلة، ويُنكّس راياتها، والصمت يُخَيِّم على الرجال، فلا يتكلمون
إلا قليلاً بقدر حاجتهم الملحة للكلام.

ولم يعد أبو كحيلة قادراً على أن يقول شيئاً... إن الناس في مصيبة، وعليه
أن يصبر حتى يمر على الرجل أربعون يوماً على الأقل؛ فهو كبير القبيلة،
ووالد العروس، وسيد قومه، وعمود الخيمة، وليس بعيداً ضلّ أو خروفاً
شرد خلف التل!

جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، ولا حديث يُذكر عن فرح أو زفاف؛
فما زال كابوس الحزن يُحَيِّم على ديار بني تميم وأصهارهم بني تغلب، كما أن
الوفود ما زالت تأتي فرادى وجماعات من كل المناطق والجهات لتؤدي
واجب العزاء.

في تلك الأثناء، دفع الحزن يربوعًا إلى التفكير العميق في حقيقة الموت
والحياة، وجدوى خلق الإنسان في هذه الدنيا الفانية، واستعاد من ذاكرته
كل ما سمعه من تجار مكة وأهلها ووفودها.

كما استعاد نبوءة الزبراء، كاهنة الدير العتيقة، وإشارات الكتب المقدسة
التي قالت عنها بشأن رجل يأتي في آخر الزمان ليهدي الناس إلى الحق،
وينقذهم من الضلال والشرك إلى طريق النور والتوحيد، ويأخذهم إلى
سواء السبيل.

وينهشه الشك؛ لذلك ظل يسأل ويسأل، ويتقصى- الأخبار، ويجمع
المعلومات، ويضعها بجوار بعضها، ويربط بينها؛ عسى- أن يتبين له الخيط
الأبيض من الخيط الأسود، حتى قرر أمرًا خطيرًا، ربما يدفع حياته - كلها
- ثمنًا لهذا القرار المصيري.

وإن بدا لإخوته وأفراد عشيرته وأبناء قبيلته - في هاتيك الأيام - صامتًا واجمًا يحدّق في السماء، وتأخذه غيبوبة طويلة من الشroud عمّن حوله، وكأنه في سكرة لا يدري من أمر الآخرين شيئًا؛ يسهر كثيرًا مُسَهَّدًا يفكر، وفي الليل يطالع النجوم، ويتأمل في خلوته القمر، ويراقب حركة الكون، ويسأل نفسه، عساه ينجو من حيرته:

- هل هذه هي نهاية الإنسان في الحياة؟ حفرة من حفر الصحراء، ثم يُيلون على جسده فيها الرمال، ويصبح نسيًا منسيًا، بعد أن كان سيدًا في قومه، عزيزًا محابّب الجانب، دون أن يبقى منه شيء سوى ذكريات باهتة في نفوس أحبابه المقربين؟!

وماذا بعد الموت؟ وأين تذهب الروح بعد أن يبلى الجسد ويفنى في التراب والرمال، ويصير عظامًا نخرة؟!

آه... يتنهد طويلًا، ويتحسر على حاله وحال أبيه، وحال كل إنسان في هذا الكون؛ فما أتعس بني آدم! إنه كائن حزين، يتربص به الموت في كل وقت وحين.

يكاد يربوع يُصاب بالجنون من طول التفكير، ولم يعد يأكل بشهية مفتوحة كما كان من قبل، بل يكتفي بوجبة واحدة في اليوم، كأنه صائم أو زاهد،

حتى نقص وزنه، وشحب لونه، وانطفأ بريق وجهه التمرى اللامع، وبدأ هزئلاً خفيفاً، يتحرك كالناقة المريضة.

وظن الآخرون من حوله – أبناء الأهل والعشيرة – أن الحزن قد أذهب عقله، وأخرس لسانه، وجعله على حافة الهلاك، لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق؛ ظنوا – وليس كل الظن إثماً – أن فراق الأب وضعه في حالة بين الحياة والموت، لكن ظنهم لم يكن في محله.

كان الفتى يفكر فيما بعد الحفرة؛ لقد أدرك أن العمر مهما طال فهو قصير، مجرد طرفة عين ويزول كل شيء، وإن ظل مشهد موت والده – سيد القوم وكبيرهم – وهم يلقونه في الحفرة ويردمون عليه الرمال الساخنة من لفتح الشمس اللاهبة، يؤرق نومه ويعذبه في يقظته.

يخشى من أن يأتي اليوم الذي يكون فيه مثل أبيه، وهذا اليوم مهما بدا بعيداً فهو آتٍ لا محالة، ولن يرده أحد... إن الموت قاهر جبار، ليس له من دافع.

لم يكن أمامه سوى أن يفكر في مغزى الحياة، والعبرة من الموت، ولماذا خلق الله الإنسان، وماذا سيفعل مع ربه بعد أن يلقون به في الحفرة إياها ذات يوم محتوم... (فإذا الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم؟!)

سأل الكثير من تجار القوافل والناس الرحّل بين المدن والقرى، فأشار عليه بعضهم بالذهاب إلى مكة، وهناك سيجد ضالته، وقال له أحدهم بدهاء:

— اذهب إلى محمد؛ إنه يتكلم في هذه الأمور، وعنده جواب لكل سؤال يحيرك.

عاد يربوع يسأل:

— هل ضل صاحبكم أم عرف الطريق؟!

رد عليه رجل يكتّم إيمانه خوفاً من بطش كفار قريش:

— ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)﴾

عندئذ ظل يربوع يسأل هذا الرجل الكثير من الأسئلة، والرجل يبتسم، حتى قال:

— إن راحتك يا بني عند ابن عبد الله هناك في مكة؛ فامض إليه على الفور، وأعدك أنك لن تضل أبداً، وسيرتاح قلبك، وتهداً نفسك، وتدرك

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم:

[40-39

عاد يسأل من جديد:

– وما جدوى هذه الحياة إذا كانت آخرتها حفرة يُرمى فيها الإنسان كالبعير النافق، ويُهال عليه التراب؟!

أدرك الرجل الذي يكتم إيمانه حيرة هذا الفتى، وقال:

– ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]

صاح يربوع مدهوشًا من براعة القول وبلاغته:

– وماذا بعد أن يلاقيه؟!

قال الرجل، وقد سَمَّ كثرة الأسئلة التي لا تنتهي:

– يا ولدي... قلت لك: اذهب إلى محمد، عنده الدواء لمن هو في مثل حالتك.

بإصرار عجيب قال يربوع:

– لست مريضًا يا أخ العرب، ولن أفعل إلا بعد أن تجيبني.

- تبسم الرجل الذي يكتّم إيمانه، وبدا حليماً متسامحاً، وقال:
- ليس من مصير بعد الحفرة إلا جنة النعيم أو نار الجحيم إلى أبد الآبدين.
- وهل حفرة الحارث التميمي الآن جنة من نعيم أم نار من جحيم؟! – ما عندي جواب لسؤالك هذا.
- وعند من أجد الجواب يا أخ العرب؟
- قلت لك يا ولدي: اذهب إلى مكة، وهناك اسأل عن محمد واستمع إليه؛ لعلك تجد ما تبحث عنه، ولن تخسر شيئاً، بل ستكسب الكثير.
- هتف يربوع بضيق:
- أكاد أجن... اللعنة على الموت الذي يعذبنا بأسراره، ويخطف أحبابنا، ويشتت شملنا! لو كان هذا الموت رجلاً لقتلته بسيفي!
- تمتم الرجل الذي يكتّم إيمانه في صدره:
- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
- وما العمل الآن؟! – علاجك عند طبيب واحد دون سواه، حدّدت لك اسمه وعنوانه...
- فُضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

بشيء من الخوف، قال يربوع:

— سمعتم يقولون في قبيلتي إنني مسني الضر- من فجيعة موت أبي،
وسمعتم أيضًا يقولون إنني مسني الجنون، وسمعتم يقولون إنني مسني
الجن بفعل مضر، ولن أبرأ منه أبدًا!

ضحك الرجل الذي يكتُم إيمانه، ثم قال:

— لا أخفيك سرًّا يا بني، لقد كنت في مثل حالتك تلك، وشفاني محمد
بيده الشريفة حين وضعها على قلبي، ودعا لي بالهداية فاهتديت.

— وكيف اهتديت؟ هل أخبرك بسر الموت والحياة وما بعدهما؟!

— هناك في مكة، عند محمد، كتاب يُحصي- كل شيء علمًا، ولا يترك
صغيرة ولا كبيرة إلا وشخص لها الداء، وحدد صنف الدواء، وسيرتاح
الناس جميعًا لو اتبعوا تعليمات هذا القرشي الأمي الأمين.

باغته يربوع قائلاً:

— أراك قد آمنت به، واتبعت ما يقول يا أخ العرب؟!

ارتبك الرجل وخشي على نفسه، فلاذ بالصمت، ثم التفت حوله وقال:

— لا تبال بأمرِي، واشغل بالك بأمرِك، أيها الأعرابي الحائر.

9 يناير

ديار بني عبس

5 قبل الهجرة / 618م

لا شك أن مراقبة الحلم والسعي إليه، والصبر على رؤيته في الأفق البعيد حتى يهبط إلى الأرض ويصير واقعًا متاحًا بين يدي صاحبه، هو السبيل الأمثل لبلوغ هذا الحلم ونيل ذاك الأمل الذي يبدو بعيدًا، بعد السماء عن الأرض في عيني الملهوف عليه والمشتاق إليه، ولكنه في واقع الحال أقرب إليه من جبل الوريد.

إن الصبر كلمة السر، ولا شيء سوى الصبر، مسبوقًا بالسعي، ومتبوعًا بالأمل، والإيمان بأن الحلم آتٍ لا محالة؛ فلا شيء مستحيل... إن المستحيل كائن خرافي لا يستوطن سوى في عقول الفاشلين، منزوعي الهمة، مسلوبي الإرادة.

آمن أبو كحيلة بكل هذا، وصبر وسعى وراوغ حلمه، وراوغه حلمه حتى صار حقيقة ملموسة، ووقع طائرته المطلوب في قبضة يده؛ إن الشيء الذي يأتي سهلاً متعجلاً، ربما يهرب سهلاً متعجلاً... تلك طبيعة الأشياء في هذا الكون.

بعد أكثر من سبعة أشهر على رحيل الحارث التميمي، دُقَّت الطبول، وعُزفت الصنوج، وأعدَّت الركائب، وذُبجت الذبائح، وعلت الرايات الملونة استعداداً لليوم الموعود.

وأول مراسم الزفاف عند قبائل العرب، النصيحة التي يوجهها الأهل إلى العروس قبل أن تغادر دارها ويحملونها إلى دار عريسها، غريبة في ديار غريبة عليها... قالت لها أمها منتهى:

قالت الأم:

— يا سباح يا بنيتي... أيسرتِ وأذكرتِ ولا أنثتِ، جعل الله منك عدداً، وعزاً وجلداً، أحسنِي خُلُقك، وأكرمي زوجك، وليكن طيبك الماء، ومن بعده العطر الفواح الذي يملأ البراح، ويجعل زوجك لقربك يهفو ويرتاح، وتحببي إلى أحمائك وأقارب زوجك؛ فإن لهم عليك عيناً مراقبة ناظرة، وأذنًا مرهفة سامعة.

في يوم العرس الكبير، أعدوا وليمة كبرى، وذبحوا فيها الكثير من الإبل والغنم، ودعوا إليها أقارب العروسين من القبيلتين، والأهل والأصدقاء والجيران من القبائل الأخرى، وكانت الوليمة العظيمة تتناسب مع مكانة العروسين وشرف القبيلتين.

واقترن خروجهما من دارها بالغناء وضرب الدفوف، ورددوا أغنية، وهم يقتربون بسجاح على الركائب في هودج جميل وقور، محمولة إلى ديار أبي كحيلة، محملة بالكثير من الهدايا والثياب والذهب والحريز:

— أتيناكم أتيناكم ** فحيانا وحيّاكم

— ولولا الذهب الأحمر ** ما حللنا بواديكم

— ولولا الحنطة السمراء ** ما سممت عذارىكم

لقد زفوها ليلاً إلى عريسها في أبهى صورة، وأجمل منظر، في موكب مهيب من الرجال والنساء على الإبل المزينة بالألوان الزاهية، والرايات البديعة، والهواذج الجديدة، بينما العروس الفاتنة بسجاح بنت الحارث تحمل بين يديها شعلة من نار، ومن ورائها ترافقها أغراضها وحاجياتها في هودج كبير خاص لتعمر الدار.

أما المدعوون لعرس سباح، وما أكثرهم في هذا اليوم المشهود، فكانوا يرتدون ملابس نظيفة جديدة أنيقة، مصبوغة بصفرة الزعفران؛ لأنهم يعتبرون ذلك علامة على البهجة والفرحة والسرور بهذا العرس الميمون، وبعضهم صبغ الأيدي واللقى بالزعفران أيضًا، وكخلوا أعينهم بالسواد الساحر، وهم يقدمون الشكر للعريس على دعوتهم للوليمة في يوم عرسه، ويعبرون له عن أطيب أمنياتهم بالحياة السعيدة الرغيدة مع عروسه الجميلة، وأن ينالا الذرية العديدة لأجيال مديدة.

ويقولون له عند انصرافهم:

— بالرفاء والبنين!

وتعني أنهم يفضلون البنين على البنات، وهي العبارة التي نهى عنها الإسلام بعد ذلك بعدة سنوات.

لم يكن أبو كحيله يصدق أن فتاته، فاتنة بني تميم، صارت تحت جناحه وفي عقر داره أخيرًا، بعد طول انتظار وصبر شاق، ورهينة سنوات ققط عجاف داخل دير الزبراء كاهنة بني رثام.

الطريف والمدهش أن الزبراء علمت بأمر زواجه، ولا يدري كيف طار لها الخبر على أطراف الصحراء النائية في التو والحال، وبالموعد المحدد،

فأرسلت له هدية باعتبارها خالته، قبل أن تكون كبيرة الكهان وعظيمة الرهبان.

كانت الهدية ثمينة وذات قيمة مادية ومعنوية: صليب ذهبي معقوف ثقيل، وقال له الرسول الذي أعطاه الهدية:

— إن أمنا الكاهنة الزبراء تبارك لك زواجك، وتمنحك البركة، وتلتمس لك السعادة الدائمة مع عروسك الجميلة.

سُرَّ كثيرًا بالفتة الكريمة من الكاهنة الكبيرة، خالته العجوز التي لا تغادر الدير.

والمدهش أيضًا أنها لم تنسَ عروسه سجاح على الإطلاق، بل أرسلت لها هدية أخرى مماثلة، مصحوبة بدعوات لها بالسعادة والبركة وامتداد الذرية. لكن سعادة سجاح لم تكن مكتملة في يوم زفافها الموعود رغم كل شيء، وأن أهلها وعشيرتها وسادات قبيلتها إلى جوارها، يحملونها معززة مكرومة من ديار بني تميم إلى ديار بني عبس، كأنها ملكة متوجة على عرشها، تُرَف إلى قصر ملكها المحبوب.

شيء واحد دون سواه، كان ينغص عليها بهجتها آنذاك؛ ليس غياب الأب كبير القوم وسيدهم الحارث التميمي، بل إن ما يكدر عليها لحظاتها الحلوة

ويسرق منها كامل فرحتها هو شقيقها يربوع، الذي غاب عن زفافها من
دون الجميع، واختفى في مكان ما..

وعندما سألت عنه حنظلة قال لها:

— ذهب إلى مكة.

— ولماذا؟!

— لا أدري، لكنه قال: سيقابل محمدًا.

— وهل محمد أهم من أخته الوحيدة يوم زفافها؟!

— لا أعرف يا أختاه كيف يفكر، لقد تغير يربوع كثيرًا، وبدأ كأنه شخص
آخر لا نعرفه... أراه طويل الصمت، كثير الشرود، دائم التجهم والفكر،
هائمًا على وجهه في الصحراء، يسهر الليل يراقب النجوم، لا ندري ماذا
أصابه، ربما به مس من الجن!

عندئذ تنهدت سباح بضيق، وقالت:

— أذكر أنه تحدث معي قليلًا بعد وفاة أينا، وقال كلمات غير مفهومة عن
أنه لا بد له من لقاء مع محمد في مكة، ساعتها ظننته يمزح أو يهذي، ولم
أرد عليه.

هتف حنظلة:

— ها هو قد أخبرك يا سباح بالأمر الذي أخفاه عنا جميعًا.

— وكيف عرفت يا حنظلة بأنه ذهب إلى مكة؟!

— أخبرني أحد تجار قريش بأنه لقيه عند مشارف مكة، فسأله عن وجهته ومقصده، فأبلغه بالأمر، وأنه لا بد له أن يعرف حقيقة ما يدعو إليه ابن عبد الله، ويتبين إذا كان على حق أم على باطل.

لذت سباح بالصمت الشارد، ثم سألته:

— أظن أن يربوع سيعود إلينا كما كان؟!

— يربوع لم يعد كما كان منذ سمع بأمر مكة وما يحدث فيها... فكيف سيعود كما كان بعد أن ألقى بنفسه في خضم هذا الطوفان الهائج بالقرب من الكعبة؟!

— وما العمل الآن يا حنظلة؟!

— لا شيء بيدنا فعله يا أختاه، لا تبالي بأمر يربوع، أنت اليوم عروس القبيلة وأجمل بنات العرب ومصدر فرحتنا، فلا تجعللي أمر يربوع ينكد

علينا بهجتنا بكِ ويوم عرسكِ... دعيه يدبر أمر نفسه، ولا بد من يوم معلوم يعود فيه إلى الأهل والديار.

– لكني أستغرب يا أخي، ماذا سيفعل هناك في مكة؟!

– قلت لكِ: ينبغي مقابلة محمد، ويسمع منه.

– وماذا بعد أن يلقاه ويسمع منه؟!

– لا أدري يا أختاه!

شردت سباح قليلاً، ثم قالت بصوت متهدج:

– يربوع لن يعود إلينا بعد اليوم... ولو عاد فلن يكون الأخ الذي نعرفه.

– ولماذا تقولين هذا يا سباح؟! تفاءلي بالخير.

تنهدت وزفرت، وتقلصت ملامحها بضيق:

– يربوع إما أن يكون من أتباع محمد، وبذلك سنفقده إلى الأبد، وإما أن يكون ضد محمد، وسينضوي تحت لواء قريش في محاربته، وفي الحالتين هو مفقود، ولن يعود كما كان منا ولنا.

17 فبراير

الطريق إلى مكة

5 قبل الهجرة / 618 م

الطريق من جزيرة الفرات بأرض العراق شرقًا إلى مكة بأرض الحجاز غربًا ليس مفروشًا بالورود، ولا منثورًا بالرياحين، بل جبال صخرية، ودروب وعرة، وأخطار محدقة، ورمال متحركة أحيانًا وثابتة أحيانًا أخرى، رغم كل هذا فإنه لا يبالي.

لقد شدَّ يربوع راحلته، وامتطى ناقته، ومضى إلى حال سبيله وحده، وهو يعلم أن الإنسان يولد وحيدًا، ويمضي إلى هدفه في الحياة وحيدًا، ويموت أيضًا وحيدًا.

لا بأس... سار قاصدًا تلك القرية القديمة التي تحوي البيت العتيق، وتشرف به دومًا، وتعلو على كل القرى بهذا الشرف الأثير بها، المأثور عليها وحدها.

في تلك الأثناء، كان الجو باردًا، رياح تهب من حين لآخر كأنها نصول
سيوف حامية، تحك الجلد وتؤلمه، والنهار يوشك أن يبلغ المنتصف،
ونسمة رطبة مبللة ببقايا المطر تأتي مباغتة من الشمال.

يخفف من برودتها دفء الشمس التي تتوسط صفحة السماء، وتتلاحق
على وجهها قطع السحب البيضاء، تدفعها الريح بخفة من ناحية الغرب،
بينما الطريق يبدو قفرًا مقفرًا، خاليًا من البشر- والدواب، إلا من قافلة
تظهر على استحياء من بعيد، تترنح بأحمالها وبعيرها بين دروب الجبال
الراسخة بأجسادها الصخرية العتيقة.

تواصلت ساعات الرحيل، وتداخل الليل في النهار، وتداخل النهار في
الليل، دورة الكون التي لا تهدأ أبدًا؛ في كل مساء ترحل مراكب الشمس
من السماء، وتتركها خالية للنجوم التي ترصعها بتألق عجيب ويريق أخذ.

وبدأ إحساس يربوع بالأمان يتزايد، كلما ابتعد عن ديار قبيلته بجزيرة
الفرات، واقترب من مكة.

يتوقف عابر السبيل هذا في مناطق الآبار ليرتوي، ويسقي ناقته
العطشى، ويحمل معه بعضًا من الماء، وأحيانًا يتعطف عليه بعض الرحل
من القوافل وأصحاب الخيام بشيء من الطعام، ولا يموت في بلاد العرب

جائع؛ لحم ضأن أو لحم ماعز مما يُشوى على النار، وما لَدَّ وطاب،
فيأكلون بشهية مفتوحة، يأكل معهم كأنهم أهله وعشيرته، وهم ينادونه بأخ
العرب، ثم يواصل المسير إلى المصير، عساه يبلغ منتهى الطريق، ويهتدي
إلى الصادق الأمين كما يصفونه، قبل أن ينقلبوا عليه وعلى أنفسهم،
ويقولوا عنه إنه ساحر أو شاعر أو مجنون.

حين وصل إلى مكة، نزلت عليه سحابة من سلام وطمأنينة وحبور، وبدا
عليه السرور، لكنه وجد الأجواء مشحونة، والنفوس محتقنة، وسادة
قريش في حالة غضب وهياج على الدوام، يتربصون بمحمد ونفر من أتباعه
الدوائر والطرقات، ويضيقون عليهم الخناق، ويسلطون عليهم السفهاء،
ويسدون عليهم كل منفذ، ويتعرضون لهم بالأذى والسب والشتم والرجم
بالخصى والقاذورات والأشواك، والتعذيب المميت في بعض الأحيان.

جاء يربوع التيمي، وهبط على مشارف مكة، نزل بين جبلين صخريين
ممتدين يطلان على الكعبة، إطلالة الشمس على الدنيا في وسط النهار.

نصب خيمته، وأناخ ناقته لتستريح، واستقر مقامه إلى أجل غير معلوم،
لا يفعل شيئاً - كل يوم - سوى أن يراقب الناس في مكة، وينزل
الأسواق، يتابع عن كثب، ويشترى قوت يومه، وينصت للقوم: ماذا

يقولون عن محمد ودعوته وأصحابه؟ وكيف يتصرفون؟ وماذا هم فاعلون؟
وأين يجتمعون ليدبروا أمرهم؟

الإنسان البدائي الذي كان يعيش في الكهف ويتعيش من القنص في
البراري أكثر منه حظًا؛ كل يوم لديه اختيار صعب لا بد منه، مجابهة
للخطر ومحاربة لنيل حقه في الدنيا والآخرة، وهو دائمًا على شفا الهاوية،
وما بقاءه إلا نصرًا يتجدد يوميًا.

وأحيانًا يبقى الإنسان على قيد الحياة رغمًا عن أفه؛ لأن لكل أجل كتابًا
معلومًا، ومحسوبًا بعدد صفحاته وأيامه، إنه بقاء سالب منفعل، اعتاد أن
يرضى به، وأحيانًا يكرهه ولا يقبله... لكن ما باليد حيلة!

لا يملك انتصارات مدهشة في الحياة على الإطلاق، لكنه قادر على أن
يدهش من حوله بهزائم نجا منها بأعجوبة.

إن الحياة تمضي في طريقها رغم كل هذه الفوضى الظاهرة، ومن رحم تلك
الفوضى جاء رجل بالحق ليصلح أحوال الجميع، بحيث يصبح المرء قادرًا
على العيش بطريقة أفضل... وما عليه سوى أن يتحرك للأمام، أو حتى
للخلف... المهم أن يتحرك، وكل إنسان ليس لديه خيار إلا سكة الأقدار،
وهو مُسيرٌ بالطبع.

يأكل ويشرب وينام ويستيقظ، ويجب النساء من كل نوع ولون، ويسعى بالأمر والرأس قبل القدم إلى المصير الحتمي، حيث الحفرة المنتظرة التي حفرها بيده، أو حفرها له غيره عند النهاية المحتومة.

لم يكن مع هذا الفريق أو ذاك، بل كان يلزم الحياء التام، ولا يتكلم كثيرًا، ولا يُبدي رأيًا على الإطلاق؛ لأنه حصيف ذكي، ويدرك تمامًا أن الصامت في أمان، والمتحدث دائمًا في خطر؛ لأن القول قد يذهب بصاحبه إلى الجحيم، أما الصمت فهو حصن حصين.

لزم الصمت واحتفى بأسواره، وأمسك عليه لسانه، أليس لسانه حصانه؟! بينما كل حواسه الأخرى متأهبة مستنفرة، تلتقط كل كبيرة وصغيرة، وعندما تهدأ جلبة النهار، ويخفت ضجيج الأسواق، ويتلاشى لغط الناس، ويزول زحامهم في دروب مكة وشوارعها، يمضي -يربوع منسحبًا إلى مقر إقامته، صاعدًا بين الجبلين على مسافة ما من الكعبة، حيث خيمته وناقته وراحلته وأغراضه القليلة.

هناك ينام مطمئن البال، هادئ النفس، مستكين القلب، لا يلوي على شيء، ولا يبالي بشيء، إنما يلزم الصبر والصمت حتى يبلغ ما يريد.

و ذات ليلة معتمة، والسماء مكفهرة، لا نجوم فيها ولا قمر، ظل مسهّداً
مؤرقاً على غير العادة، لا يدري ماذا أصابه!

خرج من خيمته رغم السكون الخفيف، متدثراً بعباءة سوداء كالليل تماماً،
وجلس على صخرة مستوية قليلاً بالقرب من الخيمة، شاردًا يفكر: كيف
سيلتقي بمحمد؟ وماذا سيقول له؟

وبعد فترة قصيرة، رأى نورًا يسطع في العتمة ويشقها شقًا، كأن سراجًا
وهاجًا يمشي- على قدمين، يخترق الظلام الدامس، ويمزق ثوب الليل
العتوم بسهولة، ويتحرك صوب الخيمة.

انتابه شيء من الخوف، وأحس أنه ربما يكون قاطع طريق يتربص به، أو
لصّ يريد قتله أملًا في السطو على ما لديه من مال وأغراض، ويسرق
الناقة أيضًا... وهو غريب عن المكان، والغريب دائمًا أعمى ولو كان
مبصرًا... من يدري؟ إن الحذر واجب، والتوجس أمر لازم.

وكما اقترب الضوء منه ازداد توهجًا، ووقع أقدام لا هي بالثقيلة ولا هي
بالخفيفة تدب على الرمال، ووقعها يحدث صوتًا في السكون يترامى إلى
سمعه يسر-، عندئذ نهض يربوع من مكانه متأهبًا، وقد أدرك أن وقع
الأقدام على بُعد خطوات منه، فصاح بصوت أجش يحاول أن يجعله
جريئًا وثاقًا متمسكًا:

– توقف عندك، ولا تقترب أكثر... من أنت؟ وماذا تريد في هذا الليل؟!

جاءه صوت عذب جميل، لم يسمع بمثله من قبل، هادئًا حانيًا مطمئنًا:

– ترفّق بنفسك يا أخ العرب، ولا تخف مني؛ فلست بقاطع طريق، ولا سارق مال ولا إبل.

صاح يربوع، وهو ما يزال مفزوعًا:

– أبعد هذا السراج الوهاج عن وجهي حتى أتبين ملامحك.

ضحك صاحب الصوت العذب الجميل، وقال:

– يا أخ العرب... لست بحامل سراج.

– ألق سيفك، وأبعد السراج.

– قلت لك: لا تخف يا أخ العرب، فلست بحامل سراج، ولا بحامل سيف... أنا أعزل كما ترى.

– لا أرى شيئًا سوى النور... من أنت؟!

تبسم الرجل، واقترب منه أكثر، وربت عليه بيد حانية:

– أنا عبد من عباد الله، اصطفاه ربه ليبليغ الناس أماتته، ويصدق فيهم بالحق المبين، وهم كما ترى يعاندون، وما زال معظمهم في ضلالهم

يعمّهون، ولسوف أدعو ربي لينجيهم من ضلالهم في الدنيا، ويعتقهم من عذاب الجحيم في الآخرة.

ذهل يربوع، ولم يصدق ما يسمع وما يرى، وقد تأكد بالفعل أنه لا يحمل سراجاً مضيئاً في يده، بل يشع النور من وجهه، ولا يحمل سيفاً في يده، فكاد يُغشى عليه من المفاجأة، لولا اليد الشريفة الحانية التي ربّتت عليه برفق، وقال صاحب الصوت:

— يا يربوع يا ابن التيمي، جئتني فجئتك، قصدتي فقصدتك، وأعلم أنك جئت قاصداً الخير، فجزاك الله بالخير، وأرسل إليك الخير حيث أنت في هذه الصحراء القاحلة، في تلك الليلة الليلاء العمياء.

هتف يربوع، وصاح كالمجنون، وهو يحتضنه بقوة، ويشم أطيّب عطر في الدنيا:

— حبيبي يا محمد... أنت نور الدنيا كلها.

ثم بكى بدموع سخية، كأنه يحلم، وما هو بحلم، بل كان حقيقة لا تقبل الشك.

18 فبراير

ديار بني عبس

5 قبل الهجرة / 618 م

كانت الليلة الأولى لسجاح في دار فتى أحلامها، أبو كحيلة بن عبس،
 بداية الليالي المجنونة حقاً... لقد سقطا معاً في بحر من العسل المصفى،
 وسكرا سوياً من نشوة الحب وعذوبة مذاقته.

دخلا في دهاليز السعادة السرية اللانهائية، صعدا جبلاً، وتسلقا هضاباً،
 وغاصا معاً في رمال الدهشة اللذيذة، وسبحا معاً بين أمواج مغرقة محرقة،
 لكنها برداً وسلاماً عليهما.

تلققتهما أنفاس من الشهقات واللهفات والنشوات والآهات، وعبثا سوياً
 عبث الأجساد العاشقة للهو الحياة، حتى اكتملت الرحلة، ووصلا إلى
 القمة، وليس بعد القمة سوى استراحة العشاق، وليس بعد خوض
 المعارك سوى استراحة المحاربين!

بسرعة البرق، وهستيريا الرعد في ليالي الشتاء العاصفة، ومنذ الليلة الأولى، استعاد ذاكرة الجسد ما حدث في الليلة الممطرة إياها، وقت أن كانا في الدير يتدثران بثياب الرهبان.

تلك الليلة الجنونية المذهلة التي فتحت أمامهما الطريق للسباحة في نهر المتعة، ومن يومها أدركا أن صلاة الموتى التي صلتها عليهما الزبراء بنت رثام، ومن ورائها جوقة الكهنة والرهبان، صلاة باطلة، ما أنزل الله بها من سلطان، وها هما الآن يصليان معًا في مخدعها الآمن، صلاة الأحياء العاشقين.

وقفت سباح التميمية في انتظاره، تترقب فارسها، وتطل عليه من شرفة الدار، وقد تجملت وترينت لهفًا لما هو قادم، وتخشى مما هي تشتاق إليه، لا تدري ماذا تفعل رغم وصايا الأم التي لا تنضب.

هذه الدار هي منفاها الأخير، وإن كان طموحها أكبر بكثير من أن تتزوج وتعتكف في الدار، وتكون حكرًا للرجل والأولاد الصغار.

في حياتها ثلاثة منافع: (ديار بني تميم، ودير الزبراء، وديار بني عبس)... منافع وقود... قيود ومنافع، تكبل المرأة بلا نهاية.

عندما يدخل عليها، تجد نفسها مدفوعة إليه برغبة عارمة، تهرول نحوه، تحتضنه وتقبله بشغف وشوق، قبلات ناقصة فيها كثير من الاحتياج والخوف والحرمان.

سألها بضيق:

— لماذا كنتِ تُطلّين من النافذة، وشباب القبيلة يجلسون في مرمى نظراتك؟

ضحكت، وأدركت بدهاء الأتني ما يعمل في قلبه من الغيرة عليها، ونظرت إليه نظرة ذات مغزى، ثم ألقت أصابعها الناعمة الرفيعة على وجهه، وضغطت أطرافها برفق في جلده، ولم تقل شيئاً، بل استمرت تدغدغ حواسه، كأنها تدق مسامير العشق في جسده، ألصقت شفيتها بجده الأيمن، وطبعت قبلة على وجهه المستسلم، ثم نزلت بشفتيها حتى استقرتا في مكانهما المفضل فوق شفتيه، والمسامير تخترق كل مسامه، وهو في حالة من الخدر والسكون والسكينة، كأنه على أعتاب الجنة، يشم ريحها، ويكاد يمس ثمارها، ويرى أنهارها، وقطوفها دانية منه إلا قليلاً.

لكنه يبتعد عنها سريعًا، وينزع عنه ملابسه بعنفوان، يود أن يمزقها من فرط التهافت عليها، وفجأة صار أمامها كيوم ولدته أمه سدينة بنت رثام، وألقى بنفسه في نهر الغرام الذي بلا شيطان.

وعندما ارتوى تمامًا، وسبح حتى هدّته السباحة، وأوجعت أمواج المد والجزر عظامه بألم لذيذ، جلس يرتاح وهو يلهث بأنفاس متلاحقة من طول السباق، بينما جلست هي الأخرى أمامه - على الأرض - في حالة استرخاء وسكينة، ثم نظرت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين الآسرتين، وحركت رموشها الطويلة كجناحي فراشة، عندئذ اكتشف أبو كحيلة، وهو يتأملها ويحدق في تفاصيلها ويقرأ تضاريسها بعينه، ويتفرس ملامح وجهها الجميل، أنه يعيشها بلا حدود.

وقد أحست هي أيضًا ذات الإحساس، لم يبقَ لها غيره في هذا الكون الواسع، بعد رحيل الأب، ووهن الأم، وهجرة الأخ إلى بلد الكعبة، ونزوح أشقائها الثلاثة إلى حيث زوجاتهم وديارهم المستقلة... لا بأس، إن الرجل يهجر امرأة ليستوطن امرأة أخرى.

مضت الأيام سريعة، ودارت دورتها المعتادة، وتنافزت إلى الأمام كعادتها المذمومة، ومَرَّ شهر العسل مرور الكرام، وبدأ الرفاق والأقارب من

التجار يحثونه على اللحاق بهم في القوافل، والخروج معهم في رحلاتهم التجارية إلى الشام، وإلى اليمن أحيانًا، وإلى مكة والحجاز أحيانًا أخرى. ويقولون له ضاحكين:

— هيا إلى العمل يا رجل، ماذا دهاك؟ تلذذت بالراحة بجوار عروسك الجميلة؟!

إن نهر العسل باقٍ لن يغادر دارك، أما المال والتجارة فلن تبقى في الأسواق تنتظرك طويلًا.

يبتسم ولا يتكلم، ويعرف أنه طال به الكسل والنوم في العسل، ولا بد له أن يخرج للعمل، وبعضهم قد تملكته الغيرة من نهر العسل الذي ينهل منه أبو كحيلة وحده، ويدرك أن فراق سباح صعب، لكنه شر لا بد منه، فليفارق ويعود، ويعود ويفارق.

ذات ليلة مخملية، يرتشفان فيها سويًا من كأس الحب وخمرته، قال لها:

— يا حبيبتي... من الغد سأرتحل بتجارتني مع الرفاق في قافلة بني عبس المتجهة إلى بلاد الشام، لن أطيل الغياب، وسأعود سريعًا في غضون أيام معدودات.

— كما تشاء يا أبا كحيلة... فلتفعل ما تراه صائبًا.

— سوف تنتظريني هنا يا حياتي، ويمكنك في غيابي أن تشغلي وقت الفراغ مع الأهل والجيران، وتتسلي بالحديث مع هؤلاء البلهاء.

في الصباح الباكر، استيقظت لتجده قد سبقها إلى اليقظة وحده، بحماس ونشوة وهمة ونشاط، وإن بدا لها شخصًا مختلفًا، ناصع الوجه، منشرح الصدر، غادره مسّ جنون الليل الذي رآته منه، وربما غادر هو جنون الليل، وتناسى أفعاله التي لا يأتي بها عاقل، لكن قد يأتي بها عاشق.

بدا هادئًا منتعشًا، حليق اللحية، ناعم البشرة، مسترسل الشعر، عندئذ تأكدت أنه لا تأجيل للترحال هذه المرة، من ملابسه وطريقته ويقظته المبكرة على غير عادته، عرفت أنه عقد العزم وسيفارق اليوم.

وهي تعدّ له الفطور بسرعة، قال لها:

— سنمضي يا سباح إلى بلاد الشام، أتريدن شيئًا يا حبيبة العمر؟

لم تدرِ ما تقول له، فتطلع إليها ليقراً ما في عينيها، عساه يعرف مدى حاجتها إليه أو إلى أي شيء آخر... لا شيء.

كانت خائفة من مواجهة العيون المترصدة بها في الديار، عندما تخرج إليهم بعد أن يغادر زوجها، لم تفهم أنها في حضرة أرض غريبة عليها، رغم ارتباط جبل سرتها بتلك الديار.

يريد الجميع أن يملؤوا العيون من جميلة جميلات بني تميم، وفاتنة أبي كحيل، وفي ذات الوقت لم تستطع أن تخفي سعادتها التي تبرق من عينيها السوداوين الواسعتين الآسرتين، كجمتين في السماء السابعة، تطلان على الدنيا الرائعة.

عاد إليها الهدوء والسكينة، وإن كانت في قرارة نفسها تتمنى أن يأخذها معه إلى المدى اللانهائي، ويسافر بها في كل البلاد البعيدة وغير البعيدة، تود أن تركب الناقة إلى جواره، أمامه أو خلفه، ليعرف الناس أنها تحب هذا الفتى الأكل الذي غزاها مبكراً، واستعمر قلبها، ووضع فيه خيمة إقامته الدائمة.

تركها وهبط إلى الفضاء الواسع، حيث الساحة الكبيرة العامرة بأشجار النخيل العالية، ليلحق بركب القافلة، والرزق يحتاج السعي في مناكب الأرض، وسبحان الله الرزاق دون سواه.

وفجأة، قبل أن يغادر مرتحلًا، هرولت تجري وراءه، تناديه بدلال بصوت
ناعم يشبه الهمس، وهي تعلم أن هناك ألف عين تراقب، وألف أذن
تنصت، لكنها لا تبالي بأحد. استدار إليها دهشًا متسائلًا باسم الثغر،
هادئ القسمات:

— ما بك يا سجاح؟ أتريدين شيئًا؟

— نعم يا أبا كحيلة.

— أمرك يا حبيبتى، لسوف أشتري لك كل ما تريد.

— لا أريد شيئًا يُشترى.

استغرب مستفسرًا:

— وماذا تريد إذن؟

— يربوع... أخي يربوع.

— يربوع أخيك؟ ماذا به؟

— أرجوك، اسأل عنه تجار مكة.

— لكنني لست في طريقي إلى مكة، إن القافلة ستنتجه إلى الشام.

– أعرف يا أبا كحيلّة، لكنك ستقابل هناك في الأسواق التجار من كل أصقاع جزيرة العرب والحجاز ومكة، ستجد منهم البعض بالتأكيد، اسألهم عن أخي يربوع الذي ذهب إلى مكة ولم يعد إلى الديار، وانقطعت أخباره منذ مدة، إن قلبي لياكلني عليه.

هز رأسه، وأطل الصدق والتعاطف من عينيه، وتمتم:

– اطمئن يا حبيبتى... سأفعل، وآتيك بالخبر الطيب عنه.

لم يكن يدري كيف سيفعل ذلك، ولكنه أحس أنها في حاجة ماسة لمثل هذه الكلمات الطيبة للاطمئنان، بعد أن رآها على وشك البكاء من شدة الأسى والتأثر لغياب يربوع.

احتضن وجهها بكفيه، ومسح الدموع التي فرت من عينيها الأسرتين، وظلا واقفين متلاصقين، ممسكي الأيدي، ثم افترقا على مضض مضطرين، وقد سمعا من ينادي عليه من رفاق القافلة.

19 مايو

جبال مكة

5 قبل الهجرة / 618 م

زأمتِ الریحُ، وزمجتِ الزوابعُ، ويدُ الأمين تأخذ يربوع برفقٍ حنون،
ليسير إلى جواره وفي كنفه حتى لا يتعثر، ويسأله بلطف:

— لماذا تكبّدتِ، يا ابنَ التميّ، مشقّةَ المجيء من بلاد الفرات البعيدة إلى
بطحاء مكة، وصحرائها القاسية قسوة قلوبِ أهلها التي هي كالْحجارة، بل
أشدُّ قسوةً وصلابةً؟!

هتف يربوع بدون تفكير:

— كلُّ الصعاب تهون من أجل نظرةٍ من وجهك الوضّاء، وكلُّ المشاق لا
شيء في سبيل تلك اللحظة، أيها الصادق الأمين.

تبسّم الأمين مازحًا:

– آه... أعتذر لك عن لحظة الرعب التي عشتها خوفًا من السراج غير الموجود، وحامله المجهول، والسيف الذي لا وجود له معي أصلاً... أليس كذلك؟!

– لا... أيها المختار، بل من أجل اللحظة التي أشرقت فيها أنوارك، وبددت العتمة في تلك الليلة الظلماء. ساحمني على جهالتي وسوء ظني، يكفيني نورك أيها الحبيب الذي أضاء قلبي قبل أن يضيء الدنيا كلها من حولي.

ثم سادت لحظة صمت، وعاد يربوع يسأل:

– ولكن أخبرني، أيها الصادق الأمين، ما الذي جاء بك الآن إلى هذا المكان المظلم في هاتيك الصحراء المهجورة، والخطر يحرق بك من كل ناحية، وقريش بساداتها وسفهاؤها تترصد بك، وتسعى للنيل منك؟!
بصوتٍ ملائكيٍّ عذبٍ كماء الفرات:

– ألم أقل لك إن من أرادني أردته، ومن جاءني يسعى جئتُ إليه أسعى بالمثل وأكثر، ومن أحببني أحببته؟ هذا هو السبب الأول.
هتف مدهوشًا:

– أتريد أن تقول – أيها الصادق الأمين – إنك جئت إلى هنا في هذا الوقت من أجل البدوي الضال الذي هو أنا؟!

تبسم الصادق الأمين وقال:

– هو ذاك... جئت من أجلك، ومن أجل كل الناس. لن تضل بعدي أبدًا، أيها التيمي الصالح، ولن يضلّ كل من تبعني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

انبسطت أسارير الفتى، وانفجرت تقاسيمه، لكنه عاد يسأل بإلحاح:

– هذا هو السبب الأول، لكن ما هو السبب الثاني؟!

قال الصادق الأمين وهو يخطو نحو الأمام، ويتبعه يربوع بخطى قليلة إلى حيث لا يدري:

– السبب الثاني، أنا الآن في الطريق إليه.

ثم سكت، فاستغرب يربوع الأمر، وعاد يسأل مجددًا:

– أهناك غيري تذهب لتلقاه أيضًا في هذا الوقت؟!

– نعم... بالطبع، أيها التيمي.

– ومن يكون هذا المحظوظ، هو الآخر مثلي هذه الليلة، ليسعد بنورك وإشراقك، أيها الأمين؟!

– سترى بنفسك لو تبعتني. تمهل واصبر، وربما ترى، وربما تسمع... ليس الأمر بيدي.

– شيء مدهش... بيد من إذا؟!

– بيد الله، يا ابن التميي.

ظل يربوع يسير إلى جواره، متأخرًا بضع خطوات قليلة، يهتدي من ورائه على خطاه ويتبع نوره، وبدت له الصحراء نهاريًا، رغم أن الليل في أحلك أثوابه وأسود سواده.

أحيانًا يتوقف الصادق الأمين ليمسك بيده ويطمئن عليه، وأحيانًا يشير له أن يجترس من صخرة هنا أو عثرة هناك، وبدا الفتى مدهوشًا، كأن هذا الرجل الذي ينير الأجواء من حوله بوجهه النوراني الوضاء، يرى بألف عين وعين، يرى ما لا يراه المبصرون في هذا الليل العتوم.

ما عاد يربوع يحس بتعثر، كما لو أن دروب الصحراء، وتواءات صخورها، وحفر رمالها قد استتحت من هذا الرجل المبارك الذي يمشي- عليها

فبإركانها، ومن خلفه يربوع يمشي في ركابه بخطى وثيدة، ويحس أن هناك عيونًا تحرسه، وأنه محصن من الأذى، ولن يقدر أن ينال منه مخلوق.

سار وراء نوره، واهتدى بهديه مسافة طويلة، لكنه لم يشعر بالتعب، شيء غريب يحس به في هذا الرجل النوراني الذي نادى في القوم بأن الوحي يأتيه من السماء.

ظل التميمي مشغولاً بأمره، وشغوفاً به إلى نهاية المشوار، ولا يدري إلى أين يمضي ومتى سيتوقف في تلك الليلة، وأين يستقر في تلك الصحراء المترامية الأطراف؟!!

ألم يقل له: تمهل واصبر وسترى؟ ومع ذلك يبدو متلهفًا ليرى، ويعرف ماذا سيحدث، وأين سينتهي به المقام، وما الذي دفعه للخروج الآن، والناس نيام، والدنيا سكون وظلام، وتربصه عيون الأعداء؟!!

بعد مسير طويل غير يسير، صعدا الجبل، وعرجا ناحية اليمين قليلاً، ثم عرجا ناحية اليسار طويلاً، وأخيراً توقف وقال له:

— اسمع يا تميمي، سأدخل أنا هناك، ويمكن لك أن تنتظرني في مكانك هذا.

— ما هذا المكان، أيها الصادق الأمين؟!!

— إنه الغار.

— أيّ غارٍ هذا، أيها الصادق الأمين؟!

— يسمونه غار حراء.

نظر التيمي ودقق النظر حيث أشار له الأمين، ثم قال:

— إنه يشبه صومعة الكهان ومقر الرهبان.

تبسم الصادق الأمين وقال:

— لا رهينة في ديننا، يا يربوع.

— وماذا ستفعل داخل هذا المكان غير المأمون يا نبي الله؟ أخشى عليك من الأفاعي، وحشرات الليل، وكائنات الصحارى المؤذية.

— لا تخف... إن ربي يحميني، وبعينه التي لا تنام يحرسني من كل اللئام.

— وماذا ستفعل — أيها الحبيب — في هذا الغار المعتم وحدك؟ دعني أدخل معك لأكون مؤنسًا لوحدتك.

— لا تخف يا تيمي، إن الله مؤنسي، وجبريل سيأتيني بأمر الله.

— جبريل... من يكون جبريل هذا؟!

— مَلَكٌ من السماء.

— وما المانع أن أكون إلى جوارك بالداخل؟!

— لا... لن نحتمل.

— وماذا سيفعل معك جبريل؟!

— سيأتيني نبأ من السماء.

— يا إلهي... كم تعاني، أيها الصادق الأمين، من أجل أن تهدي الآخرين
سواء السبيل.

3 أغسطس

ديار بني عبس

5 قبل الهجرة / 618 م

كانت تشعر بُذُر مصائب مقبلة عليها، وهذه الليلة كانت كابوسًا ممتدًا. جاءها أبو كحيلة في منامها مقيد اليدين والقدمين، ومن حوله رجال ملثمون، وبأيديهم سيوف مشرعة في الهواء تبحث عن رؤوس تقطفها. وعندما استفاقت مفزوعة، استعادت حلمه القديم الذي حكاها لها، وبسببه ألحقوه بالدير خوفًا عليه.

قال لها ذات نهار وهما في الدير:

— قبل عدة سنوات من الآن، وفي ليلة حارة، سهرت قليلًا ألهو مع رفاقي، وعندما أوشك الليل أن ينتصف، دلفت إلى فراشي، وقد بدأ خدر النوم يتسلل إلى جسدي، ولا أدري كم مر من الوقت منذ استغرقت في النوم، ولكنني استيقظت مفزوعًا، وشعرت أنني أطير في

الفراغ، وجسدي يسقط مرتطمًا بالأرض. ثم فتحت عيني فوجدت أشباحًا في ثياب سوداء كالحلة تحيط بي من كل جانب، أيادٍ خشنة قوية تمتد نحوي تجذبني بعنف، وأخرى تغلق في. حاولت قدر جهدي أن أتخلص منها، صرخت عاليًا، لكن صرخاتي تلاشت في متاهات الصحراء، وضاع صوتي أشلاء ممزقة في الفضاء، ولا شيء سوى صوت الصدى.

سألته بوجه مدهوش:

— هل رأيت وجوه هؤلاء؟ من هم، ومن أي قوم؟!

تنهد بضيق، وقال بصوت مرتعش:

— لم أتبين وجوههم في العتمة، وبعضهم كان يغطي وجهه، وأحدهم وضع كمامة على فمي حتى لا أصرخ وأزعج خيام الصحراء، وكان هناك من يقيد يدي خلف ظهري حتى لا أقاوم هؤلاء الأشرار.

ثم سكت وبكى، فاحتضنته وهممت:

— لا تخف، يا أبا كحيلة... أكمل يا نور عيني... ماذا حدث بعد ذلك؟!

جفف دموعه، وقال بصوت جهوري:

— وجدت من يركلني بعنف في جنبي وظهري، صرخت بصوت مكتوم
محبوس خلف الكمامة، وحاولت جاهداً أن أدقق النظر في الوجوه
المظلمة التي تتكاثر حولي، عسى- أن أعرف هؤلاء ومن أي قبيلة هم،
دون جدوى.

— وماذا بعد يا أبا كحيلة؟!

— كانت الريح تصفر، والذئاب تعوي من بعيد، والليل معتم صامت
كالأخرس، ولكنني فوجئت بمن يضع عصا على رأسي ويقتادني إلى مكان
مجهول في جوف الجبل. تمت عملية الأسر بسرعة وعنف، وبأقل قدر من
المقاومة، كأنهم تدربوا على تلك العملية مئات المرات، وصاح أحدهم قائلاً
بنبرة حاسمة:

— خذوه... اقتلوه.

لكنني حاولت أن ألتصق بالأرض، وأثبت أقدامي في الرمال المتحركة بلا
جدوى، ودفعوني بخشونة وغلظة إلى خيمة تؤويني من هواء الليل،
وصفير الريح، وزمجرة الرمال، وعواء الذئاب، وقد قرروا بي شرًا، ورفع
أحدهم السيف عاليًا فوق رأسه، وهمّ بقتلي... ولم ينتقذي سوى
الاستيقاظ من نومي فرعًا أتخس عنقي.

آه... كيف نسيت هذا الكابوس المزعج الذي قصه عليها، وكيف تناسى هو ما رآه في نومه، وهو صبي صغير في براءته؟!

في الصباح، وعندما حطت الشمس رحالها على الديار، ونزعت عنها ثوبها الذهبي، وارتاحت على الأرض، خرجت سباح كالمنونة تسأل عن القافلة: لماذا تأخرت هكذا، ولماذا لم ترجع حتى الآن؟!

أخبروها أن لا أحد يعرف موعد عودة القوافل بالتحديد. استسلمت للأمر قسرًا، وماذا بيدها أن تفعل سوى الصبر الجميل؟ عسى- أن تمضي- الأمور بسلام، ويعود رجلها بخير.

وفي الليلة التالية، رأت الملمثين يجرون أبا كحيلة، وهو مربوط بمؤخرة حصان، فتحاول هي أن تمسك به وتفك وثاقه، وتنقذه من أثر الترحيف والتجريح المؤلم على رمال الصحراء وحصاها. حاولت قدر جهدها، دنت منه بصعوبة وكادت تمسك به، لكن الحصان الذي يجره تلقى ضربة قوية على ظهره من أحد الملمثين، فانطلق مهرولاً بعنفوان يسابق الريح، وما عادت سباح تستطيع اللحاق به مهما حاولت.

نقطعت أنفاسها، وخارت قواها، ولم تعرف إلى أي وجهة سيأخذونه، ثم رأت أنهم ذهبوا به بالقرب من بئر واسعة فيها ماء عذب، وعندما دنت منها أكثر لترى، سرعان ما تحوّل هذا البئر إلى صحراء صفراء لا نهائية!

وسقطت هي على الأرض من الخوف عليه، ومن شدة الإعياء، ومطاردة هؤلاء المثلثين، لكنها تمالكت نفسها واستجمعت قواها المنهكة، وصرخت نحوهم بجراة وشجاعة تحسد عليها، واندفعت نحو كبيرهم الذي هو أمرهم، ولطمته لكمة قوية على وجهه المثلث. ونجأة صرخت في رعب حين رأت عيني الرجل تتحولان - في لمح البصر - إلى جمرتين من نار.

ها هي تراجع قليلاً إلى الوراء، وتبتعد عن مرمى نيران عينيه، ثم تلتقط بيدها جريدة من سعف النخيل بحجم نخلة كبيرة، وعادت إليه تتقدم نحوه وتدفعه في صدره بسعف النخلة، لكن الرجل المثلث تعملق، وصار ضخماً فوق العادة، أعلى من نخلة وأضخم من ديناصور، فأمسك بها وضغط عليها بقوة من أعلى رأسها، فطمرها في الأرض اللينة التي تحت قدميها.

وقبل أن تبتلعها الأرض تماماً، ويختفي رأسها كله في الرمال الغائرة، طفرت الدموع من عينها، وكانت تلهث بصعوبة عاجزة عن التنفس. فجأة ظهر فارس بملابس بيضاء ناصعة في عتمة الليل من فوق حصانه الأشهب، شاهراً سيفه في الهواء، ثم ضرب رؤوسهم جميعاً، والتقطها بيده حيث

رفعها خلفه على حصانه، وطار بها إلى الديار، وكأن القبيلة كلها ما كانت تنتظر إلا دموعها لتعود إلى سيرتها الأولى.

حدقت النظر في وجه الفارس الشجاع الذي ضرب أعناق المثلثين وألقدها من بين أيديهم، فرأته يربوع. عندئذ صاحت:

— يا أخي... ألقذ أبا كحيلة... إنه هناك مقيد اليدين والقدمين بين قبضتهم.

التفت إليها ولم ينطق، بدا جاداً متجهماً، ناصع الوجه، مشرق القسمات، يرفل في ثياب بيضاء، كأنه ملاك هبط من السماء، وسرعان ما يعود من حيث أتى. لم يلتفت خلفه بعد ذلك، ولم يسمع لها كلاماً، ولم يرد لها جواباً، بينما ظلت هي تبكي وتتوسل:

— زوجي أبو كحيلة... أرجوك، إنه زوجي... لا تتركه هكذا.

وعندما حل النهار على الديار، عادت كالمهووسة تتابع بشغف أنباء القافلة وتتقصى أخبارها، لكن لا شيء يُذكر، فالناس يشعرون بأن الأمر اعتيادي، وتأخر القوافل شيء عادي لا يدعو إلى كل هذا القلق.

إن الصحراء ليس لها موعد، والأسواق عرض وطلب، والبلاد بعيدة تستغرق أياماً في السفر، وبعض النسوة الخبيرات المجربات سخرن منها فيما

بينهن، وتندرن عليها خلسة باعتبارها زوجة جديدة لا تطيق فراق رجلها، وتلك هي المرة الأولى التي يفارقها زوجها، خاصة بعد أن اعتادت عليه في أيام زواجهما الأولى، والعادة أقوى من الحب!

لم يعرن قلقها وكثرة سؤالها وعظيم حيرتها اهتمامًا كافيًا، وحسبها مجرد أنثى شغوفة بزوجها ومشتاقة إليه، ولا تستطيع مع فراقه صبرًا، ولم يعرن حلمها ولا بصيرتها النافذة أدنى مبالاة، لكن بعضهن رفقن بحالها وتلطفن معها ومسحن عليها بألفة، وأكدن لها أن الغائب دومًا معه حجتة، ولا شيء في أيديهن سوى الصبر، قريبًا تأتي البشائر الطيبة، وكثيرًا ما يسافر الرجال ويرتحلون ثم يعودون سالمين غانمين.

برغم كل ذلك، ظل قلبها مضطربًا، وهو بوصلتها، ورؤياها كانت مؤشرها، وحلم أبو كحيلة القديم كان يصب الزيت على النار ويشعل فتيل هواجسها المرعبة، حتى مرت الأيام بطيئة متثاقلة، وجاءت الأخبار السيئة.

إن القافلة المنكوبة تعرضت لعملية سطو مسلح على يد جماعة آثمة من قطاع الطرق ولصوص القوافل أثناء عودتها إلى الديار، فقتلوا منهم من قتلوا وسرقوا الأموال.

انخلع قلب سباج من مكانه، وعادت القافلة بنصف رجالها في حالة يُرثى لها، جرحى في ثياب ممزقة ووجوه حزينة مغبرة، رؤوسهم منكسة، وشعورهم مهووشة، والدواب تحمل القتلى والجرحى، كأنهم عادوا من معركة كبيرة بخسائر فادحة. إن فقد الرجال لا يُعوّض بالمال، وقد فقدوا الرجال والمال أيضًا.

ولم يكن أبو كحيلة من بين الناجين، عاد قتيلاً فوق دابته، فلطمت وجهها، وشقت ثوبها، وأهالت التراب فوق رأسها، وهي تصرخ ملتاعة من هول الصدمة، وتحتضن حبيبها المسجى بين يديها، والدم يلوث كل ثيابه المتهترئة، وقد تلقى عدة طعنات في بطنه.

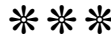
منذ تلك اللحظة، صارت سباج أرملة مبكرًا، وتعالّت صرخاتها تشق السماء، وتعلو فوق رؤوس النخيل، وتهز جدران الديار، وتطيح بأعمدة الخيام، والقلوب ترثي زوجها الذي ما يزال بثياب عرسه في أول رحلة له مع القافلة بعد الزفاف.

هتفت سباج تستجدي الرجال:

— الثأر... الثأر... واحسرتاه.

لكن من الثأر، وكيف السبيل إليه؟ وقطاع الطرق لا عنوان ولا أسماء لهم، ولا وجوه تدل عليهم، إنهم أشباح مقنّعة، وجوههم متشابهة، يتحركون كالرياح، فكيف يكون الثأر من الأشباح، لصوص الأرواح؟ كيف الثأر من الرياح؟!

ظلت تبكي حسرة، تبكي فقد زوجها، ووهن جسدها، وضعف إرادتها، وقلة حيلتها، وتأمل وجه أبو كحيلة، فتختلط عليها مشاعرها بين حرقه قلبها وعجزها عن الانتقام، بينما يتناهى إليها طنين رجال القبيلة بهمهمات كأزيز الجراد، يواسون بعضهم بعضًا بانكسار، وتسمع صرخات النساء من حولها وولولاتهن على رجالهن... إنه الفراق الفظيع الذي يحرق أكباد الجميع.



4 فبراير

ديار بني عبس

4 قبل الهجرة / 619 م

بدا حزنها عظيمًا مثل الجبل الرواسي، شاهقًا سامقًا مثل نخلة عتيقة،
جذورها في الأرض ورأسها في السماء، وظل راسخًا في وجدانها رسوخ
دير الكاهنة بنت رثاء في أقاصي الصحراء. لا شيء يولد عملاقًا سوى
الحزن، لكن دورة الأيام وقفزاتها المنتظمة إلى الأمام كفيلة بأن تأخذ من
الحزن وتزيل من تلاله، ولا شيء يضمّد جراحات الفقد سوى الزمن.

ولا شيء يفوق حزن الأرملة على زوجها، ولو كانت تحبه حب سباح
التميمة لأبي كحيلة العبسي، لصارت المأساة أعظم، وجبل الحزن أكبر.

تنتابها أحاسيس رهيبة ليس لها مثيل، ولا تدركها سوى الأرملة ذاتها، أو
أرملة مثلها.

مضت ستة أشهر على فراق زوجها، وليلها نهار ونهارها ليل، وفراشها خالٍ من رائحة فتاها، وشريك أحلامها، ورفيق ليلها، وعاشقها المتيم... فكيف لها أن تستمر على هذا الحال؟!

فكرت كثيرًا في ليلها الطويلة، وهي وحيدة مؤرقة مسهّدة، يعذبها الحنين، ويكاد يقتلها الشوق الممزوج بالأنين. ماذا ستفعل، وكيف تعيش بدون الرجل الذي أحبته بجنون وسكن شرايينها؟!

لكن الموت لا يعترف بالحب، ولا يأسى لحال المحبين، إنه لقاهر، وعدوّ ماهر، يأخذ ولا يعطي ما أخذ، يباغت ويغدر دون أن يأسف أو يعتذر. له جبروت كأنه طاغوت، لا يبالي إذا أراد روحًا فيسحبها من الجسد بإشارة من يده، ولا يهتم كثيرًا إذا كان قد ترك وراء فعلته أرملة مكلومة، أو أمًا شكلى، أو أطفالًا يتامى... لا يهم، لا شيء يهم.

إن أمره لنافذ، وسره لبّاع، ولم يفهم سره أو يعرف كبه بشر.. مستبد لا يُبقي ولا يذر!

هداها عقلها الرزين وفكرها العميق إلى أنه لم يعد لها حياة في ديار بني عبس، فكل شيء حولها يشي بفجيعتها في زوجها الحبيب.

وفي كل ركن ترى وجهه، وتطالع مواقفه وكلماته وضحكاته، تستعيده من
قبره بلحمه ودمه، وخفة ظله، وقلبه المرهف، فتتألم وتحترق بنار الفراق.
فما جدوى البقاء في مكان لم يعد له فيه أثر، سوى طيف عابر وأثر شبح
سائر؟!!

لقد آن الأوان لمغادرة الديار، وكفى ما بها من ألم لا يُحتمل، فلا شيء هنا
يعوضها عما ضاع منها.

استصغرت الدنيا كلها، وزهدت في مجدها، وفكرت في أن تقتل نفسها
لتلحق به وترتاح، لكنها أدركت أنها لا تملك شجاعة الانتحار. رأت الدنيا
ظلامًا، والناس بلا قيمة، وأدركت أنها فقدت جوهريها الثمين، ولا سبيل
لاستعادتها مرة أخرى.

تمنت أن تُرزق منه بولد - من أول ليلة - يشبه تمامًا، لكن هذا لم
يحدث، ومضت الأيام، وعمر زواجهما القصير لم يحقق لها الأمل المنشود،
ولم يهلهما القدر لإنجاب الولد.

ضاع كل شيء، وتبدد الأمل في غمضة عين، هكذا الدنيا تعطي في لحظة
كل شيء، وتأخذ في لحظة كل شيء!

أحست أنها تحتاج إلى صلاة الموقى الآن؛ لأنها بالفعل صارت جسداً بلا روح، وروحاً بلا جسد... تنهدت بحرقة، وهتفت:

— يا إلهي... أنا الآن من الأموات، فأين صلاة الموقى يا كاهنة بني رثام؟! أين أنت الآن أيتها المرأة العجوز، لماذا لا تأتين إلى هنا لتأخذيني، وتصلي عليّ صلاة الموقى؟!!

آه... يا زبراء يا بنت رثام... ها أنا ذا صرت أستحقها اليوم، فلم يعد لي من الحياة سوى أنفاس تتردد في صدري، أنا ميتة — بين الأحياء — تمشي- على قدمين، أنا قبر يتحرك كيفما شاء.

عندئذ تسكت عن الهذيان، وتهال دموعها أمطاراً غزيرة، وصورة أبي كحيلة ونبل أخلاقه وابتسامته العذبة لا تفارق مقلتيها، لا شيء سوى صور، صارت حياتها كلها صوراً من ألبوم ذكريات محفور في الفؤاد، ومنقوش بتفاصيله الصغيرة على جدران الذاكرة.

تحرص من حين لآخر على أن تتردد على قبره، وتبكي بكاءً مريئاً حتى تتحول العينان السوداوان الواسعتان الأسرتان إلى جمرتين متقدتين، وبعد فترة وجيزة أدركت أنه لا شيء يجدي، ولم يبقَ لها سوى الحسرة والألم.

لا الذكريات، ولا الزيارات، ولا استحضار الماضي سيعيد الضائع أو يرد الغائب، إن المصيبة كبيرة لا تقدر على حملها وحدها، ولو ظلت هكذا تعيش في داره وتنام وحدها في فراشه، سيضر بها الجنون، وربما تموت كمداً وحسرة عليه وتلحق به.

ذات يوم أرسلت إلى أمها وإخوتها تسألهم أن يأتوا ليأخذوها، ويعيدوها إلى دارها، لتبقى بين أهلها وقومها في بني تميم، وعلى مقربة من أخوالها في بني تغلب؛ عساها تغالب مصيبتها، وتتغلب على أحزانها، وتنجو من مصير أسود.

بعد أيام معدودات جاء حنظلة ومعه وزان، وعقфан، وبرفقتهم نفر من أبناء القبيلة وأبناء الأخوال، وحملوها بشيء قليل من متاعها على رواحلهم، وها هي الملكة التي كانت محمولة إلى عرشها قبل أسابيع قليلة إلى ديار بني عبس، تعود مرة أخرى إلى مسقط الرأس في ديار بني تميم، مكسورة الخاطر، مهزومة القلب، منكسة الرأس، تحمل جبلاً من الأسى والقهر، مكلفة بالسواد والدموع الحارقة. لا شيء يبقى... كله عدم، فلماذا الندم؟!

عادت القديسة - كما تحب أمها أن تطلق عليها - ومعها قليل من متاعها، ولم تكن بعد خسارتها الفادحة في حبيب عمرها في حاجة إلى شيء، كل شيء في نظرها رخيص، تراب في تراب، عدم في عدم.

إن مرآة الحزن ظالمة، ظلم الصحراء للإبل، تجعل صاحبها لا يرى سوى السواد، وتضع الذهب في ميزان واحد يعادل التراب.

استقبلوها في ديار بني تغلب وبني تميم بالترحاب والأشواق، والأحضان والحنان... رجال القبيلة ونسائها كانوا لها مثل البلسم الشافي على الجرح المستعصي، منحوها جرعة كبيرة من الصبر ممزوجة بشيء من الأمل.

ربما تبدأ الحياة من جديد... من يدري، ولمَ لا؟! والشمس تشرق كل يوم، ويتجدد النهار والليل؟!

فلو كانت الحياة مستحيلة بعد رحيل الأحباب، لما مات الناس جميعًا في يوم واحد، وانتهى أمر البشر من على وجه الأرض.

لا تدري لماذا في هذه الأيام تراودها نفسها بالحنين في العودة إلى الدير، والذهاب إلى الكهنة الزبراء من جديد، كأنها قدرها المقدور، ربما تكون تلك العجوز الضامرة هي الملجأ الآمن، والملاذ الأخير للفرار من مصيبة فقد الحبيب، والترمل في عز الشباب.

إنها مصيبة لا قبل لها باحتمالها، ما أقسى- أيام وليالي الأرملة، تتلظى في
سعير الجحيم، وتموت كل ليلة ألف مرة بالحياة، وتظن أن وأدها وهي
صغيرة كان أرحم لها مما هي فيه الآن... ما أقساها من حياة تتعذب بها
النساء وهن كالورود عندما تنطفئ!



8 مارس

شوارع مكة

3 قبل الهجرة / 620 م

(سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، هو الباقي وحده سبحانه، عندما تحين ساعة الزوال، وهو القائم عندما يُنفخ في الصور، وهو النور السرمدي بعد أن يدخل الكون في ظلمة المحاق.)
بهذه الكلمات يبدأ يربوع يومه في شوارع مكة ودروبها المحببة إلى قلبه، ببطء شديد تناسب الكلمات من بين شفثيه بخشوع جميل، تتحسس طريق البداية والهداية بعد أن عانى من الضلال المبين، يسعى لإعادة التكوين دون ضلال أو فساد في الأرض.

في ذلك الصباح الرمادي، انخرط يربوع مع نخبة من الذين آمنوا بالصادق الأمين، وصدقوا رسالته، وكتبوا أمرهم، ثم جهرُوا به بعد حين، ونالهم من

الأذى ما نال الرسول الكريم حامل رسالة السماء إلى مكة ومنها إلى العالمين.

لكن يربوع - مثل الآخرين - اعتصم بجبل الإيمان، وتمسك بما آتاه الله من فضله دون غيره، وفي مقدمتهم إخوته، وتمنى أن يلحقوا به في طريق الهدى.

ظل صامدًا منتصبًا بقامته كالنخيل العالي، صابرًا محتسبًا كغيره من هؤلاء النفر الذين صاروا كمصابيح يضيئون الطريق للآخرين من بعدهم، وبدا مسرورًا بحاله، راضيًا مرضيًا، معتزًا بشرف السبق في مضمار هذا الدين الجديد الذي قلب حياة الناس في مكة رأسًا على عقب.

لأول مرة في حياته يحس أنه لا يبالي بالأخطار المحدقة من كل النواحي، لا يأبه بتهديدات سادة قريش وسفهاءها بقتله، وإعادته إلى بني تميم جثة هامدة، وظل ينتظر أن يقتلوه فينال شرف الشهادة، ويحظى بجنة النعيم، لكنهم لم يفعلوا.

وذات نهار حار قال له أحدهم، ويدعى شيبعة:

- ما بال ابن التميمي يأتي ليقيم على أطراف مكة في خيمة، ويترك دياره وقومه من أجل أكذوبة!

رد عليه قائلاً:

— والله إنه لمن الصادقين، وإنكم لمن الكاذبين.

قال شيبة مهدداً ومتوعداً:

— لسوف تقتل صاحبك الذي غواك بسحره، وستعود إلى ديارك
مخدولاً.

قال يربوع:

— اقتلوني بدلاً منه لو أردتم..

قهقه الرجل بغطرسة:

— لا حاجة لنا بقتلك، نحن لا نقتل الغرباء طالما لم يعتدوا علينا، وحينما
نقطع رأس صاحبك، ستشعر بالفزع الأكبر على رأسك التي فوق كتفيك،
وربما تموت وحدك، أو تهرول عائداً إلى ديارك حافي القدمين في الصحراء
اللاهبة، وربما تنسى ناقتك من شدة الهلع.

بحزم وعزم وإصرار:

– أظن أننا وصحابة الصادق الأمين سنترك لكم الأمر مستباحًا هكذا
لتنالوا من أشرف إنسان على الأرض مشى؟!

ضحك شبيه بصوت ساخر نشاز:

– أكبر القوم يدبرون – الآن – الأمر في دار الندوة، ونهاية صاحبك
حتمية.

– لن نسمح لكم.

عاد يقهقه بضحكات هستيرية:

– وما أنتم إلا شرذمة قليلون، لا حول لكم ولا قوة.

بدا الخوف يرتسم على وجه يربوع، وفكر في أن يسارع ويخبر الصحابة
بالأمر، لكنه تمهل قليلاً... ثم قال:

– إن الله يعصمه من الظالمين.

محظت عينا الرجل، وأطل منها شرر عجيب، وصاح بغیظ غير مكظوم:

– لا منعة لأحد من سيوف القوم المسنونة، وصناديدها الأشاوس،
ولسوف يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل.

— هذا ظنكم، والله مخيبه، إن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ولسوف تخيب مؤامراتكم، وترتد سهامكم إلى نحوركم.

— كيف لراعي الغنم هذا أن يسود مكة؟!

— هذا نبي الله، جاءكم بالهدى، وهو منكم وأنتم منه، كيف لا تصدقوه وأنتم الذين أطلقتم عليه الصادق الأمين؟! كان الأولى بكم أن تفرحوا به وتفاخروا؛ لأنه جلب لكم الشرف العظيم.

— ما هذا بشرف، يا رجل... من يسفه أحلامنا، وينفر الناس من آلهتنا وآلهة آبائنا، ويحرض علينا عبيدنا، ويفرق بين المرء وزوجه، لا يستحق منا سوى القتل... ولسوف تفعل، وأثق أن سادة قريش لن يغمض لهم جفن، ولن ينام لهم رمش حتى يقضى- على هذا الساحر الذي جاءنا بكلام مسجوع مثل الكهان وينتظر أن نصدقه.

— والله إنكم لفي ضلال مبين، وإنكم لهذا الأمين لظالمون، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون، وستندمون يوم لا ينفع الندم، أيها المشركون.
غمغم شيبه بحقد:

— لن يندم سوى أنت وصاحبك وزمرته.

سأله يربوع بهدوء:

— ألم يكن وليدًا بينكم، وتربى في ديار مكة وشوارعها ودروبها أمامكم، ولم تعرفوا عنه منكرًا طوال عمره، ووصفتوه بالصادق الأمين، وارتضيتُم بحكمه حين تنازعتُم بشأن من منكم ينال شرف رفع الحجر الأسود عند الكعبة؟!!

اتقوا الله، وعودوا إلى صوابكم، تنالوا أجر الدنيا وثواب الآخرة.

باستهجان وتذمر قال شيبة:

— أي آخرة، أيها التميمي المسحور؟! ليس بعد الموت آخرة، ولا بعث كما يزعم صاحبك، إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيّاها وكفى، كما كان حال آبائنا من قبلنا.

— خستُم وضللتم، والله خاب مسعّام، وحاربتُم نبّيكم وأمينكم، أشرف من مشى على تراب مكة.

عندئذ تجمهر حفنة من الناس، وبينهم بعض السفهاء، فأشار لهم شيبة — بعد أن تملكه الغيظ — أن ينگّلوا يربوع، فهجموا عليه وتحلقوا حوله، وضربوه ضربًا مبرحًا حتى سال الدم من وجهه، وتكوّم على الأرض تحت أقدامهم، والأيدي والأرجل لا تتوقف عن لكمه وركله، حتى رآه الصديق

أبو بكر بن قحافة، ومعه عبادة بن الصامت ونفر من الصحابة، فاندفع نحو
الجموع محاولاً منعهم عنه بجسده ويديه، وهو يصيح فيهم:

— توقفوا... كفّوا أيديكم، هذا رجل غريب عن ديارنا، فكيف تتعرضون
له بالأذى؟! وما بالكم تضربون رجلاً يقول: ربي الله؟!

ثم تلا قول الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [سورة فصلت: الآية
34].

عندئذ توقفوا مدهوشين، ولاذوا بالصمت المبين، ثم انصرفوا غاضبين،
وفي أعينهم الشماتة والغل.

2 أبريل

ديار تميم / دير الزبراء

3 قبل الهجرة / 620 م

في تلك الليلة، لم ينهض القمر بعدُ من نومه في الأفق البعيد، كان الوقت شتاءً، والليل قد جاوز منتصفه، وديار بني تميم المطلة على الصحراء من ناحية، وعلى النهر من ناحية أخرى، قد هجعت بكل ما فيها، حتى الطيور في الأعشاش، والمواشي في الحظائر، استسلمت لنعاسٍ لطيف.

إن الليل شديد السكون بدرجة مخيفة، يُحرِّك الغرائز، ويثير الرغبات، ويُهَيِّج الخوف في نفوس المنفردين به، وهناك، في مكانٍ ما فوق تَبْةٍ عالية، بالقرب من الديار، ينبح أحد الكلاب الساهرة، كأنه يرى في الظلام بعيني زرقاء اليامة، يرى ما لا يراه النيام في الأحلام!

وخيالٌ سباح الجامح يُصوِّر لها أن في الصحراء القرية ذئبًا متوحشًا يعوي... كانت تبدو جميلة، حتى وهي حزينَةٌ مهمومة، وفي دقة ملاحظتها

بساطةً بدويّةً طبيعيّة ممزوجة بتقاسيم فرعونية، وأنفها المرفوع لأعلى -
كأنف نفرتيتي - يزيدنها شموخًا وكبرياءً، ووهج الأنوثة بسحرها يزيدنها
بهاءً، امرأة كاملة النضج، لكنها أرملة مكلومة.

في الليلة الأولى لفراقه الأخير، تحس سباح أن أبا كحيلة ما زال موجودًا
معها في كل ركنٍ وكل زاوية، يشاركها كل فكرة، وكل ظن، وكل حلم،
تحس بأنفاسه قريبةً من وجهها، وتكاد تشعر بيده الحانية الخشنة تلامس
بحبّ كل خلاياها، وصوته الهامس الهادئ الرزين يتردد في وجدانها وعلى
مسامعها، ليدخل قلبها ويبقى في مكانه لا يرحله.

إن الشيء الوحيد الذي صدقت فيه نبوءات كهنة الفراعنة القدماء هو
نبوءاتهم عما بعد الموت؛ عرفت منهم أن الروح تظل حائرة، وتحوم حول
المكان الذي عاشت فيه بعد الرحيل عن الجسد حوالي أربعين يومًا، لذلك
يظل الحزن والسواد مع أهل الدار أربعين يومًا، وفاءً للروح التي تأبى أن
تغادر كما غادر الجسد، وترى كل ما كانت تراه، وتحس بكل ما كانت
تحسه قبل أن تفارق صاحبها إلى الأبد.

وبالفعل، كان هناك أبو كحيلة في الدار، ما زال موجودًا بروحه قريبًا
منها، وهي تشعر به يزفر زفرةً طويلة، كتنهيدة ارتياح من زوال تعبٍ لا
يطاق، وتراه يرتقي لأعلى، ويرتفع بخفةٍ تفوق خفته ورشاقتة وبراعته، وهو

يصعد جبالها وهضابها وسهولها، ويلهو في مروجها وبساتينها في كل الأيام والليالي، يقطف من ثمارها ما يشاء، وقتما يشاء، في خلوتها الغراء.

تراه بعين الخيال، يتسامى ويعلو مثل ريشة حرة في الفضاء، لا يحدها حدّ، ولا يردها قيد، ويكتفي بمراقبتها، ويطمئن عليها قبل أن يستقر في قبرٍ مشؤوم إلى أبد الآبدين.

يا ليت الناس يتعلمون من كهنة آمون فن التحنيط... هذا ما دار في نفسها، وإن أرادت لروحها التي تسكن زوجها أن تبقى معها، وحتى لا تحس كما تحس الآن بنارٍ لا تطفئ، وبأنه ذهب بعيدًا جدًّا إلى عالمٍ آخر، ليس وحده، بل أخذ معه روحها، وتركها هاهنا تتحرك وتنفس كأنها من الأحياء، وهي ليست كذلك، إنما تسعى بين الناس بلا روح!

ما أقساه من إحساس حين يغيب عنك أعز الناس، ويسلب روحك معه، ويتركك تقاسي الويل وحدك في غياهب الحياة.

سيطرت الوحشة وعمّة الفراق على نفسها، وليس الأصل في النفس البشرية أن تكون موحشة أو خالية من الإنسان؛ لأنها كالدار، لا تُبنى إلا لئسكن، وإذا خلت خربت، وإذا خربت انهدمت.

إن النفس المنعزلة المكلومة فطرت على الاتصال والتواصل، ثم لأمرٍ ما مؤلم تضيق بالصلات والاتصالات، فتنعزل وتعتزل الناس، وتتوقف عن الأخذ والعطاء كباقي ساكني الديار.

ها هي تسعى للعودة إلى العزلة في الدير مجددًا.

لقد كانت – قبل تلك المحنة التي دفعتها للعزلة – أكثر ما تكون اتصالًا بالحياة، وانسجامًا معها، واستمتاعًا بمباهجها القليلة مهما كثرت.

أما أن تُخلق النفس البشرية موحشةً خالية، فذلك قليل، ومع هذا فإنها تبقى صالحةً للاتصال، تحيا به وله، مثلها مثل الكهف، يُخلق في الجبل ما جوفه أحد، لكنه يقبل السكن فيه، وظلمته يمكن إزالتها بشيءٍ من الضوء.

في الليالي الأولى التي مرت عليها، بعد أن صارت أرملةً وفقدت أليفها وشريك لياليها، ظل النوم يحاكيها، وليس لها شريك في تلك الليالي الموحشة سوى الخيال، ويكون فيها الخيال خصبًا، يرمح بها في كل اتجاه كالبعير الهائج المجهوح.

لأول مرة تواجه سباح قسوة الوحدة في غرفة نومها، وتطل من نافذتها على الفضاء البعيد، ثم تمد بصرها في الليالي الشتوية الطويلة، وترى

الأحداث كلها ببصيرة نافذة، وتستعيد كل الذكريات مع رفيق دربها في الحياة.

وفي الليل تطير بروحها فوق بساط الفكر، في الماضي والحاضر والمستقبل الغامض، وإذا كان القمر حاضرًا في صدر السماء، يرسل أشعته الفضية إلى الكون فيغمره بالمزيد من الغموض، فلا بأس من أن تشاركه ليله وغموضه.

لا تفارق صورته خيالها... تبكي وتتألم... إن من حق الميت على الحي أن يدعو له بالرحمة دائمًا، أما هي الآن ففي عسرة من أمرها، وتحتاج إلى من يدعو لها أن تتخطى عسرتها، وتنجو من محنتها الكبرى.

في عتمة الليل، وقبل الفجر بقليل، يصرخ ذئب من بعيد، يشق بعوائه صمت السكون، ويدوي مستغيثًا في الأفق، كأنه جائع أو محروم، وتلتقط مسامعها استغاثة كلاب ضالة تطوف حول الديار، وتنبح ثم تنبح، ولا أحد يدري إن كانت تلك الكلاب تحرس الديار، أم تخيفها في ذلك الوقت الخيف وتعوي مثل الذئاب؟!

أحيانًا تمتدح النسيان؛ لأنه نعمة عظيمة للإنسان، وأحيانًا تلغنه؛ لأنه نقمة كبرى، تريد أن تتجاوز مرض الحنين إلى الحبيب الراقد في قبره، وتمحو

كل ما في الذاكرة، وإن كنت في حاجة ماسة إلى إحياء الماضي بشخصه وأحداثه، بعد أن شعرت بالعدم يسود وجدانها، والكآبة تسكن غرفة نومها... تبدو مثل مومياء محنطة في متحف هذا الرجل الذي غادرها مبكرًا!

لن تسمح له أبدًا أن يحنطها هنا، لن يحنط حياتها ومستقبلها، لم تعد تعجبها هذه الحياة، لا تحب أن تكون مومياء محنطة في قصر-الفرعون، لا تحب أن يتجمد الدم في عروق أيامها، تريد بدايةً جديدة لحياة مختلفة، تريد حبًا جديدًا، ولا مانع من حب جديد قديم، لا تحب أن يطول الصداق قلبها على الإطلاق.

أحست التمية بالراحة والاستقرار عندما أخذت القرار، وشعرت أنها سيدة الموقف وسيدة أمرها، وأن حزنها تبدد وتلاشى، وصارت جامدة الحس، باردة الأعصاب، كأنها كانت في سفرٍ طويل بعيد وانتهى، لم يعد يعينها أي شيء... المهم أن تتعم بالتغيير في أرض باردة مثل أعصابها.

ليس أمامها سوى العودة إلى الدير، لكن هل تقبلها الزبراء من جديد، أم تلفظها كما لفظتها من قبل؟!

لقد زال السبب ومات الفتى، فلا تظن أن خالته كاهنة بني رثام
ستخذلها، وهي أرملة مكسورة القلب، مهيضة الجناح، مجردة من كل
سلاح.

إن الشمس تشرق وتغرب، والليل يكر ويفر في أثر النهار، والنهار يفعل
ذلك أيضًا إثر الليل، وهي لا تأبه بالليل ولا بالنهار، وتظل الشمس
تشرق وتغرب كما تشاء، إنها تكره الشمس؛ لأنها جامدة قاسية، ترقب
مآسي البشر بلا حس ولا خبر... تبًا للشمس، وعجبًا لها!

في الليل تنتابها ذكريات أليمة، كما تنتابها رغبات متوحشة أيضًا... إن
الوحدة شبح قاتل... لكن هل يستطيع الزمن بكل جبروته وعنفوانه أن
يداوي ألمها، ويغير حياتها، ويمنحها الأمل؟!

بعد أن زالت حرارة الشمس، وانسحبت إلى أطراف السماء الملامسة
لجريد النخل العالي الذي يحيط بالعزبة إحاطة السوار بالمعصم، انطلقت
براحتها، تعرف طريقها القديم إلى الدير العتيق الذي أنفتحت فيه معظم
سنين عمرها.

وعندما حطت رحالها في الدير، بكت، وقالت للزبراء:

– مات أبو كحيله... أخذوه مني غدراً وغيلة، وما عدت قادرة على الحياة بدونه، فلجأت إليك هاهنا، عسى أن يتسع لي المكان مرة أخرى.

همهمت الزبراء:

– كنتِ تريدين الزواج فتزوجتِ، والآن تغيرت الحياة وأنتِ أيضاً، هل كان الزواج ضرورةً حتمية؟!

قالت سباح من بين دموعها:

– إن الزواج أجمل تذكّر للحب... الزواج غزوٌ وإخضاعٌ متبادل بين طرفين، ودائماً يدفعنا جملنا وعواطفنا الجياشة إلى اللجوء للزواج، بوصفه العقار الوحيد المهدئ للاحتراق الذاتي للإنسان.

حدقت الكاهنة فيها، وقالت بأسى:

– الغزاء في أبي كحيله لك ولنا... خسارة كبيرة... كنت أتمنى أن تبقى في الدير، ولا تغادره مطلقاً، لكن حدث ما حدث.

تهتدت سباح، وهمست بحسرة:

– ينتابني الخوف من كل شيء الآن، وبماذا يفيدنا الحذر؟! هل كان بمقدوره أن يمنع القدر؟!

بصوتها الأَجَش الحشن، قالت الكاهنة:

– يا بنت التميي، إن الحذر لا يرد القدر، فلا تجعلِي هواجس الخوف
نفسها تفسد علينا لحظة العمر التي حلمنا بها كثيرًا، ولا تشغلي بالك،
فالملكتوب سيجري علينا، سواء كنا خائفين أو كنا حذرين غير خائفين.

اسمحي لقلبك أن يصفو اليوم، ولا تعكري عليه... إن مئات الأشكال من
المخاوف تختبئ في زوايا مظلمة من نفوسنا، لتنقض علينا مرةً واحدة في
النهاية... علينا ألا نتعمد استحضار شر القدر المستور عن عيوننا.

– يبدو أن السعادة سراب يحسبه الظمآن ماءً، يا أمنا الكاهنة.

– يا سجاح، اعلمي أن من يبحث في ذاته عن السعادة سيجدها تختبئ
تحت جلده، ومن يبحث عن التعاسة سوف يستحضرها من أعماقه،
ويأتي بها من مخابئها الدفينة المعتمة.

إن المال لا يجلب الحب والسعادة، والقلب له أحكام، كما أن الحب له
شريعة غير شريعة التجارة ومبدأ المكسب والخسارة.

قالت سجاح:

– كنت أتمنى أن يعيش أبو كحيله، حتى لو مع امرأة غيري، ولا يختطفه الموت مني بغتةً هكذا.

بحنكة السنين، قالت الكاهنة العجوز:

– قد يعرف الرجل امرأةً واحدة، وقد يعرف عشر- نساء، وربما يعرف ألف امرأة... لهن نهود ملفوفة كالنفاح الناضج، ولهن أخفاذ ممدودة كالرخام الأملس... بعضهن يتركن غلالة من الغيوم مثل شبورة الفجر، وبعضهن يتركن الرجل جثةً هامدة ميوؤسًا منها من أثر الغرام، ويعذبن العين بحضورٍ قوي.

ولأن زوجك كان من فصيلة الرومانسيين في الحب وشؤونه وشجونته، كانت نهايته على مقصلة الرومانسية السوداء المفرطة.

– يا أمنا الراهبة، ألتمس العودة للدير، فما رأيك؟!

– لا يا سباح... إن البنات ذريعة إبليس الخبيث... هذا قول والدك الحارث التميمي... لم يعد لك مكان في الدير، وليس هو المكان المناسب للأرملة، فإذا كان النهر لا يغير مجراه أبدًا، والتاريخ لا يغير مساره طوعًا أو كرهًا، فإن أرملةً مثلك لا تسكن الدير أبدًا.

دهشت سباح، وسألته بلهفة:

– أرجوكِ لا تخذليني يا أمّنا... ماذا أفعل لو لم تقبليني هنا؟!

قالت الزبراء بقلبٍ من حديد:

– عليكِ بالصبر... والعودة للحياة... إن مهر المرأة الجميلة في وجهها... تلك حقيقة مؤكدة، سحركِ وجمالكِ الفتان سيفتح لكِ قلوب وعيون كل الرجال، لكن هل ترضين عن أبي كحيلة بديلاً؟!

– لا... أيتها الكاهنة، أريد أن أعيش كراهبة.

تبسمت ساخرة، وقالت:

– الآن تعيشين راهبة، بعد أن تخليتِ عن ثياب الرهبة بفعلتكِ المشينة؟!

بتوسلٍ واستجداء، قالت سباح:

– أرجوكِ اقبليني في الدير، ولسوف ألتزم بالطهر والعفاف...

أنا الآن فقدت نصفِي الآخر... أنا الآن أرملة... إذن أنا أناألم.

أنا امرأة أبكي من جرح شوكةٍ صغيرة تمس جلدي الشفيف.

أنا امرأة أقف في وجه إعصارٍ قد يقتلع قلبي الضعيف.

أتألم حين أرى الشفقة في أعين الذين جاءوا لعزائي.
أتألم حين أرى نظراتٍ وحة في عيون الرجال النشامي.
أتألم حين تباعد الصديقات عني خوفًا على أزواجهن مني.
أرجوك اقبليني في الدير.

— لا يا سباح... عودي إلى ديار قومك، والتزمي الصبر.
— يا أمنا الكاهنة، إن الصبر عملة نادرة في مثل هذه المصائب العظمى،
وخاصةً عند سقوط الأحباب من فوق راحلة الحياة، ويخطئ من يظن أن
الحياة توزع الهدايا طوال الوقت على أهلها، ومن يحسن الظن بها فهو
واهم، وما تعطي الحياة إلا لتأخذ... هذا هو نهجها مع الجميع بلا استثناء.
وحين تعطي الحياة بسخاء، وتوزع الهدايا تكرمًا منها، سوف تسلب منك
شيئًا غاليًا رغمًا عنك، وفي أقرب فرصة.
قالت الكاهنة:

— أنا خبرت الحياة قبلك بزمانٍ طويل، وأعرف ألامها أكثر منك.

أحست التيمية أن قلب الزبراء أشد قسوة من الحجارة، فعادت إلى الديار
مخدولة، تحدث نفسها بمرارة:

— آه يا بنت التيمي... ماذا أصابك، وما ذنبك كي تكوني أصغر أرملة في
الديار كلها؟!

كلما صعدت الشمس إلى كبد السماء علت الأشواق، وتوهج حنينها إلى
زوجها وحييها، حتى يكاد يحرقها بشواظ من نارٍ مستعرة، وتأكدت تمامًا
أن عذاب الفقد والفراق أشد هولاً من كل عذاب استشعرته من قبل،
وما زالت تكتوي بلهب الحنين الممزوج بالأنين، حتى أسدل الليل
ستاره المعتمة.

عليها أن تتماسك؛ لتشعر أنها ما زالت قادرة على مواصلة الحياة بكل
تقلباتها العنيفة وعواصفها الغادرة، وأنها ليست المرأة الضعيفة، ولا حتى
الأرملة الفاتنة المستسلمة، كما سرى هذا القلب — خلسة — على
السنة الجميع.

8 يوليو

المدينة المنورة

3 هـ / 626 م

حين أمر الله نبيه بالهجرة من مكة إلى المدينة، تبعه في تلك الرحلة المباركة يربوع التيمي، وكان أسعد الناس ضمن من هاجروا؛ فلا إيذاء بعد اليوم، ولا مؤامرات تحيكها قريش وأزلامها بجهالةٍ وبغي، وكان أبو بكر الصديق يعرف قصته، فأوصى به عثمان بن عفان خيرًا، فألحقه بتجارته وإبله.

كان عثمان بن عفان من أثرياء القوم الصالحين، فأحب يربوع وأكرمه، وأغدق عليه بالعطاء، فعاش التيمي معززًا مكرمًا بين المهاجرين والأنصار في استقرارٍ وسلام، ولم يشعر بالغبّة على الإطلاق.

وإن كان يعاوده الحنين - بين الحين والحين - إلى الأهل والعشيرة في الديار البعيدة، ويؤرقه الفراق الصعب، وكلما فضفض بما ينتابه إلى أحدٍ من الصحابة، ينصحه بالصبر، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

ومن يدري... ربما يأذن الله لك بالعودة إلى ديارك، ويكون اللقاء الذي طال الشوق إليه... لا بأس... إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

لقد حظي هذا التميمي بسمعة طيبة، وعرف بالصدق والأمانة والوفاء بين أهل المدينة، فأحبه الجميع، سواء من المهاجرين أو الأنصار.

وذات يوم، جاءه رجل يُدعى أبا اليسر بن عمرو بن كعب، يلتمس منه أن يقرضه مبلغاً كبيراً من المال بعد أن ضاقت به الأحوال؛ لبدأ بهذا القرض تجارةً جديدة، عسى الله أن يفتح عليه ويوسع له الأرزاق.

عندئذٍ تبسم يربوع، وسأله:

- وماذا تنوي أن تفعل بهذا القرض؟!

قال أبو اليسر:

- بمشيئة الله، سأتاجر به ضمن القوافل.

هز التميمي رأسه، قائلاً:

– إن أوسع أبواب الرزق في التجارة، ولكن لي عندك سؤال.

– هات ما عندك يا يربوع.

– لماذا قصدتي أنا بالذات يا أبا اليسر؟!

أطرق الرجل قليلاً، ثم رفع رأسه ونظر في وجهه:

– سمعت عنك كل الخير، وسمعتك الطيبة تسبقك، وسماحتك تشي-
بأنك لا ترد سائلاً وقف على بابك.

هز يربوع رأسه، وقال:

– أتدري لماذا لا أرد سائلاً وقف على بابي؟!

– لا أدري... ربما لكرمك وحسن خلقك.

– لا يا ابن كعب، وإنما لأنني سمعت رسول الله يقول: (لا تردوا السائل
ولو كان على ظهر فرس).

تمتم أبو اليسر إعجاباً، وقال بحماس:

– صدق رسول الله، وها أنا ذا جئتكم مفلساً، لا بيدي سيف، ولا
تحت مني فرس، فهل تردني خائب الرجاء، أم تجبر بخاطري؟!

هتف التميمي بالقول:

— لا والله، لن أفعل، ولسوف أجبر خاطرك، وأعطيك ما تريد وأزيد،
فنحن في هذه الدنيا لا نملك شيئاً، إن المال مال الله، وكل شيء ملك
لله.

أوماً أبو اليسر بخجل:

— صدقت يا أخ الإسلام، بارك الله فيك وأعزك.

وأخذ الرجل ما أراد، وخرج مجبور الخاطر مطمئن البال، وقد حدد
موعداً بعد ستة أشهر ليرد القرض لصاحبه، عندئذ وافق يربوع، وقال له:

— لا بأس... لن أطلبك بالسداد إلا بعد أن تنقضي المهلة التي حددتها
أنت بنفسك يا ابن الكعبي.

— جزاك الله خيراً يا أخي يربوع... ما أكرمك، وما أحسن خلقك.

— إن الشكر لله يا ابن الكعبي، ثم لك؛ لأنك أجزيتني ثواب القرض يا
رجل.

استغرب أبو اليسر، وسأله:

– ثواب القرض؟ كيف هذا، وأنت الذي أقرضتني؟!

قال يربوع:

– سمعت رسول الله يقول: (العطية بعشر- أمثالها، والقرض بثمانية عشر)، وأنا ألتبس نسبة الأجر الكبير في إقراضك؛ لأن ثواب القرض يفوق ثواب الصدقة.

مرت الأيام، وانتهت المدة المحددة، وأصبحت سبعة أشهر، ولم يسدد أبو اليسر- القرض، ولم يلتزم بالوعد، عندئذ ذهب إليه يربوع ليتابع حقه، ويتحصل على ما يستحقه. وكان أبو اليسر- بن عمرو بن كعب، وهو صحابي أنصاري خزرجي جليل، شارك في غزوة بدر مع الذين شاركوا، ورضي الله عنهم، ونصرهم وهم أذلة، وأيدهم بملائكة من عنده.

طرق يربوع التميمي باب أبي اليسر الكعبي، فخرجت إليه الجارية، وعندما علمت بالأمر، قالت – كاذبة بإيعاز من صاحب الدار:

– إن مولاي ليس هاهنا بالدار الآن.

وكان مولاهما أبو اليسر بالداخل، وقد سمع يربوع صوته، فغضب وتضايق، وتجاهل أكذوبة الجارية، ونادى بأعلى صوته:

– اخرج يا أبا اليسر، ولا تنكر نفسك مني، لقد سمعت صوتك يا رجل.

خرج على الفور أبو اليسر، كاسف البال، يتألم من عذاب التخجيل والخنجل، فنظر إليه يربوع بحنقٍ متسائلًا:

– يا رجل، كما أذلة نعتاد الكذب، فجاء الإسلام وأعزنا بالصدق، وأهدانا الله صديقًا نبيًّا كريمًا صادقًا أمينًا، فما الذي حملك على الكذب، وإنكار نفسك مني؟!

قال أبو اليسر بأسى:

– العسرة يا أخي.

تبسم يربوع التيمي، ورقّ لحاله، وارتاح لصدقه، ثم سأله:

– وماذا تظن أني فاعل معك الآن يا ابن الكعبي؟!

قال أبو اليسر برجاءٍ واستجداء:

– لا أظن منك سوى الخير، فأنت أخ كريم جواد معطاء.

عاد يكرر السؤال:

– وماذا تظن أن أفعل معك الآن بشأن القرض الذي تأخر موعد سداذه؟!

بنبرة رجاءٍ وحياء:

– أظن أنك ستكرمني، وترجئ السداد مدة شهرٍ آخر، حتى تزول عسرتي، وتتفرج أحوالي.

تلطف يربوع معه، وربت على كتفه، قائلاً:

– لا والله... لن أفعل.

أحس أبو اليسر- بالضيق والحسرة، وقبل أن ينطق، استرسل يربوع بالقول:

– يا أبا اليسر... لك ما عليك، وها أنا ذا أبرئ ذمتك أمام الله، وأمام جاريتك من هذا الدين، واعتبر القرض هديةً لا تُرد.

5 نوفمبر

ديار بني تميم

4 هجرية / 627 م

داهم مرضٌ شديد منتهى بنت القيسي أم سجاح، وأصابها العلة، وظنوا -
وليس كل الظن إثمًا - أنها النهاية قد أوشكت لا محالة، فاجتمعوا حولها،
وقال لها ابنها الأكبر حنظلة، وهي على فراشها في النزع الأخير - أو
هكذا تبدو لهم:

- يا أماه... تمني علينا بأمنية، أو توصينا بوصية، ونحن نسمع لك ونطيع
أمرك في الحال.

بدا وجهها شاحبًا، ولسانها متعثرًا، تنطق الكلمات بتثاقل، لكنها حملت
فيهم بعينٍ جاحظة، وهممت آمرة:

- يربوع... أريد أن أرى ولدي يربوع قبل أن أموت، وأسكن إلى جوار
الحارث زوجي في حفرة من حفر الصحراء.

مرت الشهور، وانتظم عقدها حتى صارت سنوات، ولا أعرف عن أخيك شيئاً، سوى أنه انخرط مع محمد وأتباعه.

دنت منها سباح، وأمسكت يدها بجنوِّ بالغ، وجلست إلى جوارها على حافة الفراش، ثم همست:

— ماذا نفعل يا أماء؟!

— اتئوني بأخيك، أراه مرةً أخيرة قبل أن يداهمني الموت الملعون.

التفتت سباح إلى إختوها الثلاثة، وقالت لهم بنبرة حادة:

— ماذا تنتظرون؟! أما سمعتم؟!

قالوا بلسانٍ واحد:

— بلى... سمعنا.

— هيا، عليكم أن ترسلوا في استدعاء أخيكم يربوع على الفور، إن الأمر لا يحتمل الانتظار، فلا أحد يدري على من يطلع النهار!

قال عقفان بإحباط:

— ربما نرسل إليه، فلا يلبي النداء.

شاركه وزان الرأي نفسه، قائلاً:

— أظنه قد نسي أن له أهلاً وعشيرة هنا.

نظرت سجاح إلى حنظلة، وقالت بنبرة آمرة:

— عليك يا حنظلة أن تجد في محيى يربوع على وجه السرعة، أخبره أن أمه في النزاع الأخير، ولا ينبغي له التأخير، إنها لا تريد شيئاً من الدنيا سوى أن تراه، وتملاً عينها منه قبل الرحيل.

نظر حنظلة إلى أمه، فرق لها قلبه، وأحشش بالبكاء، لولا أن سجاح نهته قائلة:

— لا تبك يا أخي، ما هكذا يكون الرجال، ماذا تركتم للنساء؟! أنت الأكبر والقُدوة، وأظن أن أمنا ستكون بخير، ولسوف تدب العافية في بدنها العليل لو علت معنوياتها، ورأت ولدها يربوع.

قال وزان بنبرة تشاؤم:

— أتخسبينه سيعود بسهولة، بعد أن صار يسير وراء محمد كالمسحور؟! الأمر ليس بالهين اليسير — كما تظنين — يا أختاه!

بنبرة جادة حاسمة، قالت سجاح:

— أنا أعرف أخي جيداً، يربوع إنسان صالح، وليس بابن عاق حتى يمتنع
عن المجيء، ولسوف يلبي نداء أمه، إنه ابن بار، له قلب طيب يشبه
قلب طفلٍ صغير.

تساءل عتقان:

— وما العمل الآن؟!

هتفت بحزم:

— أرسلوا إليه بأسرع وسيلة ممكنة، ليعود على الفور، ولا يتأخر لحظة
واحدة... إن العمر لحظة، ولا نريد أن نحمل وزر عصيان الأم وهي في
هذه الحالة.

طأطأوا رؤوسهم، وبدأ عليهم الأسى والتأثر، واختلس حنظلة نظرات إلى
أمه — المسجاة باستسلام — فيها شفقة ممزوجة بالخوف والحسرة،
وتتم:

— في الصباح الباكر سأنتقل بنفسى إلى يربوع حيث يكون.

قال وزان:

— أتدري أين هو الآن؟!

– نعم... إنه في المدينة المنورة.

بدهشة، قالت سجاح:

– المدينة؟! وما الذي جعله يذهب إلى المدينة؟!

رد حنظلة:

– هاجر إليها مع من هاجروا مع محمد، فرارًا من بطش مكة وسفهاء قومها.

قالت متسائلة:

– وأهل المدينة، ألم ييطشوا بهم كأهل مكة؟!

تبسم حنظلة، وقال:

– سمعت أنهم استقبلوهم بالترحاب والود والحب، وأنزلوهم في منازلهم، وأشركوهم معهم في أموالهم، وأحسنوا إليهم، وتأخوا معهم.

شردت سجاح، ثم تنهدت باستغراب، قائلة:

– شيء عجيب... لكن هذا الأمر لا يعنيني، المهم أن تأتوا بأخيكم يربوع في غضون أيام قليلة، نريده هنا اليوم قبل الغد.

بثقة، تكلم حنظلة:

— لا تقلقي يا أختاه... مع أول ضوء للنهار، سأشد الرحال إلى المدينة، ولن أعود إلا وهو بصحبتى.

قال عققان مشككًا:

— أخشى أن تلحق به، ولا تعود أنت أيضًا يا حنظلة!

— ما هذا الكلام يا عققان؟!

— سمعت أن هذا الرجل له تأثير السحر على من يقابله أو يسمع كلامه.

بشيء من الضيق، قال حنظلة:

— وما شأنى بمحمد وقوله وتأثيره؟! لا يهمنى سوى رجوع يربوع، سألقاه هناك وأعود به.

قالت سجاح:

— إن الأمر لا يحتمل البقاء هناك، أرجوك يا حنظلة... مسافة السكة فقط يا أخي.

— سأفعل يا سباح من أجل أمنا، حتى تعود بعافيتها، وتناديك بالقديسة
كما تحب أن تناديك دائماً.

غمغمت سباح:

— آه... يا ليت الماضي يعود... أظن أن أمنا ستكون على ما يرام، بمجرد
أن ترى يربوع، دائماً أشعر بها تتألم لفراقه الذي طال، منذ رحل أبانا
الحارث، ومن بعده يربوع، وهي في حالة سيئة... كيف لها أن تتحمل فراق
الزوج والابن في آن واحد؟!

مع بزوغ فجر اليوم التالي، شد حنظلة راحلته، وأصر عقفان أن يرافقه
ليؤنسه من وحشة الطريق — الخطير الطويل — إلى المدينة المنورة،
وأملها كبير في أن يعودا به. وكان حنظلة مشغول البال، يفكر في الأمر،
ويقلبه على كل الأحوال: ماذا لو رفض يربوع العودة معهما إلى الديار؟
فماذا سيفعلان؟!

سأل حنظلة أخاه عقفان هذا السؤال، فرد عليه:

— تلك مصيبة كبرى أحسب حسابها، ولا نستطيع أن نعيده إلى الديار
بالقوة... أتظنه يرفض العودة معنا يا حنظلة؟!

تنهد حنظلة، وتنفس بعمق:

- وارد... كل شيء وارد... إن حب محمد وأصحابه في قلبه يفوق كل حب، حتى الأب والأم!

قال عقفان، وقد لمعت عيناه ببريق غريب:

- في تلك الحالة، ليس أمامنا سوى حل واحد.

- وما هو؟!

- أن نشكو أمره لولي أمره، ونسأله أن يأمره بالعودة لتراه أمه قبل أن تموت، وأظن أنه لن يرد لنا طلبًا كهذا.

دهش حنظلة، وسأله:

- ومن يكون ولي أمره هذا؟!

- محمد... ليس غيره.

هز حنظلة رأسه، وقال بإعجاب:

- أحسنت التفكير والتدبير يا عقفان، معك حق، إن هذا لرأي سديد تمامًا.

12 نوفمبر

المدينة المنورة

4 هجرية / 627 م

هناك استدلو عليه فور وصولهم، بمجرد أن قالوا: يربوع التميمي، رحب بهما كل من لقيهما، وأثوا على يربوع وأخلاقه، وذهبوا بهما إلى داره، وأخبراه بحال أمهم، فحزن عليها حزناً شديداً، وسألها:

– ولماذا لم تستدعوا لها طبيباً يداويها؟!

رد حنظلة بنبرة يأس:

– استدعينا لها أطباء كثر، وكلهم أجمعوا أن البدن سليم، ولا أعراض ظاهرة لمرض يعرفونه.

– وما الذي أصابها، وجعلها طريحة الفراش، عاجزة عن الحركة؟!

قال عقفان بانكسار:

– لا ندري... ربما الحزن على الزوج والابن.

رد بسؤالٍ آخر:

– وهل الحزن يؤدي إلى العجز التام، والمكوث طريحة الفراش؟!

قال حنظلة:

– الأمر بيدك يا يربوع، وما قلناه لك هو ما حدث بالفعل، فانظر ماذا

أنت فاعل؟!

– وماذا تظنان أنني فاعل، والحال محزن هكذا؟!

– الأمر لك... أخ كريم وابن بار بأمه لن يتركها.

قال يربوع:

– الأمر لله ولرسوله... أمهلاني بعض الوقت قبل أن نشد الرحال إلى

الديار.

قال عقفان:

– ولماذا التأجيل؟! إن الأمر عاجل، والعمر قصير، وربما تتأخر على

أمناء، فنعود ولا نجد لها على قيد الحياة؟!

قال يربوع بثقة:

— لا تقلقا... إن شاء الله ستكون أمانا بخير.

تساءل حنظلة:

— ولماذا التأجيل والإرجاء، طالما قررت العودة معنا؟!

قال يربوع:

— لسببين لا ثالث لهما:

الأول... سوف أذهب إلى رسول الله، أستأذنه في مغادرة المدينة لرؤية أُمِّي في ديار بني تميم.

أما السبب الثاني... فأعرض حالتها المستعصية تلك على طبيب الإنسانية كلها، مداوي القلوب والنفوس والأبدان، لعل الله يجعل الشفاء على يد من لا ينطق عن الهوى، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

استغرب حنظلة، وباعته بالسؤال:

— ومن يكون هذا الطبيب البارع؟!

— حبيب الله، محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

نظر حنظلة إلى عققان، يستغربان ما يسمعان من أخيهما، لكن لا بأس،
ما هذا وقت جدال ولا سؤال، الآن المهم عندهما العودة إلى الديار على
وجه السرعة، دون إبطاء أو تأخير، وقبل أن يسبق السيف العذل،
وتلحق منتهى بنت القيسي بن تغلب برفيق دربها وشريك عمرها الحارث
التميمي في الحفرة إياها.

انتظرا حتى ذهب وعاد بعد فترة ليست بالطويلة، وفي يده عباءة من
قماش خشن، خضراء بلون سعف النخيل الزاهي، فسأله حنظلة:

— ذهبت خالي الوفاض، وعدت بتلك العباءة الجميلة، من أين لك هذا يا
ابن التميمي؟!

تبسم مسرورا، وقال باعتزاز:

— هدية من رسول الله، قصصت عليه حال أمنا، فأعطاني تلك العباءة،
وقال: دثروها بها، ولسوف تُشفى وتتعافى بأمر الله بعد يومٍ وليلة.

ضحك حنظلة، وقهقه عققان بسخرية، ثم قالاً بنبوة ساخطة مندهشة:

— أمنا ستشفى بعد يومٍ وليلة؟! أفلح إن صدق!

غضب يربوع بشدة، ولاهما بضيق:

— والله، لو ذكرتما رسول الله بكلمة سوء واحدة، فلن أعود معكما أبداً، ولن أبرح مدينة رسول الله، إن أنفاسه في تلك المدينة تعطر الهواء، وتمنحني الراحة والسكينة، إنه — ورب الكعبة — لأصدق الصادقين منذ خلق رب العالمين آدم وحتى قيام الساعة.

أدرك حنظلة وعقنان أنهما قد وقعا في خطأ كبير أغضب يربوع، فحاولا على الفور تدارك الأمر، فقال عقنان بتلعثم:

— معذرة يا أخي، نلتبس عفوك، ونعتذر لك، ما قصدنا شيئاً مسيئاً.

وقال حنظلة بتوسلٍ ورجاء:

— وأنا أعدك يا يربوع، لو شُفيت أماناً من مرضها الغامض ببركة هذه العبادة، لأكون أول المصدقين بمحمد، والمؤمنين برسالته التي جاء بها.

دهش عقنان، وسأله باستنكار:

— أحقاً ستفعل يا حنظلة؟! أم أنك تمزح?!

رد بنبرة متهمّة:

— هذا في حال نجحت تلك العبادة في شفاء الأم العليلة من مرضها الغامض الذي عجز الأطباء عن علاجه، وأظن أن هذه الحيلة لن تنطلي

على أحد، وما العبادة إلا قطعة من قماش، ومنذ متى كان القماش يشفي العليل، ويرد للعاجز قواه الضائعة؟!

قال عقفان:

— ولو حدث وشُفيت أَمنا، أحمًا ستذهب إلى محمد؟!

رد بالقول:

— هذا مرهون بذاك، وشفاء أَمنا أمر يبدو مستحيلًا، ويحتاج إلى معجزة كبرى في زمنٍ لا معجزات فيه.

سمعهما يربوع وهما يتجادلان، وكان يتم بدعواتٍ وأقوال استغفار، وعندما انتهى التفث إليهما، وقال:

— والله، لو قال لي رسول الله إن الشمس ستشرق غدًا من الغرب لصدقته، وآمنت بأنه ما ينطق عن الهوى، ولسوف تشرق فعلاً من الغرب.

سأله عقفان بذهول:

— ولماذا كل هذا الإيمان به والثقة فيه يا يربوع، وقد عرفناك — من قبل — شككًا بطبعك، لا تتخلى عن وساوسك، ولا تثق في أحدٍ بسهولة؟!

— لأسبابٍ كثيرة، لعل أهمها أنه جاء بالحق من عند الله، ليُحق الحق والخير والجمال في هذه الحياة، ويمحق الباطل والبغي والقبح، وقد كنت دائماً منجذباً بالفطرة إلى تقليم أظافر القبح من حولي.

نظر حنظلة إلى عتقان، ولم يتكلما، فعاد يربوع يقول:

— أفلحت أنت إن صدقت فيما قلت يا حنظلة، لو آمنت بالنبي وبما جاء به من الحق من رب العالمين.

بشيء من المراوغة، كرر حنظلة قوله:

— هذا مرهون بذاك.

— ماذا تقصد؟!

— أقصد أن الأمر كله مرهون بشفاء أمانا يا يربوع، بتلك العبادة كما تظن، التي أرى أنها مجرد قطعة قماش خشنة، لا تقدم ولا تؤخر في شيء، وربما نعود إلى الديار فلا نلحق أن ندر أمانا بها، ونأمل ألا تلحق بأيننا قبل العودة إليها.

قال يربوع ييقين:

— الله المستعان... وإن غداً لناظره قريب.

15 نوفمبر

جزيرة الفرات

4 هجرية / 627 م

أرسلت الكاهنة الكبرى الزبراء بنت رثام في استدعاء سجاح التميمية لأمرٍ هام عاجل، وبدا هذا الاستدعاء غريبًا في ذاته، وإن جاء في غير أوانه؛ لأن التميمية كانت محمومة بأمرها، ومشغولة بمرضها، وفي الوقت نفسه تنتظر عودة إخوتها من المدينة، لعل أمها تلقي نظرة وداع على الابن الغائب يربوع.

لم يقل مبعوث الزبراء شيئًا يمكن لسجاح أن تعرف منه هدف هذا الاستدعاء المفاجئ، لكن بدا النداء غامضًا، وظلت التميمية المعزولة من الدير تفكر في الأمر، وتقلبه على كل وجه، حتى هداها تفكيرها إلى احتمال أن تكون الزبراء قد تراجعت عن إصرارها على عدم السماح لسجاح بالعودة إلى الدير، ولعلها أرادت أن تخبرها بأن لها مكانًا الآن ينتظرها، وتستطيع أن تعود.

ربما يكون ضميرها قد أنبها، وغيّرت رأيها، لكن التّمية اليوم غير التّمية
الأمس، مرت بضع سنين منذ ذهبت إلى الدير لآخر مرة تستجديها أن
تفتح لها باب العودة من جديد، وكانت في حالة نفسية سيئة بعد رحيل
زوجها أبي كحيلة بطريقة مأساوية مفاجئة، لكن المرأة القديمة، قدم الحياة
على هذه الصحراء التي تأوي الدير، كسرت بخاطرها، ورفضت توسلها
بقلبٍ فظ غليظ، كأجّار الدير أو أشد قسوة.

ماذا تريد منها الآن؟!

ولماذا أرسلت تستدعيها على وجه السرعة لأمرٍ هام عاجل؟!

لم تقرر سجاج بعد إن كانت ستذهب إلى الزّبراء في منفاها البعيد أم لا...
لم يكن هذا وقت الكاهنة، بل هو وقت الأمّ منتهى بنت القيسي-. لذلك
ظلت مشدودة الأعصاب، متوترة مضطربة، وإن بدت غاضبة من تلك
الكاهنة العجوز الشمطاء المراوغة التي لم ترحم ترمّلها، ولم تقدر عذابها.

بعد تفكيرٍ عميق، استقر بها الرأي أن ترجئ النظر في أمر دعوة الكاهنة
حتى يأتي يربوع مع حنظلة وعقّقان، وترى كيف ستسير الأمور، وإلى أين
تضي حالة الأمّ المعتلة بلا علة ظاهرة لذوي العيون المبصرة.

بعد يومين، عاد الفرسان الثلاثة (حنظلة، ويبروع، وعقفان) من المدينة المنورة، فأطلت السعادة من عيني سباح، وظهرت بارقة أمل في أن تتحسن الأحوال، وأقبلت على أخيها تحتضنه بشوق، وتقبله بحنان، وتبكي كطفلة يتيمة عادت إلى حضن أبيها، وأجهشت بالدموع، تقول بلوم رقيق:

— لماذا تركتنا يا يبروع كل هذه السنوات؟!

وكيف تتخلى عن أمك، وهي مريضة تنزع سطوة الموت، وتصارع سكراته الرهيبة؟!

من أين لك هذا القلب القاسي الذي لم نكن نعرفك به، لتترك أختك الأرملة المفجوعة في محنتها بعد رحيل زوجها، دون أن تسأل عنها أو تنظر في أحوالها؟!

أوماً برأسه نحو الأرض خجلاً، ولم ينطق، فعادت تلومه بالقول:

— أهذا ما علمك إياه صاحبك ودينه الجديد، يا ابن أبي وأمي؟!

أكتسى وجهه باللون الأحمر، وقال بصوت خفيض:

— معذرة يا أختاه... هناك أولويات تضطر المرء لإنجازها قبل غيرها.

– وما هي أولوياتك يا أخي؟! أنسيت أمك في مرضها، وأختك في حزنها؟!

قطب يربوع ما بين حاجبيه، وتمتم:

– والله ما نسيتكما أبدًا، ويعلم رب الكعبة ما في قلبي.

قالت سجاح:

– ولماذا إذن غبت عنا كل هذه المدة، أيها القاسي؟! وقد كنت أظنك أرق إخوتك قلبًا، وأكثرهم عطفًا وحنانًا علينا؟!

– قلت لك يا أختاه، إنها الأولويات.

– وسألتك يا يربوع عن أولوياتك التي تأتي قبل أمك وأختك، فلم ترد بالجواب المقنع.

– الله ورسوله... تلك هي أولوياتي يا سجاح.

– وأين أمك وأختك من أولوياتك تلك؟!

– كل شيء في مرتبة أدنى.

– نحن في مرتبة أدنى يا ابن التميمي؟!

– نعم... بعد الله ورسوله.

حاول حنظلة أن يدير دفة الحوار في اتجاهٍ آخر، فقال:

– ليس هذا موضوعنا الآن يا سباح، دعيه يدخل على أمان، وبعد ذلك يغتسل ويستريح من وعثاء السفر وغبار الطريق الشاق الطويل.

مصممت شفقتها وزمتها بامتعاض، وأشاحت بيدها، قائلةً بتشاؤم:

– لك ما تشاء... ها هي أمك في مرحلةٍ وسطى بين الحياة والموت، لا ندري إن كنت ستنجو وتتعلق بأهداب الحياة، أم سيختطفها طائر الموت الفظيع، ويقطع حبلها السري مع تلك الدنيا، وينتهي الأمر!

قال يربوع بنبرة تفاؤل:

– لا خوف عليها بعد الآن، لقد جئتها بالبشارة من عند الصادق الأمين.

سألته باستغراب:

– ماذا تقصد؟! هل عرفت طبيبًا بارعًا يداوينا، بعد أن يؤسنا من كثرة ما زارها كبار الأطباء؟!

أشار إلى العبادة التي بين يديه، وهو يحتضنها برفق، ثم قال:

– الآن سأدخل عليها، وأدثرها بتلك العباءة، وإن شاء الله، بعد ليلة واحدة ستكون في أحسن حال، ويتخلص بدنها العليل من درن الداء اللعين.

أومأت له بيدها أن يدخل عليها، عساها تُسر- لرؤيته، ويخفت أئنها المكتوم، ويزول عن نفسها ألم الفراق وأوجاع الداء المجهول، وعندما دخل عليها لم تصدق عينيها، وبكت من شدة الشوق إليه.

تهدت بشهقة طويلة مكتومة، ثم رفعت يديها إليه ضارعتين؛ لأنها لم تستطع أن تنهض من فراشها، وبدت شاحبة واهنة كخيوط العنكبوت، فانكب عليها يحتضنها، ويغمرها بالقبلات الحارة على وجهها ورأسها ويديها، والدموع تنساب من مقلتيه، وردد:

– شفاكِ الله وعافكِ يا أماه.

بصوتٍ متهدج خافت مبجوح، همست:

– لماذا غبت عن أمك كل هذه السنوات يا ولدي؟!

– سامحيني يا أماه... لم يكن الأمر بيدي.

– خشيت أن أموت قبل أن أملأ عيني منك يا ولدي.

– أطل الله عمرك يا أمي.

– آه يا يربوع... أخذك محمد مني... أليس كذلك؟!

– لا تقولي هذا يا أمي، بل لقد ردني إليك نبي الله.

ثم مد يده إلى العباءة، فتحسسها برفق، وقربها من وجهه يشم ريحها الطيب، وفردها عن آخرها، وغطاها بها في فراشها، وقال بيقين المؤمنين:

– لا تركيها ولا تفارقيها حتى يطلع عليك النهار، وبأمر الله ورسوله ستكونين يا أمه على خير ما يرام.

وظل يتم بدعواتٍ وهمساتٍ وغمغاتٍ غامضة، لم يفهم منها إخوته شيئاً، ورددها مرات عديدة بخشوع، كأنه يؤدي صلاةً خاصة في سكونٍ مهيب.



16 نوفمبر

جزيرة الفرات

4 هجرية / 627 م

حدث ما كانوا يظنونه مستحيلًا... نهضت في الصباح أهمم منتهى في أحسن حال، وأتم عافية، كأنها فتاة عشرينية تسعى في الدار وتدبر شؤونها، بعد أن برأت تمامًا — بقدرة الله وبركة رسوله — من علتها الغامضة التي أقعدتها شهورًا، وأسجتها في الفراش طويلاً.

بدا الذهول ساطعًا على وجه سباح، وهي ترى أمها تتحرك في كل اتجاه، مثل ناقةٍ عنيدة عصية على الترويض، تعد الطعام، وتحيك الثياب، وتزور الجيران، وتمرح تحت النخيل في البستان لتجمع الثمار.

قال يربوع لإخوته مزهواً:

— أرايتم معجزة النبي الصادق الأمين بأعينكم؟!

قالت سباح، والفرحة تتقاذف من عينيها لتعافي أمها:

– ربما يكون شرك البارع أنت يا يربوع، وحين رأتك أملك عادت إليها عافيتها.

– لا يا أختاه... لو كنت أنا السبب، لنهضت فور أن رأنتي بالأمس، لكن رسول الله قال لي: دثروها بالعباءة ليلة واحدة، ولسوف تتعافى بمشيئة الله، وصدق الصادق الأمين.

صاح وزان:

– لعلها معجزة، مثل معجزات موسى حين ضرب بعصاه البحر، أو ربما تكون معجزة من معجزات عيسى، الذي كان يحيي الموتى، ويبرئ الأبرص، ويشفي المرضى.

تمم يربوع بخشوع:

– هذا من فضل الله، يؤتيه من يشاء من أنبيائه الصالحين.

قال حنظلة مسفهاً الأمر:

– أمكم أصلاً لم يكن بها داء ولا علة مستعصية، وأظنها كانت تدعي المرض والعجز حتى نأتيها بابنها يربوع، وعندما جئنا به إليها، وجدت أن مكرها لم يعد مجدياً، فنهضت من فراشها، وأظهرت مجدداً عافيتها!

شكك عقفان في الواقعة، بالقول:

– ولكن لماذا حدث ذلك بعد ليلة التدثر بالعباءة، كما قال يربوع؟!

رد وزان، وهو يضرب كفّاً بكف:

– هذا أمر يدعو للحيرة والدهشة، أكاد أجزم بأن يربوع صادق في كل كلمة قالها لنا، وقد رأينا جميعاً بأم أعيننا معجزة تحدث لأول مرة في دارنا، بمجرد أن دثرها برداء محمد.

هتف يربوع:

– أما زلتم تشكون وتشككون في أمرٍ جلل حدث أمامكم جميعاً، ولأمكم تحت سمعكم وبصركم؟!

ثم رفع يديه ووجهه إلى الأعلى، ودعا بالقول:

– اللهم إني أسألك الهداية لإخوتي، وأخرجهم بقدرتك – يا رب العالمين – من الكبر والضلال.

لم يمكث يربوع كثيرًا في الديار، وبمجرد أن رأى أمه على خير ما يرام، حتى عزم على المغادرة، واستأذن في العودة إلى مدينة رسول الله. حاولت أمه أن تثنيه عن الرحيل، أو تستبقه لعدة أيامٍ آخر، لكنه قال لها:

— يا أماه... اتركني أرحل بالله عليك، ما عدت أطيق الحياة بعيدًا عن الحبيب، أما وقد اطمأن قلبي عليك، فلم يعد لي هنا بقاء.

— وأنا يا ولدي... أليس لي حق عليك؟!

— بلى يا أماه... لك كل الحقوق، ولذلك أستمحك أن ترضي عني، وتتركني أغادر في سلام، ولسوف أزورك من حينٍ إلى آخر، وإن كنت أود أن أصطحبك معي لتقابلني رسول الله، لعل الله يكتب لك الإسلام. أشاحت عنه بوجهها إلى الناحية الأخرى، وبدا عليها مسحة من غضب، بينما سجاح تراقب عن كثب، ثم قالت الأم بحزم:

— اذهب يا بني إلى حيث تريد، دعني وشأني.

اقترب منها، وهي عنه معرضة، وسحب يدها بلطف، وقبلها بخضوع، ثم رفع رأسه قليلًا، وقبل رأسها بوابلٍ من القبلات الحانية، وقال هامسًا:

– رضاك يا أماه... لا تغضبي.

تبسمت قليلاً، وزمت شفيتها، ونظرت إلى سباح، ثم قالت:

– رضيت عنك يا ولدي... اذهب، لكن لا تكثر الغياب، ولا تحرمني منك، فالموت على الأبواب دائماً، والزمن لا يرحم أحداً.

– سمعاً وطاعة يا أماه.

ثم نظر إلى أخته، وفي عينيه ومضات شفقة وعطف، وقال:

– وأنت يا أختاه، ألم يحن الأوان لتقابلني رسول الله، وتضمني لنفسك سعادة الدنيا، وجنة الآخرة؟!

لاذت بالصمت وأطرقت، ثم رفعت رأسها، وقالت:

– أنسيت أن أختك راهبة؟!

– كانت أختي راهبة ذات يوم، أما اليوم فلا...

صاحت أمهم منتهى بشيء من العصبية:

– سباح قديسة، وستظل قديسة، حتى ولو هجرت الدير، وخلعت ثوب الراهبات.

أحس يربوع بالحسرة، وأن محاولاته معهم باءت بالفشل، وأدرك أنه لا سبيل إلى هدايتهم، وأن الله يهدي من يشاء، وأنت لا تهدي من أحببت، فلم يعد يأسف عليهم، ولا يأسى لحالهم، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

شد راحلته، وأمر ناقته أن تتجه — على بركة الله — إلى مدينة رسول الله.

غادر الديار، وترك أهله على عكس ما لقيهم، كانوا في حزنٍ وغم، وأصبحوا في عافية وفرح، وخاصة الأم، بينما عادت سجاح تفكر في أمر الزبراء والدير، وذكريات الأيام الخوالي، وهي تسأل نفسها:

— يا ترى ما هو الأمر العاجل والخطير الذي من أجله أرسلت تلك الكاهنة العجوز في استدعائها؟!

إن شغف الفضول وحب الاستطلاع يقض مضجعها، وألف سؤالٍ وسؤالٍ يدق رأسها بلا هوادة.

ولكن ما العمل الآن؟! أتذهب إليها بعد أن زالت الموانع والأسباب، أم تهملها، وتجعل أمرها نسيًا منسيًا، وتطوي للأبد صفحة تلك العجوز وكهاتها وذكرياتهن هناك؟!

ظلت حائرةً شاردة، يورقها الفكر في الأمر... ربما لا تعود إليها أبدًا، وربما
تعود إليها ذات يوم، عساها تعرف ماذا تخبئ لها الأيام في جعبة كاهنة بني
رثام!



20 أبريل

جزيرة الفرات / الدير

5 هجرية / 628 م

أخيراً، وبعد طول تفكير، حسمت سباح التيمية أمرها مع الكاهنة العجوز، وقررت أن تُلبّي النداء، وتشدّ الرحال إلى الزبراء، حيث هي في أقصى أقاصي الصحراء. لا بأس، فإن لها هناك بقايا من ذكريات طيبة، وما زال مذاق الليلة الممطرة – التي ذقت فيها عسيلة فتاها الوسيم القسم أبو كحيلة لأول مرة – ينعشها كلما خطر على بالها، واستعادت من دهاليز وجدانها ما حدث في قلايتها داخل الدير، في تلك الليلة المخملية العاصفة.

عاشت هناك أكثر من عشر- سنين، وارتبطت بأقربائها من الرهبان والراهبات، ولها صداقات متينة، ورفقة محمودة، ورحلة عمر لا يُستهان بها. فلتمضِ إلى كهف الذكريات، ولو على سبيل الزيارة العابرة، لن تخسر- شيئاً، وما عادت تفكر في تركيبة الأشخاص، ولا تمحّص في فهم الزبراء أو

غيرها من الخلق؛ لسبب بسيط جدًا، لأنه - ببساطة - لا توجد مقاييس للناس، لأن كل البشر- استثناءات لقاعدة لا وجود لها من الأساس.

في تلك الأثناء، كان الجو صحواً، والشمس حانية، وليست لاهبة على غير عاداتها في هاتيك الأيام.

اطمأنت التميمية على أمها، التي صارت في طور شابة عفية، فلا خوف عليها إن تركتها وحدها في الدار. لقد أصبحت قادرة على أن تحكم القبيلة، وتقوم بشؤونها وحدها.

اختارت أن يكون برفقتها شقيقها وزّان، فهو الأقرب إليها عمراً، والمقرب إلى روحها من أشقائها الآخرين. إنه هادئ الطباع، لين العريكة، يتسم بالركة والحنان، وعنده قدرة على الصبر وتحمل الأهوال، فلا بأس من أن يصحبها في تلك الرحلة، وإن كانت تخشى- من مفاجآت الكاهنة الزبراء بنت رثام.

في تلك الأثناء، كانت الزبراء قد شارفت على التسعين من عمرها، وتحلم بأنثى مثلها تورثها الكهانة، وسمع القول، وعلوم القراءة والكتابة، وأصول النصرانية، وتوصيها بسيرتها الذاتية.

امرأة لها هيبه، تتفاحم هيتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل
الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة، وهي في أرذل العمر تبدو
راهبة وحشية بزياها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في عنقها
ويديها. ولم تخشها سباح يوماً، بل أحبها، ورأتها كائنًا أسطوريًا مختلفًا عما
عرفت في ديار أهلها.

تبرق عيناها حين تتكلم، بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بئر
سحيقة. نخيفة العود، عجفاء، ضامرة البنيان، لكنها مهيبة مخيفة، نظراتها
جادة جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطعة برية شرسة.

وما زالت سباح تذكر ما قالتها الكاهنة من قبل لأمها منتهى وأبيها الحارث:

— هذه الصبية سيكون لها مكانة عليّة، لا بد أن أعلمها أصول الحكمة،
وفنون العبرة، لتكون كاهنة نبيّة، تعرف الأخبار، وتنبيئ الناس بما خفي
من أسرار، ولسوف تأتكم سباح بأمر لم تأت به قبلها إنسية.

مع أول ضوء ييزغ من فجر هذا اليوم، انطلقا صوب الدير. بدا الطريق
خاليًا ساكنًا، والدروب مهجورة إلا من كائنات الصحراء المألوفة، تنهذى
أصواتها من قريب ومن بعيد: ذئب يعوي هنا وهناك، وكلاب مسعورة
لا أحد يدري من تأكل، وكيف تصارع من أجل البقاء على قيد الحياة!

أحيانًا تلمح ثعالب برية مخيفة، صغيرة الحجم كأنها فئران الصحراء. ومع مرور الوقت، بدأت تلوح قوافل للبدو تمضي في هذا الاتجاه أو ذاك. إن الحياة تدب رغم الأرض القاحلة العجفاء، وكلما مرا بئر ماء لا بد من وجود دواب وإبل، وبعض الأعراب يشربون ويستقون دوابهم... لا بأس، فالماء حياة.

وتبدو سباح في كامل أناقتها، بملابسها الملونة الزاهية فوق ناقتها، تختفي بالهودج كأنه سفينة نوح تحملها إلى بر الأمان، وتتجها من مهالك طوفان العواصف والرياح والرمال. يسبقها أخوها وژان يبضع خطوات، ومن حين لآخر يلتفت إليها من فوق دابته العفية. ولم لا، وهو رفيق وحارس وصحبة آمنة لأخته الأرملة الجميلة الفاتنة؟!

تدور الأشواق في أعماقهما؛ عيناها الواسعتان العميقتان الأسرتان، المكحولتان بيد الإله، خليط من الطموح الجموح، والحب والانجذاب. امرأة تبحث عن زعامة لا ينافسها فيها أحد، كفرسة أصيلة لا يوقفها فارس جسور، وفي أعماقها رغبات لا نهائية، تمور وتفقور كالبركان الخامد تحت جبال وصخور. أنثى ثائرة متمردة كداية التاريخ، ماهرة عربية من أصول عراقية، فيها حمية كسعار الليل.

تبدو في رقة الدانتيل وشراسة لبؤة، وترى نفسها سيدة الأرض، ولا بد لها أن تكون ملكة على الكون كله، شرقه وغربه. تجري لتسابق الزمن، وحلمها المفضل في عرش الدنيا، تحمله على ظهرها، وهي تفتش عن معنى العالم بعيدًا عن صراعاته الذكورية وناره المسعورة.

امرأة ليست كباقي النساء، برغم أن فيها رقة النساء وخشونة الرجال، بدليل أنها تجمل وجهها بالكحل الفاحم، وتصبغ شعرها الطويل الناعم بالحناء، ثم تذهب في جولة إلى النهر العذب، كي تغسل صدرها النافر الداكن بلون التمر الناضج على أعناق النخيل.

تغمره بالماء البارد لتطهره من أثر اللغو الفارغ والأكالييل المزيفة، وحين تعود إلى عتبة خيمتها تحت حراسة رجال أشداء، تنسل من بين سيوفهم وهي تكافح البكاء.

تبدو هشة محتاجة، وخائفة نادمة... لكن غنج الكحل في العيون الآسرة لا يهدأ. تملك بنت التميمي نظرات عاشقة أضناها الغرام، لكنها تبقى عصية على الترويض، مثل مدينة حرة صامدة لا تقبل الخضوع للغزاة.

كأنها ابتسامة وضاءة على ثغر القمر، ولحظة إضاءة لا تبصرها العين المجردة. قد ينمو الحب بعد خمود الرغبة من أجل طموح أكبر يسع الدنيا.

إنها حيّة الهيدرا – متعددة الرؤوس – التي لا ترضى سوى بالسيطرة
على كل الرؤوس!

تهمس سجاح:

– آه... لن أكون ظلاً في عالم لا أملكه، لن أكون نخلة ضامرة تذروها
رياح الصحراء الباغية. لا بد أولاً أن أملك زمام نفسي، وأملك هذا العالم
من حولي، لكي أكون شيئاً مذكوراً في ذاكرة الدنيا، وأعيش خالدة مخلدة
آلاف السنين. فلم أولد لأموت بعد حين من الدهر ويطويني النسيان،
كما تموت الغزلان في الصحارى والوديان، وتصبح نسياً منسياً!

يومان أو يزيد قليلاً من المسير الشاق العسير، يتخللها القليل من الراحة
تحت أشجار النخيل التي تتحدى الصحراء، وتصنع لنفسها واحة في
منتصف الطريق، رفقا بالقوارير، حيث البئر العذبة، ولا حياة بلا ماء.

لا شيء يعكر صفو الرحلة، ربما خطر يحرق من بعيد حين يحل الظلام،
وتعوي الذئاب الجائعة تصرخ مستغيثة بحثاً عن فريسة، لكن وژان شاب
قوي شجاع، وسيفه بثار، ورمحه جبار، لا يخطئ هدفه سواء بالليل أو
النهار.

ورغم طول المشوار، لم تشعر سجاح بالضيق أو الإجهاد على الإطلاق، ولكن الشيء الذي كان يزعجها ويكدر مزاجها غموض دعوة الزبراء، وسر هذا الاستدعاء.

طوال فترة وجودها في الدير لبضع سنين، كانت تشعر بحنان الكاهنة العجوز، صاحبة الأمر والنهي في كل شيء داخل أسوار قلعتها الحصينة، وبين رعاياها، وكأنها الأم الرؤوم. وأحياناً تشعر بأنها كائنة خرافية خرجت من عالم الأساطير، ولا تنتمي للجنس البشري؛ فظة غليظة، لها قلب من حديد، يطل الشرر من عينيها، وتنفث النار من فمها – إذا غضبت – مثل التنين!

تظنها سجاح التميمة جنية ضلت طريقاً، واستوطنت الدير، وحكمت وتحكمت في الرهبان والراهبات.

اختلطت مشاعرها تجاه تلك العجوز، فلم تعد تدري إن كانت إنسية أم جنية، كما أنها لا تعرف إن كانت تحبها أو تكرهها... وهل هي شريرة أم طيبة؟!

في النهاية، أقنعت نفسها بأن تلك المرأة خليط من هذا وذاك، وعليها أن تتعامل معها كما هي، بخيرها وشرها، بحنانها وشراستها، بأمومتها وجبروتها.

ليس بيدها شيء سوى أن ترضى بالواقع كما هو، وليس بمقدورها أن تغير الزبراء أو غيرها من الكائنات، ولو أرادت أن تغير من صفاتها فإن الأمر يبدو مستحيلًا بعد أن بلغت تلك الكاهنة من الكبر عتياً.

ولكي تتغير، لا بد أن تموت ثم تولد من جديد بسمات أخرى مغايرة لما هي عليه الآن، وهذا مستحيل أن يحدث؛ لأن الذين ماتوا لم يرجع أحد منهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى.

هناك في الدير، كان اللقاء حارًا وحميمًا، بالأحضان والقبلات والأشواق. وقد أجهشت الزبراء - لأول مرة - بالبكاء كطفلة عثرت على أمها الضائعة منها بعد سنوات، وهتفت بتأثر:

- يا حبيبتي يا سجاح، ألا تعرفين أنني أرى فيك نفسي - وشبابي وطموحي؟! ظننتك لن تعودني إلى هنا أبدًا، ربما كنت غاضبة مني لأنني رفضت عودتك للدير مرة أخرى!

تبسمت التيمية، وقالت بروح سمحة:

– كيف لا أعود بعد استدعائك لي يا أماه؟ كيف لا أعود وأنتِ الأم الحنون الرؤوم، وقد تربيت في حضنك، ونهلت من علمك، وتعلمت منك كل شيء في هذه الحياة؟!

ربتت العجوز عليها، والحنين يطل من عينيها، ثم قالت بهدوء:

– أتدريين لماذا أرسلت في استدعائك يا سباح؟!

لاذت التميمية بالصمت، فهزت الكاهنة العجوز رأسها، واسترسلت بالقول:

– أقول لك يا بنيتي، لقد دعوتك إلى هنا لسبب واحد دون سواه. لن أقول لك لأنني أحبك، فأنت تعرفين، ولن أقول لك لأعتذر منك لأنني طردتك من الدير، فأنت تقدرين كل الظروف، ولن أقول لك أي شيء آخر سوى الحقيقة.

تساءلت سباح بحذر:

– لماذا يا أمتا الكاهنة استدعيتني إذن؟!

تهتت العجوز الضامرة، وأطلت بعينيها الخيفتين قائلة:

– آه يا سباح... لقد آن الأوان يا بنيتي.

ثم سكنت عن الكلام، ونظرت لأعلى كأنها تنتظر أن يهبط عليها الوحي من السماء. عندئذ سألتها سباح:

— لم أفهم شيئاً... ماذا تقصدين بأنه آن الأوان؟!

زفرت الكاهنة العجوز، وتنفست ببطء وثقل، وتكلمت بصوت رجالي متحشرج:

— أتدريين لماذا رفضت عودتك للدير بعد ما حدث لزوجك أبي كحيلة؟!
بدا الأسى على وجه سباح، وغمغمت بحسرة:

— لا أدري السبب، لكنك كسرت بخاطري، وقد كنت وقتها في أسود أيامي، وأسوأ حالاتي، وفجعتني في مصرع زوجي كبيرة... رملتني ودمرتني. لقد بترت يد الموت أعظم جناح كنت أملكه، ما عدت أستطيع التحليق بدونه، حتى القفز صار متعباً!

انتظرتك أن تواسيني وتؤنسيني وتسانديني وتأخذيني إلى الدير، لكنك للأسف لم تفعلي.

— لا تغضبي يا بنيتي، لعلك لا تعرفين السر الذي بسببه رفضت عودتك للدير.

– ما هو السر أيتها الكاهنة الأم؟!

– السر هو أنك لن تكوني أبدًا كاهنة!

– ولماذا يا أمنا؟ أما زلتِ تذكرين ما حدث في الليلة الممطرة بيني وبين أبي كحيلة داخل قلايتي بالدير؟!

تبسّمت الزراء، فبدت أسنانها البيضاء ناصعة، وتجاوّد الزمن على وجهها وعنتها كأنها شقوق في أرض جرداء تشّتاّق للماء، ثم قالت:

– ستكونين في درجة أعلى، ومكانة أرقى من الكاهنة يا سباح.

– وهل هناك درجة أعلى من الكاهنة؟!

– نعم يا جميلة بني تميم وبني تغلب، النبّية أعلى درجة من الكاهنة، وأنتِ ستكونين نبّية هذا الزمان، من أجل هذا استدعيتكِ يا سباح!

دهشت التّمية، وألجمتها المفاجأة، وفغرت فاهها، وهي لا تصدّق ما تسمع، ثم سألتها بتعجب:

– نبّية... نبّية هذا الزمان... أنا أيتها الكاهنة؟!

– بالطبع يا سباح، أنتِ ستكونين نبّية هذا الزمان.

– ولكن لم نسمع من قبل – أيتها الكاهنة – عن نبوة للمرأة على مر الأزمان.

– ستكونين أنتِ أيتها التميمية أول وآخر امرأة نبيّة على وجه الأرض، وعلى مر الأزمان.

– لا أصدق ما أسمع.

ضحكت الزبراء، وقالت بثقة:

– تلك مكائتكِ العلية التي ستكونين عليها بين القبائل العربية. أنتِ النبية، عليكِ أن تؤمّني بنفسكِ ليؤمن بكِ قومك، وأقوام آخرون، ومن بعدهم العرب أجمعون.

شردت قليلاً تفكر فيما تسمع، فعادت الزبراء تقول بإصرار:

– تلك هي وصيتي لكِ، وأنا على أعتاب النهاية، فلا تخذليني أيتها النبية.

تبسمت سباح، وأعجبها القول، وتملّكها الزهو بذاتها، وسألتها بدهشة:

– وهل سيصدقني أحد أيتها الكاهنة المخضّمة؟!

برقت عيناها بجدة، وحلّقت ببصرها إلى أعلى، وهتفت:

– أرى بعيني زرقاء اليمامة الرجال من حولك بالألوف، يحملون
السيوف، ويصنعون جيشًا جرازًا يحرسك ويدافع عنك، ويحارب من
أجلك الأعداء الناكرين المستكرين لدعوتك. سيكون الملك لك يا بنت
التميمي، وستدين لك الرقاب، وتجلسين على كرسي المجد، وسيخضع
لأمرك قبائل العرب وفرسانها، ويلتمسون رضاك!

– هذا كلام عجيب يا أمنا الكاهنة، لا أصدقه.

– صدقيني أيتها النبوة التيمية، وارجعي إلى أمك منتهى بنت القيسي- بن
تغلب، كي تذكرك بحلمها القديم الذي روته لي بنفسها قبل سنوات، وأنت
ما زلت في المهد صبية.

– ولماذا لا تذكريني أنتِ به الآن أيتها الكاهنة؟!

أغمضت الزبراء عينيها الواسعتين المتوحشتين، عساها تستدعي الماضي
من دهاليز الذاكرة، وتحكي لها عن حلمها البعيد الذي سمعته ذات يوم من
أُمها منتهى بنت القيسي، ثم صاحت:

– قالت لي أمك: حلمت أن ابنتنا سباح تمتطي حصانًا أسود اللون،
قوي البنيان، عربيًا أصيلًا، وهي بكامل زينتها وملابسها الثمينة الزاهية،
وحول عنقها وفي معصمها أساور ذهبية، وتصعد إلى السماء بفرسها

الرهوان الجموح، وتقترب من النجوم وتكاد تلامسها، ثم تمد يدها لتلتقط أقرب نجمة ترصع صدر السماء، لكن فارسًا مغوارًا ملثماً بملابس بيضاء، فوق حصانه الأشهب، وفي يده سيفه البتار المسلول، وكلما حاولت سجاح أن تمد يدها لتلتقط تلك النجمة اللامعة في السماء ببريق وضاء، مد الفارس المغوار سيفه ليحول بينها وبين ما تريد، ويمنعها من هدفها المنشود.

سألتها بجذر وتوجس آنذاك:

— ومن يكون هذا الفارس يا أم سجاح؟!

قالت أمك:

— لا أدري... كان مُلثم الوجه بطرف عمامته البيضاء، ولا يظهر من وجهه ورأسه سوى عينيهِ الواسعتين الجريئتين، وبنيانهِ القوي المتين، ولم أتبين منه سوى صرامته وحسمه في التصدي لسجاح بعناد، ومنعها من أن تبلغ ما تبغي.

ثم سألتها:

— وهل تراجعت سجاح؟!

قالت أمك:

— كلما حاولت مرارًا أن تفعل، مد سيفه ليمنعها. كانت متعلقة بتلك
النجمة بشغف، كطفلة تتعلق بدمية تحبها، ولما منعها بكت بدموع حارة.

سألتها:

— وماذا حدث بعد ذلك؟!

قالت أمك:

— الفارس المغوار قوي البنيان حذّرها بسيفه الصارم، وعندما لم ترجع ولم
ترتدع، مد سيفه ووضعه على عنقها، بصله الحاد المسنون اللامع،
وهدهدها إن لم ترجع عما في رأسها، وتترك نجوم السماء في حالها...

ثم سكنت فجأة، وتملكها الحزن والأسى... فسألتها:

— وماذا فعلت سباح مع هذا الفارس المجهول؟!

قالت أمك منتهى:

— تراجعت سباح قليلًا خوفًا وفزعًا، وتعهّدت له بأنها لن تقترب من هذه
النجوم، ثم سألته: من أنت؟ أمط اللثام عن وجهك حتى أراك.

سكنت الزبراء، وتتهدت سباح، وقالت بصوت مبحوح:

– شيء عجيب!

تمت الزبراء بنبرة رجاء:

– الآن عليك بالوصية... أنتِ النبية أيتها التميّة، هنيئًا لكِ، المجد لكِ
وحدك يا سباح... لا قبلكِ ولا بعدكِ امرأة نبيّة.

(36)

3 أغسطس

أرض اليمامة / القدس

9 هجرية / 630 م

في تلك الأثناء، ذاع صيت رجل يُدعى مسيلمة بن حبيب من قبيلة بني حنيفة. وُلد هذا الرجل الداهية في أرض اليمامة بوسط الجزيرة العربية، وعاش في كنف الكنيسة منذ طفولته الأولى، وكان حريصًا منذ صغره على أن يعلّق صليبا كبيرا من الفضة اللامعة في عنقه يتدلى على صدره، ويردد دائما الآية التي وردت في الإنجيل:

– (إذا أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع كل أملاكك، وأعطِ الفقراء والمحتاجين، فيكون لك كنز في السماء).

عاش طفولة بائسة قاسية؛ حيث توفيت أمه وهو ما يزال صبيا في الخامسة عشرة من عمره. وفي عام 601 ميلادية، ذهب إلى القدس، واستقر بها لمدة عامين كاملين. ظل خلال تلك الفترة يتردد على كنائسها العتيقة، ويضع خطاه حيث مشى المسيح عليه السلام.

وهناك تعلّم اللغة اللاتينية وأتقنها ببراعة، ودرس الكتاب المقدس، وتعلم على أيدي قساوسة مخلصين للمسيح والإنجيل؛ فقد كانت له

ذاكرة لاقطة تحفظ بسرعة وتخزن ما تسمع، ونقرأ بسهولة، وعنده ذكاء حاد.

في تلك الفترة من عمر العرب والجزيرة العربية، سادت أنباء عن نبي يأتي برسالة من السماء، أخبر عنه عيسى- بن مريم، أو يسوع الناصري، كما يحلو لأهل القدس أن يطلقوا عليه.

وقد ظلت فئة كثيرة من الرهبان يتربون ظهور هذا النبي الذي تحدث عنه الإنجيل، وكل واحد منهم يُمّتي نفسه بأن يكون هو النبي الموعود والرسول المنتظر.

وفي عام 603 ميلادية، عاد مسيلمة بن حبيب الحنفي إلى جزيرة العرب، ولكنه لم يستقر في أرض اليمامة مسقط رأسه، بل ذهب إلى بلاد عُمان، وأقام هناك على شاطئ الخليج، وعمل بحارًا في السفن والبواخر التجارية بين عُمان وبلاد الهند.

وعندما تحسنت أحواله المالية، وادّخر مبلغًا كبيرًا، تزوج مسيلمة من هاجر بنت سعد من بني تميم، وأنجب منها ثلاثة ذكور هم: (حبيب، وشرحيل، وثمامة). وفي تلك الفترة، وتحديدًا بين عامي (608 م

حتى 611 م)، انخرط في تدخين القنب الهندي بشرائه، وقد تعلم تلك العادة السيئة وتعلق بها خلال وجوده في بلاد الهند.

وبعد سنوات طويلة من تلك الرحلة المرهقة من الترحال، وتحديدًا في مطلع سنة 628 ميلادية، عاد إلى اليمامة مسقط رأسه، وقد وجد أنها اختلفت كثيرًا عما كانت عليه وقت أن غادرها صبيًا صغيرًا إلى القدس. ولاحظ مسيلمة أن عددًا كبيرًا من نصارى قبيلته (بنو حنيفة) دخلوا في الإسلام، بما في ذلك ابن عمه الأمير ثامة بن آثال الحنفي، الذي كان مسيحيًا راسخًا في النصرانية، ولكنه اعتنق الإسلام فجأة.

وعندما استقر به المقام في اليمامة، وطابت له الأحوال، عاد مجددًا للعمل في الكنيسة، لكنه لاحظ أمرًا غريبًا، ألا وهو شكوى القديسين والرهبان والقساوسة من تسرب الكثيرين من نصارى أهل اليمامة إلى الإسلام.

لا بأس... تدور عجلة الأيام، وتقفز - كعادتها المذمومة - إلى الأمام، وهو عاكف على المسيحية، وأغلب وقته يقضيه في التبعّد بالكنائس والأديرة بين الرهبان والقديسين والقساوسة. منذ صغره وهو يحب تلك الأجواء وينسجم معها.

سارت الأمور على ما يرام، حتى حدث أمر غريب غيّر مسار حياته تمامًا. وتحديدًا في سنة 631 ميلادية، دفعه جنون الفضول وحب الاستطلاع إلى أن يذهب، معلّقًا صليبه الفضي- اللامع، بصحبة زمرة من المسلمين من أبناء قبيلته بني حنيفة، إلى المدينة ليبيعوا محمدًا.

وهناك بالفعل بايعوه وأخلصوا البيعة، وارتضوا به نبيًا رسولًا، وأعلنوا أنهم ملتزمون بكل ما جاء به من رب السماوات والأرض، يُحلّ لهم ما أحله الله ورسوله، ويُحرّم عليهم ما حرّم الله ورسوله.

إلى هنا، والأمور لا بأس بها؛ جماعة من قبيلة بني حنيفة أسلموا وبايعوا النبي، لكن هل فعل مسيلمة مثلما فعل أبناء قبيلته؟!

لقد وقف مسيلمة شاخصًا كصمّ أصم، يراقب ما يحدث، ولم يبايع النبي، مثلما بايع أبناء قومه.

وانزوى به أحد أبناء عمومته في ركن هادئ، وسأله:

— يا مسيلمة... ها هو النبي محمد أمامك، ونحن جميعًا بايعناه، فلماذا لا تقترب منه وتبايعه يا رجل؟! تلك فرصة من ذهب، فلا تضيعها!

قال مسيلمة:

— لن أبايعه إلا بشرط واحد.

سأله الرجل:

— وما هو شرطك هذا؟!

قال مسيلمة:

— أريده أن يُشركي معه في النبوة، كما أشرك موسى أخاه هارون معه في النبوة من قبل.

عندئذ سمع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قول مسيلمة، فشق الزحام، وسار إليه في الركن المنزوي، وأمسك عرجونًا صغيرًا من الأرض، وقال بصوت مسموع للجموع المحتشدة:

— والله الذي بعثني بالحق يا مسيلمة، لئن سألتني هذا العرجون ما أعطيته لك.

عندئذ سمع ورأى وفد اليمامة ما قاله الرسول ردًا على شرط مسيلمة، فخرج غاضبًا، وعاد إلى أرض اليمامة مستنفّرًا، ولم يبائع النبي، ولم يدخل في الإسلام، وظل على نصرانيته، وإن اتوى أمرًا أضمره في نفسه وعزم عليه، ولم يفصح عنه لأحد.

وهناك في أرض اليمامة، سأله الناس من قومه فور عودته، وفي الكنائس والأديرة عمّا دار بينه وبين محمد في المدينة، فأخبرهم بأن محمدًا قد يُشركه معه في النبوة، وأنه عرض عليه الأمر، لكنه ما زال يفكر. لكن بعض الناس الذين كانوا في الوفد من أهل اليمامة، وشهدوا الواقعة، أنكروها تمامًا، وأعلنوا على الملأ في ديار بني حنيفة أن مسيلمة يكذب.

وظل مسيلمة بن حبيب شاردًا يفكر في أمر نفسه: أيبقى على نصرانيته، ويعتزل الناس، ويعتكف في الكنائس والأديرة، أم يحارب محمدًا ويُناوئ الإسلام والمسلمين؟!

في نهاية الأمر، هداه شيطانه إلى فكرة جهنمية، ربما تأتيه بما يشتهي، وتحقق له مأربه؛ فأرسل رسالة إلى الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، حملها عبد الله بن النواحة، جاء فيها:

— (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، ألا إني أوتيت الأمر معك، فلك نصف الأرض ولي نصفها، ولكن قريشًا قوم يظلمون).

يبدو أن تلك الرسالة أثارت غضب النبي، حتى طال الغضب عبد الله بن النواحة، مبعوث مسيلمة، فسأله:

— وأنت تقول مثل ما يقول مسيلمة؟!

قال ابن النواحة:

— نعم.

فقال النبي:

— أأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وخاتم الأنبياء؟!

قال ابن النواحة:

— أشهد أن مسيلمة رسول الله.

فقال النبي:

— آمنت بالله ورسله، ولو كنت قاتلاً رسولاً، يا ابن النواحة، لضربت عنقك... في يوم من الأيام — أراه قريباً وتراه بعيداً — سيضرب أحد من المسلمين عنقك بسبب شركك هذا، ليس هنا، ولكن هناك في ديارك.

وبعد أن اطلع النبي على فحوى الرسالة الغريبة، رد عليها برسالة أخرى جاء فيها:

— (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد... إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

عندما وصلت تلك الرسالة إلى مسيلمة، غضب غضباً شديداً، وقرر أن يتحدى النبي، فأعلن على الناس أنه نبي مرسل، يأتيه الوحي من السماء. وتجمهر حوله عدد كبير من ضعاف النفوس من الدهماء، وصدقوه وآمنوا به، وقد استطاع بدهائه، وحسن حديثه، وسجع كلامه، وخبرته الطويلة بين الكتب القديمة في الأديرة والكنائس أن يخدع الكثيرين. وأطلق على نفسه اسم «الرحمن»، ودعا أنصاره وأتباعه أن ينادوه باسم النبي مسيلمة، رحمن اليمامة.

ولم يكتف بهذا القدر من الخداع وأعمال الدجل، بل تمالى في غيئه، وزعم أنه يأتي بالمعجزات، ولديه كرامات لا تقل عن كرامات ومعجزات محمد بن عبد الله، ولكن الله خذله وأظهر كذبه، والتصق به لقب «الكذاب».

وذاث يوم؁ اءءءء ءوله أنصاره؁ وقال له أءءهم:

— يا مسيلمء... ألا ءقول إنك نبى الله؟!

— بلى.

— لم نر منك ءقى الآن كراماء ولا معجزاء الأنبياء؁ مثل كراماء
ومعجزاء محمد!

أطرق وشرء قليلاً يفكر؁ وكانوا يءلسون ءمبباً ءوله ءء ظل نءلة
سامقة؁ ببوار بر ماء ممءلى عن آءره؁ فبصق أمائم فى البر؁
فعااض الماء وءف فى لءطاء!

قال لهم أءءهم مءعجباً:

— ماذا فعلاء فى البر يا مسيلمء؟! لءء ءلاشى الماء وءف عن
آءره! ءلك لىسء من المعجزاء؁ إنها لعناء يا رءل!

وفى ءلك الأءناء؁ ءاء أءء أءباعه بولديه لىبارءهما له؁ فمسء مسيلمء
ببءه على رأس الأول؁ فسقط شعره فى الءال وصار أقرع!

أما ءاانبى؁ فقء ءبله مسيلمء وربء عليه برفق؁ وقال له:

— يا أيها الفتى الوسيم، قل: إن مسيلمة بن حبيب الحنفي نبي الله
ورسوله.

حاول الفتى أن ينطقها، لكنه تلعث ولم يستطع؛ أُصيب فجأة بشلل في
لسانه، كأن به عقدة تمنعه من النطق!

وزاد مسيلمة على ذلك حين قال له أتباعه:

— إن محمدًا يقرأ قرآنًا على أصحابه، يقول إنه يتنزل عليه بوحى من
رب السماء، ألا يتنزل عليك قرآن مثله؟!

شرد قليلًا، ثم قال:

— أنا أيضًا يتنزل عليّ الوحي بالقرآن.

قالوا:

— اقرأ علينا شيئًا مما تنزل عليك.

ارتبك وأطرق نحو الأرض، وهم صامتون يترقبون، وعيونهم لا تفارق
وجهه، ثم نظر إلى السماء، وارتجف قليلًا يمينًا ويسارًا، ثم قال:

— نزلت عليّ الآن سورة «الطاحات».

دهشوا، وهتف أحدهم:

— سورة الطاحنات! أسمعنا لنرى ما جاء فيها.

اعتدل مسيلمة في جلسته، وهم يتحلقون حوله في دائرة مغلقة، كأن على رؤوسهم الطير، وعيونهم مفتوحة بذهول، وأفواههم فاغرة على كامل اتساعها يترقبون.

تنحنح عدة مرات، وجرب حنجرته، ثم قال بصوت رخم:

— (والطاحنات طحنا، والعاجنات عجننا، والخايزات خبزنا، والثاردات ثردنا، واللاقيات لقما، عسلًا وسمنًا، لقد فضّلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمقبر فأووه، والباغي فناوئوه!).

لقد كان مسيلمة قد سمع قول الحق في سورة «الذاريات» وآياتها المحكمات، فأراد أن يقلدها ليقتنع أتباعه بأنه يتنزل عليه القرآن، وحاول جاهدًا أن يبدع شيئًا، فنطق بهزل الكلام فيما أسماه سورة الطاحنات، من وحي خياله وسجع كلامه.

أعجب به من أعجب من أتباعه الغاوين، وأنصاره الضالين، وصحبه المهوسين، ودهش البعض منهم، وضحك البعض الآخر، حتى صاح شخص ما:

— يا نبينا... أحسنت وصدقت. نريد أن نسمع سورة أخرى غير الطاحنات مما تنزل عليك من السماء، ولا تضنّ علينا بتلك الآيات.

أخذته العزة بالإثم، وتمادى في طريقه، وإن كان نفر من بينهم يعلمون أنها آيات شيطانية من بدع هذا الرجل الذي يتقن سجع الكهان، من طول إقامته في الكنائس والأديرة، لكنه قال لهم:

— لا بأس... سأتلو عليكم سورة أخرى.

صاح أحدهم بسرور:

— وما اسمها يا نبينا؟!

قال مسيلمة:

— آه... اسمها «الشاة»... سورة الشاة.

هتف آخر:

— لا بأس... أسمعنا تلك السورة يا أبا حبيب.

تبسم مسيلمة، وتملكه الفخر والغرور، وحقق فيهم بعيني صقر لئيم، ثم قال بصوت متهدج:

– (والشاة وألبانها، وأعجبها السود وألوانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حُرِّم المدق، فمالك لا تمعجون).

ثم سكت، ونظراته الحادة تراقب وجوههم، وتتفرس ملامحهم، عساه يستشف ما في نفوسهم، وهو يسأل نفسه في سره: أيصدقون هذا الكلام أم يكذبون؟!

لكنه اطمأن إلى أن أغلبهم تملكه العجب، وغمرته الدهشة، وإن كان فيهم من أدرك أن مسيلمة لا هو نبي ولا يحزنون، وإنما يتلاعب بالسجع، محاولاً تقليد سورة الليل.

وهتف آخر في نهاية الصفوف، مدفوعاً بسذاجته:

– زدنا يا مسيلمة، زدنا ولا تتوقف يا نبينا.

عندئذ تكلم مسيلمة مقلداً سورة الفيل:

– (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل).

هتف بعضهم، وتصالح البعض الآخر مبدين الإعجاب، فأحس
مسيلمة بنشوة الزهو، وكثرة الأتباع المؤمنين بخزعبلاته وأكاذيبه
وادعاءاته، فأنبرى يقول بحماس:

— ونزلت عليّ سورة أخرى.

— ما اسمها يا أبا حبيب؟!

— سورة الضفدع.

— الضفدع! أسمعنا ما جاء فيها، ولا تبخل علينا.

قال مسيلمة، أخزاه الله:

— (يا ضفدع يا بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء،
ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين).

وأخذته الحماسة، ونشوة الجماهير المتلهفة، فقال:

— سأتلو عليكم سورة أخرى نزلت عليّ أيضًا ليلة البارحة.

— وما اسمها يا نبينا؟!

— الجماهر.

هزروا رؤوسهم متعجبين، ورددوا:

— الجماهر... الجماهر!

قال مسيلمة معجبًا بذاته:

— (إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وجاهر، إن شائتك هو الكافر).

كان يحاول أن يقلد سورة الكوثر.

وبينما هم مجتمعون هكذا، دخل عليهم عمرو بن العاص، داهية العرب، وكان صديقًا لمسيلمة في تلك الأيام الجاهلية، ولم يكن قد دخل بعد في الإسلام، فسأله مسيلمة:

— أخبرنا يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم المكي — يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام — هذه الأيام؟!

قال عمرو:

— لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة، لكنها قصيرة.

سأله مسيلمة:

— أتذكرها يا عمرو؟!

— نعم، أذكرها، اسمها سورة العصر.

وسكت عمرو لحظات كأنه يستدعيها من الذاكرة، وقال:

— ﴿وَالْعَصْرِ - إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ -﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿﴾ [سورة العصر: الآيات 1-3]

فكر مسيلمة طويلاً، وغمغم وتمتم، ثم نظر إلى أتباعه الكثر من حوله، وقال:

— وقد أنزل عليّ مثلها.

قال عمرو:

— اقرأ علينا يا مسيلمة.

تنحنح والتقط أنفاساً عميقة، ثم قال:

— (يا وير، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرُك حقر نقر).

ولاذ بالصمت، يتفرس الوجوه، ويركز على ملامح عمرو، ثم سأله:

— ما رأيك يا ابن العاص؟!

ضحك عمرو، وقال:

— لا وبر ولا صدر. ما هذا بقرآن، إنه سخف بشر.. والله يا مسيلمة، إنك لتعلم أني أعلم أنك لتكذب.

ساد لغط بين الحاضرين، ممزوج بتعجب وغضب، مثل اللغط الذي يسود بين الدجاجات الجائعة في الحظائر المزدحمة. غمغموا وتمتموا، وباءوا بالسخط على عمرو بن العاص، واستهجنوا منه هذا القول، فhez رأسه وانصرف قائلاً:

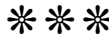
— غداً ستعلمون من الصادق ومن الكاذب.

إذا كان هذا حال عمرو، وهو رجل مشرك لم يبرأ من شركه بعد، لم يشته عليه حال محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه، وحال مسيلمة وكذبه، فكيف بأولي البصائر وأصحاب العقول والضمائر؟!

ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى — بسم الله الرحمن الرحيم —:

— ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ [الأنعام: الآية 93].

وكذلك من كذب بالحق المبين الذي جاء به الرسول الأمين، وقامت عليه
الحجج، لا أحد أظلم منه، حسب ما جاء في الحديث الشريف: «أشدُّ
الناس عذاباً يومَ القيامةِ: رجلٌ قتلَ نبيًّا، أو قتلَ نبيًّا، وإمامٌ ضلالةً، وممثلٌ
من الممثلين»



(37)

8 يونيو

المدينة المنورة

11 هجرية / 632 م

لم يكن هذا اليوم يومًا عاديًا كباقي الأيام، بل كان يومًا حزينًا؛ فيه أظلم كلُّ شيءٍ بالمدينة المنورة. يبكي يربوع، ويحكي ما حدث في هذا اليوم بالدموع:

قال وهو يجھش بالبكاء:

– عشتُ اليوم السعيد الذي دخل فيه رسول الله المدينة المنورة، ورأيتُ كيف أضاء كلُّ شيءٍ، وعشتُ اليوم الحزين الذي مات فيه، ورأيتُ كيف أظلم كلُّ شيءٍ.

وما نفضنا عن النبيّ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا، وقد أظلمت المدينة التي كانت المنورة – اسمًا على مسمّى – حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها، وغطّى الحزن والأسى كلَّ شيءٍ فيها من حجرٍ وبشرٍ، ودوابٍّ وإبلٍ، لموت الحبيب، وانقطاع خبر السماء عن الأرض إلى الأبد.

يقول يربوع، وهو يجھش بالدموع:

– آه من يوم الخميس، وما أدراك ما يوم الخميس!

ثم يتوقف عن الكلام، ويبكي حتى يبلل الحصى، فيقول له أحد الصحابة:

– يا ابن التميمي، ماذا يُكيك من يوم الخميس؟!

يقول بأسى ونبرة حسرة:

– في هذا اليوم، اشتدّ الوجع على أفضل خلق الله، وأطهر وأشرف من مشى على الأرض.

يقول الصحابي:

– إنّه عند حبيبه ربّ العالمين، فلماذا كلُّ هذا الحزن، وأنت لست من آل البيت، ولا من أقرب المقرّبين؟!

يجحف يربوع الدموع، ويردّ بالقول:

– إنّ المصيبة بموت النبيّ الأمين أعظم من كلّ مصيبة يُتلى بها المسلم بعده إلى يوم الدين، فقد انقطع الوحي، وتلاشت النبوة.

يواسيه الصحابي قائلاً:

– إنّ الرسول عليه الصلاة والسلام أدّى الأمانة، وأتمّ الرسالة، وصعد إلى جوار ربّه، فلا تبتئس يا تميمي.

في هذا اليوم المشهود، أظلمت المدينة المنورة، وساد الضجيج، واشتدّ الزحام بالقرب من دار النبيّ ومسجده، كزحام الحجّج وضجيجهم يوم الحجّ الأعظم.

وقد هرول يربوع إلى دار النبيّ حيث الزحام والضجيج، يستطلع حقيقة ما حدث بأمرٍ من عثمان بن عفّان، ولماذا كلُّ هذا الحزن الكبير، فقال له أحدهم:

— إنّ رسول الله قد مات.

أصابته الصدمة المفجعة كما أصابت الجميع، وأحسّ أنّه فقد روحه، وصار مجرّد جسدٍ يتحرّك بين الحشود بلا روح، ولم لا، وقد كانت الجمادات تتصدّع من ألم مفارقة النبيّ، فكيف بقلب المؤمن التقيّ؟!

ألم يئنّ الجذع الذي كان يقف عليه النبيّ ليخطب في الناس؟!
وتلك قطعة من خشبٍ أصمّ تحنّ إليه، وتشتاق، ولا تطيق الفراق؟!
استرسل يربوع القول بالدموع:

— إنّّه لم يرَ فراق الأحباب... ألم تكن رؤياه حياةً للنفوس والألباب؟

في ذمة الله ما ألقى وما أجد... أهذه صخرة تحنّ إلى النبيّ أم كبد؟!

في هذا اليوم العصيب، حزن أصحاب النبيّ عليه حزنًا شديدًا، حتى إنّ بعضهم كان يهذي، وقد كثرت من الذين حزنوا كثيرًا لدرجة أنّ دموعي لم تنقطع، ومرّ بي عمر بن الخطّاب وألقى عليّ السلام، فلم أشعر به لما بي من قهرٍ وانهيار.

طاشت عقول الكثير من الصحابة؛ فمنهم من أصابه جنون الإنكار، ومنهم من أقعده الخبر الحزين كالكسيح، ومنهم من أخرسه فلم يقدر على الكلام، وكان ابن الخطّاب رضي الله عنه من الذين أصابهم جنون الإنكار، بينما عثمان بن عفّان رضي الله عنه أُصيب بالخرس التام والعجز عن الكلام، وهو أقرب الناس إلى الفتى بحكم أنّه يعمل على تجارته وقوافله، ولا يفارقه إلا للنوم.

أمّا الإمام عليّ بن أبي طالب فقد قعد عن الحركة، ولم يستطع القيام، وشعر عبد الله بن أنيس بصدمةٍ مباغتةٍ لم يحتملها قلبه الضعيف، فمات كمدًا وحسرةً على فراق النبيّ.

إنّ المصاب جلل، والفقيد عظيم، وها هي المصيبة أذهبت عقول الأشدّاء من الرجال، وعلّية القوم من الصحابة المقرّبين المكرّمين،

وأذهبت الصدمة عقول الحكماء منهم، لدرجة أن الفاروق عمر لم يصدق رحيل النبي، وصاح في الناس المتجمهرين، وقد استل سيفه من غمده مهدداً ومتوعداً.

قال وهو يلوح بسيفه:

— إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن الرسول قد مات! لا... الرسول لم يمت، بل ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وغاب عن قومه أربعين يوماً، ثم عاد إليهم بعد أن ظنوا أنه مات. والله ليرجعن رسول الله، ولأقطعن أيدي وأرجل من يزعمون أن الرسول مات.

إذا كان هذا حال عمر بن الخطاب القوي الشديد، فكيف بحال غيره من الصحابة الأكرمين؟!

وظلّت الأحوال مضطربة، واختلط الحابل بالنابل، حتى جاء أبو بكر الرفيق الحبيب إلى النبي، أشدّ الخلق حباً للرسول، وأقرب الرجال إلى قلبه، وثاني اثنين، وكان وقتئذٍ بالعوالي من المدينة، فلما بلغه النبأ الحزين، أقبل على فرسه، ونزل عند مسجد رسول الله، ولم يكلم الناس الذين تراحموا بشدة، ثم دخل دار ابنته عائشة أم المؤمنين، فوجد الرسول مسجى في فراشه، ومغطى بثوبٍ طويل، فمدّ يده

بجذرٍ ورفق، وكشف الغطاء عن الوجه الشريف، والنور يشع منه،
فانحنى الصديق عليه، يقبل رأسه وجبينه، ثم بكى وقال:

— بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أمّا
الموتة التي كتبت عليك فقد ممّتها اليوم.

وخرج حزينا مطأطأ الرأس، فوجد عمر في كامل غضبه وثورته،
شاهرا سيفاً لأعلى، يصيح في الحشود من حوله، بينما الناس يتمتّون
أن يكون كلامه حقاً، وأنّ الرسول ما زال على قيد الحياة.

حينئذٍ قال أبو بكر بصوتٍ هاديٍّ رزين، فيه شجنٌ حزين:

— هدّئ من روعك يا عمر.

ساد الصمت، وتطلّعت كلّ العيون إلى ما سيقوله الصديق، الذي
التفت إلى الناس وقال:

— أيّها الناس... أيّها الناس... من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات،
ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت أبداً.

ثم قرأ عليهم آياتٍ من سورة آل عمران:

— بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ
فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

وعندما سمع عمر قول أبي بكر، وضع يده على وجهه وبكى بحرقة،
وذهب عنه ما كان فيه من ثورة وجنون، وحلّ الحزن الهائل في
قلبه.

قال وهو يبكي:

— والله ما كدتُ أسمع قول الصديق يتلو تلك الآيات حتى كدتُ
أهوى على الأرض، ولم تعد تحملني قدماي، وأدركتُ أنّ النبيّ فعلاً
قد مات.

عندئذٍ واساه أبو بكر واحتضنه برفق، واصطحبه معه، ودخلا سوياً
على أمّ أيمن يتفقّدان حالها بعد وفاة النبيّ مباشرة، فوجداها تبكي بكاءً
مريئاً.

قال لها أبو بكر:

— ما يُبكِيكِ يا أمّ أيمن؟ ألا تعلمين أنّ ما عند الله خيرٌ لرسوله؟!

قالت من بين دموعها:

— بلى... أعلم أيها الصديق، ولكنّي أبكي لأنّ الوحي انقطع بموت النبيّ.

هاجت مشاعر أبي بكر وعمر، وانخرطا في النحيب، وبينما هما على تلك الحالة، تناهى إلى أسماعهما صوت بلال الذي صعد إلى أعلى المسجد النبويّ قبل دفن النبيّ، وأذنّ في الناس ليعلموا بالأمر الجلل الذي وقع، وعندما قال بصوته العذب الخاشع:

— أشهد أنّ محمّداً رسول الله...

ارتجّ المسجد بالبكاء، كأنّه زلزالٌ كبيرٌ من الحزن أصاب أرجاء المسجد النبويّ الشريف وجدرانه، والمدينة بأسرها.

وبعد دفن الرسول، بكت فاطمة بنت النبيّ، وقالت لأنس بن مالك لائمةً:

— يا أنس... أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟!!

ردّ عليها بالقول، وصوته مبحوح من كثرة الحزن:

— يا فاطمة، إن جزعتِ فذاك عذر... وإن لم تجزعي ذاك السبيل.

لقد عظمت مصيبتنا وتجلّت... عشية قالوا مات الرسول.
وأضحت أرضنا ممّا عراها... تكاد جوانبها بنا تميل.
فقدنا الوحي فينا والتنزيل... يروح ويغدو به جبريل.
وذاك أحقّ ما سالت عليه... دموع الناس، وستظلّ تسيل.

(38)

10 يناير

المدينة المنورة

12 هجرية / 633 م

لم يكن بالإمكان تثبيت أركان الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وفي خلافة الصديق رضي الله عنه، بينما الدول المجاورة لها تجعل من حدود بلاد المسلمين مرتعاً للعملاء، وبؤراً للتشويش، وبثّ الجواسيس، ونشر البصّاصين، وتخفيض عمّالهم على التمرّد على سلطة الدولة الإسلامية التي أرسى دعائمها نبيّ الله.

لقد أدرك الخليفة أبو بكر وأصحابه أنّ الحرب الاستباقية على هؤلاء الأعداء، الذين يستهدفون النيل من الدولة الإسلامية، ستحقّق تأمين الحدود، كما تضمن نشر- تعاليم الإسلام كعقيدة ودين ومنهج حياة للناس أجمعين في بقعة أكبر من الأرض، ويتّسع نطاق الدولة، ويكبر حجمها، وتقوى شوكتها، وينشط اقتصادها، ويزيد صيتها، وتصبح لها هيبة تخشاه الدول الأخرى المناوئة لها.

تحت هذه المبرّرات والحيثيات، أعدّ الصديق أبو بكر رضي الله عنه العدة، وجمّز الجيوش، وعيّن القادة على الجند من أجل فتح البلاد والأمصار، ورفع راية الإسلام في كلّ مكان.

وقد وقع اختيار أبي بكر خليفة المسلمين على خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، ليكون على رأس الجيش المتّجه لفتح بلاد العراق، وكان معه عديّ بن حاتم الطائي، وضرار بن الخطّاب، والمثنّى بن

حارثة الشيباني، ولم تكن صدفةً أن يكون ضمن صفوف هذا الجيش يربوع التميمي شقيق سجاح.

استأذن التميمي موله عثمان بن عفّان أن ينخرط في صفوف المسلمين للجهاد في سبيل الله، فأذن له عثمان بكلّ سرورٍ وترحاب، ودعمه بالمال والسلاح.

لقد اختار يربوع أن يناضل في أرضه التي يعرفها، وعاش فيها معظم سنوات عمره، وخبر دروبها وشعابها وجبالها، وعرف أهلها وعشائرها وبطون قبائلها كما يعرف نفسه تمامًا.

كما وقع اختيار خليفة رسول الله على أبي عبيدة بن الجراح ليكون قائدًا للجيش المتّجه لفتح بلاد الشام، وكلّف عمرو بن العاص أن يتبع أبا عبيدة بالمدد، ويكون له خير سندٍ في تلك المهمة الجسيمة.

وقد تمكّن هؤلاء القادة الأبطال من تحقيق انتصاراتٍ كبرى في العراق والشام على دولتي الفرس والروم في آنٍ واحد.

وكانت أهمّ الوصايا الاستراتيجية من الخليفة لجيوش المسلمين، هي ما قاله الصديق أبو بكر لعمر بن العاص حين كتب إليه:

— إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور في أمر الحرب، فعليك به.

واعتمدت الشورى كآلية عمل لوضع الأسس والقواعد في العمل الحربي في هاتيك الظروف والأيام، وفُتحت مدنٌ كثيرة، وأصبحت تخضع لسلطة الدولة الإسلامية.

ومن المدن التي فتحها المسلمون في بلاد العراق — التي كانت خاضعة لسلطان كسرى، حاكم الدولة الفارسية — مدينة فرج الهند، المعروفة عند المسلمين بالبصرة، ومدن (باتقيا، باروسما، أليس، أمغيثيا، والحيرة)، بقصورها الضخمة الفخمة كالخورنق والسدير، بالإضافة إلى بعض المناطق في الأنبار.

وكانت معارك الفتح الإسلامي ضارية، شديدة الوطأة، بقيادة سيف الله خالد، الذي بسط نفوذ الدولة الإسلامية على معظم مناطق العراق، غرب نهر الفرات بالقرب من ديار بني تميم، وغنم المسلمون خلالها غنائم هائلة، ومن أهم تلك المعارك التاريخية ضد الفرس: معركة كاظمة، ومعركة المذار، وموقعة الوجة.

ودفع الفرس وأتباعهم من نصارى العرب الجزية للمسلمين وهم صاغرون، حتى بلغت الأموال التي حصدها الفاتحون عشرات الآلاف من الدينار، وملايين الدراهم، وغيرها من المكاسب التي تدعم الخزينة المركزية للدولة (بيت المال)، ونال المسلمون الكثير من السبايا والمغانم.

كما تمكن الجند خلال تلك المعارك من قتل عشرات الآلاف من الفرس والنصارى، وعلى رأسهم كبار القادة، وكان النصر- مؤزرًا للمسلمين.

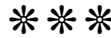
أما في بلاد الشام — التي كانت تحت سلطة دولة الروم — فقد تمكن جيش المسلمين من فتح عدة بلدان، مثل: (البلقاء، تدمر، الحواريين، بصرى).

وزحفت قوات المسلمين، رافعة راية (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، حتى وصلت بها إلى حدود دمشق، وتخوم فلسطين.

كما خاضت الجيوش الإسلامية معارك شرسة ضد الروم في بلاد الشام، ولعل أهمها: (أجنادين، واليرموك)، وانتصر- فيها المسلمون بفضل الله نصرًا عزيزًا مؤزرًا، وغنموا الكثير من المكاسب، وقتلوا

أعدادًا كبيرة من علوج الروم، وفي مقدمتهم قادتهم من أصحاب
الرؤوس الكبيرة والمناصب الرفيعة.

ثم تدور الدوائر على المرتدين عن الإسلام، وأولهم قبائل بني تميم،
ومسيلمة بن حبيب الذي ادّعى النبوة، واستقطب الآلاف من
المرتدين، وحرّض الناس على الردة، وشكّل جيشًا لمحاربة المسلمين.



(39)

3 فبراير

جزيرة الفرات بالعراق

12 هجـرية / 633 م

ادّعت سجاح التميمية النبوة، وصدحت بها بين الناس بجرأة تُحسد
عليها، وأعلنتها على الملأ فصيحة صريحة، وقالت إنها نبية يأتيها الوحي

من السماء، واجتمعت عليها قبائل من أخوالها بني تغلب، وقبائل من بني تميم، وكان فيما ادّعت أنه نزل عليها الوحي بالقول:

— (يا أيها المؤمنون المتتقون، لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قریشًا قوم يبعون).

كما قالت لقومها وعشيرتها، ولكل من صدقها وسار في ركبها:

— إن النبوة لي، والملك لكم، والهدف السيطرة على المدينة المنورة. وكان مؤذنها شابٌ ثلاثيني، أسمر البشرة، نحيل العود، ضامر الوجه، يُدعى (شبيب بن رباعي الرياحي)، يطلق لحية سمراء كثيفة الشعر، وله نظرات حادة، وأنف رفيع ممدود كالبومة، وبدأ يؤذن لها على الملاء بالقول:

— أشهد أن سجاح نبيه الله.

كما اتخذت سجاح حاجبًا لها أيضًا، وأطلقت على الله سبحانه وتعالى (رب السحاب)، وعُرفت بين الناس بكلامها المسجوع، وتقول لهم إنها يُوحى إليها، وقد كانت تجيد القراءة والكتابة، وهذا أمر نادر في زمانها، كما كانت أيضًا فصيحة القول، بليغة البيان، حادة الذكاء، شديدة الدهاء، لها شخصية قوية أسرة مسيطرة.

وعندما أذن لها مؤذنها المختار (شبيب بن ربيعي الرياحي)، ونادى في القبائل وبين الديار، تبعها جمع غفير من الناس، ومن عشيرتها أيضًا، وبعض من أكبر تميم، مثل: الزبرقان بن بدر، والأحنف بن قيس، وعمر بن الأهتم، وقيس بن عاصم، وعطار بن حاجب، الذي قال فيها شعرًا:

— أضحت نبيتنا أثى يُطاف بها ** وأصبحت أنبياء الناس ذكرانًا.

وتبعها آخرون كثر من بني أخوالها آل تغلب، وغيرها من القبائل العربية، حتى بلغوا أربعين ألفًا أو يزيد، فأقبلت بهم من جزيرة الفرات، تريد غزو أبي بكر الصديق في المدينة المنورة، والقضاء على دولة الإسلام والمسلمين التي أرسى دعائمها النبي الكريم، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه.

في تلك الأثناء كانت قبائل بني تميم قد اختلفت آراؤهم — أيام الردة — فمنهم من ارتد عن الإسلام ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الخليفة أبي بكر الصديق، ومنهم من توقف لينظر في الأمر.

وبينما هم كذلك على هذا الحال، أقبلت سجاح من الجزيرة الفراتية، وهي من نصارى العرب، وقد أعلنت أنها نبية، ومعها رهط كبير من جنودها وأتباعها ومن آمن بها، والتف حولها الرجال من القبائل شرقاً وغرباً.

لذلك كانت تسعى لإعلان الحرب بما تملك من رجال وسلاح، وتغزو المدينة، وتقضي على دعوة النبي محمد، وتهدم أركان دولته.

وكانت تظن — وإن بعض الظن إثم — أن موت النبي سيجعل أمر نهاية دعوته سهلاً ميسوراً.

لقد أغواها شيطانها، والأعداد الهائلة من الرجال حولها، وخاصة أسياد القوم وكبرائهم، وأمراء بني تميم، ومن بين هؤلاء رجل ذو مهابة وكلمة مسموعة ومكانة رفيعة في قومه، هو مالك بن نويرة التميمي، وعندما شاورته في أمر غزو المدينة، حذرها من فعل كهذا، وأقنعها بأن تقاتل الناس الذين امتنعوا عن تصديقها وأنكروا نبوتها، وهذا يكفي.

وكان هدفه استغلال قوة جيشها وأنصارها الكثير للقضاء على خصومه، ونجح بالفعل في أن يصرفها — ولو مؤقتًا — عن مهاجمة المدينة المنورة، ومحاربة بعض القبائل الأخرى.

وعندما سألته:

— بمن نبدأ المعارك يا مالك؟! —

قال بدهاء ومكر:

— قبائل الرباب هم الأكثر عداوة لك أيتها النبية التيمية.

انبرت قائلة بصوت حماسي، آمرة جيشها المتحفز للقتال:

— يا شباب، أعدّوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب.

وبالفعل دارت المعارك، ومُنيت سباح بهزيمة نكراء، وتكبد الطرفان خسائر فادحة، مما دفعها إلى الحوار والتفاوض معهم على وقف القتال، وتبادل الأسرى.

وقد سعت التيمية، بعد فشلها في إخضاع أهل الرباب، إلى السير نحو المدينة المنورة لمهاجمتها، ودعت قومها إلى مساندتها، لكنهم طلبوا

منها أن تؤلف بين قبائل تميم، وتدعوهم إلى دينها الجديد قبل الزحف نحو الحجاز لمحاربة المسلمين في عقر دارهم، لكن آل تميم لم ينفقوا على رأي واحد، واختلفوا فيما بينهم.

عندئذ خرجت بعناد وإصرار بجيشها الجرار إلى أرض النباج، غرب جزيرة الفرات، فتصدى لها (أوس بن خزيمة) بقواته الكبيرة، وهزمها، ومنع جندها من المرور في أراضيها باتجاه المدينة المنورة، ثم تصالح الطرفان، واتفقا على تبادل الأسرى، على أن تنصرف سجاج بجيشها، ولا تتخذ من أرضهم طريقًا إلى المدينة.

ثم قررت أن تسير إلى أرض اليمامة بجيشها، لتستولي عليها من مسيلمة بن حبيب الحنفي وأنصاره، فهابه قومها وقالوا لها محذرين ومنذرين:

— إن هذا الرجل خطير، يزعم أنه نبي، وقد استفحل أمره، وقويت شوكته، وعظم قدره بين أنصاره، ولا بد من هلاكه.

فقال لهم، أمرة بالحرب على مسيلمة وجنده:

— عليكم باليمامة، دَفِّوا دَفِيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة.

وبالفعل سارت بقواتها نحو أرض اليمامة لمحاربة مسيلمة والذين معه، وعندما سمع بأمرها وبقوة جيشها، خاف منها على نفسه وعلى بلاده، وكان مشغولاً — آنذاك — بمقاتلة (ثمالة بن آثال)، وقد ساعده عكرمة بن أبي جهل بجنود المسلمين، وهم نازلون ببعض بلاده، ينتظرون قدوم خالد بن الوليد، قائد جيش المسلمين، لمحاربة المرتدين بأرض العراق.

وفجأة وجد مسيلمة نفسه في وضع حرج، فقد خشي- أن تشغله سباح عن قتال جيش المسلمين بقيادة القائد الذي لا يُقهر، كما كان مسيلمة في ذات الوقت يتعرض لضغط هائل من القبائل المجاورة ليتوقف عن ادّعاءاته وأكاذيبه.

لذلك فكّر هذا الرجل الداهية في خطة جهنمية تكفيه شر سباح وجيشها الجرار، فأرسل يعرض عليها التفاهم والتعاقد، ما دام هدفها واحداً، وهو الزحف نحو الحجاز ومحاربة المسلمين، وانتزاع المدينة المنورة من بين أيديهم.

قد يبدو للوهلة الأولى أن تلك المرأة مدفوعة للسير في هذا الطريق الشائك بحميتها الدينية لمحاربة المسلمين، فهي بحكم عقيدتها النصرانية ناقمة على النبي محمد وأتباعه، وقررت ادّعاء النبوة والتبشير بدين

جديد، لكن هذين الدافعين كانا غطاءً سياسيًا، بينما الدافع الأساسي لادّعاءها النبوة وتحركاتها العسكرية كان طموحها الشخصي.

وإن كان طموحها الشخصي يأتي في المقدمة، وقبل كل شيء، دافعًا ومحركًا لها.

لقد كان بنو تميم الأقرب إلى نفوذ الفرس، ويعزز ذلك أن سباح اجتمعت بعملاء لفارس من أبناء البوادي العراقية والنجدية، كما كان مسرح عملياتها في المناطق التي كانت الدولة الفارسية تحرص على تجديد نفوذها القديم فيها باستمرار.

وساء ظن الأكاسرة، حكام بلاد فارس، بالمناذرة، ملوك الحيرة الذين كانوا صنائعهم، ويعتمدون عليهم في إخضاع القبائل العربية القريبة منهم والبعيدة، وتأمين تجارتهم إلى اليمن، فنكّلوا بهم، وقضوا على دولتهم.

وبعد ذلك أرسلوا امرأة تميمية لتخلف المناذرة في هذه المهمة، فتوجهت مدفوعة من الفرس وعملائهم في العراق كي تؤجج الثورة في جزيرة العرب على الحكم الإسلامي المتنامي، وتمهد الطريق لبلاد فارس من جديد لاستعادة نفوذها القديم.

ليس هذا فحسب، بل إن هذه المرأة التي ادّعت النبوة عاشت في الظل سنوات طويلة، وظلت مغمورة في الدير لا يعرفها أحد، حتى حانت اللحظة الحاسمة التي بشرتها بها الكاهنة الكبيرة الزبراء بنت رثام، في أن يكون لها شأن عظيم، ومجد لم تحققه امرأة أخرى قبلها، وما زال الحلم القديم يتردد صده على أسماعها وفي وجدانها، كأنه ترقية مريم العذراء للمسيح في مهده.

ها هي تسمع صوت أمها منتهى بنت القيسي، يتردد عميقًا من بعيد:

— حلمت أن ابنتنا سباح تمتطي حصانًا أسود اللون، قوي البنيان، عربيًا أصيلًا، وهي بكامل زينتها وملابسها الثمينة الزاهية، وحول عنقها وفي معصمها أساور ذهبية، وأراها تصعد إلى السماء بفرسها الرهوان الجموح، وتقترب من النجوم، فتكاد تلامسها، ثم تمد يدها لتلتقط أقرب نجمة ترصع صدر السماء، لكن فارسًا مغوارًا ملثمًا بملابس بيضاء، فوق حصانه الأشهب، وفي يده سيفه البتار المسلول، وكلما حاولت سباح أن تمد يدها لتلتقط تلك النجمة اللامعة في السماء ببريق وضاء، يمد الفارس الهمام سيفه ليحول بينها وبين ما تريد، ويمنعها من هدفها المنشود.

تقلصت ملامح زوجها الحارث، وتجهم مدهوشًا، ثم سألها:

- ومن يكون هذا الفارس يا أم سجاح؟!

- لا أدري، كان ملثم الوجه بطرف عمامته البيضاء، ولا يظهر من وجهه ورأسه سوى عينيهِ الواسعتين العميقتين الجريئتين، وبنيناه القوي المتين، ولم أتبين منه سوى صرامته وحسمه في التصدي لسجاح بعناد، ومنعها من أن تبلغ ما تبغي.

- وهل تراجعت سجاح؟!

- كلما حاولت مرارًا أن تفعل، مد سيفه لينعها، كانت متعلقة بتلك النجمة بشغف، كطفلة تتعلق بدمية تحبها، ولما منعها بكت بدموع حارة.

بهت الذي سمع، وتساءل بلهفة:

- وماذا حدث بعد ذلك؟!

- الفارس المغوار، قوي البنيان، حذرًا بسيفه الصارم، وعندما لم ترجع ولم ترتدع، مد سيفه ووضع على عنقها بنصله الحاد المسنون اللامع، وهددها لو لم ترجع عما في رأسها، وتترك نجوم السماء في حالها...

ثم سكنت أم سباح فجأة، وتملكها الحزن والأسى، فعاد الحارث يلح
بالسؤال:

— وماذا فعلت سباح مع هذا الفارس المجهول؟!

— تراجعت قليلاً خوفاً وفزعاً، وقالت له بأنها لن تقترب من هذه
النجوم، ثم سألته: من أنت؟ أمط اللثام عن وجهك حتى أراك؟!

لكنه تلاشى، كأنه سحب تذروه الرياح.

(40)

15 مارس

صحراء الجزيرة

12 هجـرية / 633 م

كان مالك بن نويرة من سادات قومه وأكابر بني تميم، وعندما أطلقت
سباح دعوتها وسط قومها، ومعظمهم كان مُعتنقاً للنصرانية، اختلف

الناس من حولها بين مستجيبٍ لها ورافضٍ لدعوتها، كما حدث الأمر نفسه عند قبائل بني تغلب أخوالها.

ومن أهم الشخصيات التي لبّت نداءها واستجابت لدعوتها، هو مالك بن نويرة، الذي ترك النصرانية، وآزر التميمية بكل قوة، ولم يكن هذا التحول في حياته عن إيمانٍ حقيقيٍّ بما تدعيه فاتنة بني تميم سجاح بنت الحارث، ولكنه وقع في حبها، ولم يستطع الفكك من أسر سحرها وفتنة جمالها.

وكثيراً ما كان يتردد عليها في خلواتها بخيمتها، وهي بحسّ الأنثى ومكرها، وحاستها السادسة، أدركت أنها استقرت في قلبه، وسيطرت على مشاعره، وكان مالك ذو هيبةٍ ووقار، وعلو شأن بين قومه، ومن أثرياء القبائل، وأكثرهم مالاً وجوداً، ولم يُبح لسجاح بحقيقة حبه لها، وإنما كتمه في قلبه، واكتفى بالقرب منها أملاً في أن تشعر به وتبادلّه حبّاً بحب.

وإن كانت سجاح تحس بكل شيء، ولا يخفى عليها شيء، وتعرف أنه يحبها بجنون، وشغوف بها لدرجة العشق.

لكن مالك له زوجة جميلة غيورة تُدعى رغد (أم تميم)، لا تطيق لزوجها أن يقترب من أنثى غيرها، وقد لاحظت أن زوجها يكثر الحديث عن سجاح، ويهتم بشؤونها وأخبارها، ويتقرب إليها بشكل لافتٍ للنظر، فاشتعلت في قلبها نار الغيرة.

إذا كان الرجل تحركه الغريزة، فإن المرأة تحركها الغيرة... تلك حقيقة لا شك فيها.

سألته يومًا، وهي غاضبة، أن يتوقف عن الاهتمام بسجاح، وطلبت منه أن يبتعد عنها نهائيًا، ولا يختلي بها في خيمتها لأي سببٍ كان؛ لأنها أرملة حسناء وعيونها على الرجال من حولها، وهو أول هؤلاء الرجال.

استنكر مالك غيرة زوجته وشكوكها الدائمة، ولم يُعربها اهتمامًا كافيًا، بل مضى في طريقه يحوم حول سجاح التميمية، كما تحوم الفراشة حول الضوء، وكما يحوم الطير حول الماء.

ولأنه رجل واسع الحيلة، كبير العقل، ذو دهاءٍ ومكر، وسجاح تثق فيه ثقة عمياء، وتستشيريه في كل أمورها وتأخذ برأيه، وقد رأى بعينه حجم قوتها، وحشود أتباعها التي تقف وراءها، فكَرَّ على الفور

في استغلال تلك القوة لصالحه، عقد معها تحالفًا استراتيجيًا، كما سعى للزج بجيشها في القضاء على خصومه، ولم لا، وجيشها لا يقل عن أربعين ألفًا من صناديد القبائل وأشجع رجالها، وهم مستعدون للموت في سبيلها؟!

ذات مساءً مخملي، تزينت وتعطرت، وكحّلت عينيها، وارتدت أجمل ثيابها، وأرسلت في استدعائه لمقابلتها حيث مقرها الحصين، ومن حول خيمتها الحراس الغلاظ الأشداء الذين يأترون بأمرها، ولا يعصون لها أمرًا.

لكن لسوء حظه، استقبلت زوجته رغد رسول سجاح، وعرفت بالأمر وما فيه، فانتابها الغيرة الجنونية على زوجها من تلك الأرملة الفاتنة التي تقول إنها نبيه، وعندما وصل الخبر إلى مالك، تهباً للقاء التميمية، وارتدى أحفم ثيابه، وتعطر بأبهى الطيب وأغلى العطور، وتزين كأنه عريس في ليلة زفافه، ثم انطلق على الفور للقاء الموعود.

انتظرت رغد قليلاً حتى غادر زوجها مالك الدار في طريقه إلى سجاح، وسارت خلفه كأنها تأمل أن تضبطها معًا بالجرم المشهود، والفعل المشؤوم.

وعندما دخل عليها مالك في خيمتها، قابلته بالترحاب والابتسام
والسرور، وهمست بنبرة شجيّة فيها غواية شيطانية:

— أتعلم يا مالك أنني صرت أرتاح إليك كثيرًا، ولا أثق إلا بك من
دون كل الرجال من حولي؟!

سُرَّ ما سمع من مالكة قلبه، وأرضت غروره بذكائها المعهود، وحركت
فيه الحب الصامت، فرد عليها بالقول:

— إن القلوب عند بعضها يا سجاح... إن القلوب تهوى من يهواها،
ويعلم رب السحاب ما في قلبي من ناحيتك، ولولا الحرب وانشغالك
بأمر النبوة، لكان لي معك حديث آخر وشأن مغاير.

— لا بأس يا مالك، لكل حادث حديث... والأيام كثيرة قادمة.

في تلك الأثناء، كانت زوجته الحسناء رغد (أم تميم) وقودًا مشتعلًا
لنار الغيرة الضارية، تنصت عليهما بالقرب من الخيمة بكل حواسها
المستنفرة، لتسمع ما يدور بينهما من حديث ناعمٍ هامس، وقد وصلها
كل ما قيل، لكنها ظلت تترقب وتنتظر نهاية اللقاء، وهي امرأة مجربة
تدرك أن الأمور بين الرجل والمرأة تمضي - إلى طريقٍ واحد، والعبرة
بالخواتيم.

قالت سباح:

— أتصدق يا مالك أنني نبية؟!

— أصدقك بكل جوارحي، أيتها التميمة النبية.

قالت:

— أنا امرأة منكم، ولا أريد سوى مساعدتكم... إن الملك لكم، والنبوة لي.

— لك ما تشائين أيتها النبية، وكيفينا القرب منك.

حاولت أن تغير مجرى الحوار، فقالت:

— أريد أن أستشيرك في أمرٍ ما، بعيدًا عن رجالي يا مالك، وأنت سيد القوم، وأهل للمروءة والشجاعة والرأي الرشيد السديد.

تبسم مالك واقترب منها، وهمس في أذنها بصوتٍ خافت:

— أنا رهن أمرك يا أجمل نبية عرفتها البشرية منذ آدم حتى مالك.

ارتسمت علامات الرضا وأمارات الارتياح على وجهها، وقالت:

– أريد أن أهاجم بجيشي المدينة المنورة، وأهزم أبا بكر والذين معه، لا زكاة ولا صلاة ولا إسلام بعد اليوم، وسأنادي في الناس وأقول لهم: لا تدفعوا شيئاً لأتباع محمد... أود أن أقضي- على الإسلام والمسلمين في عقر دارهم بالمدينة... فما رأيك يا مالك؟!

شرد قليلاً، وقال بعد تفكيرٍ انتهازيٍّ لئيم:

– يا سجاح، أيتها التميمية النبية، ما لنا والمدينة البعيدة عن أرضنا؟ نهلك القوات، والجيوش كما تعرفين تزحف على بطونها، ونستهلك الأموال والأقوات في دروب الصحراء لنحارب بعيداً عن الديار، بينما الخطر المحدق بنا هنا من حولنا، وليس في المدينة المنورة! دهشت سجاح واستغربت قوله، ثم سألته:

– ماذا تقصد يا ابن نيرة؟!

– القبائل التي كفرت بكِ هنا يجب عليكِ أن تقضي عليها أولاً، مثل الرباب وغيرها من القبائل، ثم بعد ذلك تفكر في أمر أبي بكر والمدينة والمسلمين، عليكِ أولاً تأمين ظهركِ قبل أن تهاجمي عدوكِ الذي أمام وجهكِ.

نجح في إقناعها والتأثير على قرارها، رغم عقلها الكبير وشخصيتها القوية الآسرة المسيطرة، فقالت وهي تومئ برأسها:

— صدقت يا مالك... إن الحق معك... هذا رأي رجل حكيم.

واقتربت منه برومانسية، تصافحه وتشكره على مساندته لها، لكن فجأة دخلت عليها زوجته رعد، ثائرة هائجة كزوابع الصحراء، وقالت بنبرة غاضبة ساخرة:

— أمن أجل هذه الأرملة الكاذبة تتزين يا مالك، وتتعطر كل يوم لتأتيها زحفاً إلى هنا في خيمتها، وتلقاها خلسة عن العيون وأنت سيد قومك؟ خسئت يا رجل أن تُعَرَّر بك تلك المرأة المغرورة!

استفزته بكلماتها وأهانته أمام سباح، فرفع يده بغلّ، وهوى بها بشدة على وجهها، فسقطت أرضاً من قوة الصفقة، وصرخت متأوهة من الألم، بينما سباح تراقب بعينيها الواسعتين ما يحدث، دون أن تنطق أو تتدخل، وإن اكتفت بتصويب النظر إليها وهي على الأرض بنظرات الشماتة والتشفي، وبداخلها بركان يغلي.

(41)

10 أبريل

أرض اليمامة

12 هجرية / 633 م

قبل أن تزحف سباح بجيشها الكبير نحو اليمامة، بعثت برسالة إلى
مسيلمة، قالت له فيها:

– (يا مسيلمة، بلغني قولك أنك نبي مرسل، يأتيك الوحي من
السماء، وقد تعاظم أمرك، وتكاثر أتباعك، وها أنا ذا أقول لك... إن

النبوة لا تتفق بين اثنين في زمنٍ واحدٍ ومكانٍ واحدٍ، ولكن علينا أن نجتمع في مكانٍ ما لننظر في الأمر، وتناظر في ملأٍ حاشد من قومي وقومك، لكي تتدارس ما أنزل الله علينا، ليعرف الناس من الصادق منا فيتبعون، ومن الكاذب فيهجرون. ولو لم تقبل بهذا العرض لحسم الأمر، سيكون للسيف القول الفصل، ويرفع راية الحق والصدق (...).

ثم ختمت الرسالة بخاتمتها الخاص، وأعطتها لمبعوثها، وقالت له:

— سر بهذه الرسالة على وجه السرعة إلى مسيلمة في اليامة، وسلمه إياها يدًا بيد، وعليك أن تأتيني بالرد قبل أن أزحف في إشرك بالجيش.

بعد يومٍ وليلة، مضت بقواتها وسارت متوجهةً إلى أرض اليامة، في الوقت الذي كان مبعوثها قد سلمَّ الرسالة لصاحبها، ففضَّها مسيلمة أمامه، وقرأها بجديّة، وفهم مغزاها، وعرف بأنها الحرب لا محالة، إلا إذا نجح في تدبير حيلة تبطل مفعول حماسها وتوقف هجومها الوشيك.

ظل شاردًا يفكر في الأمر، وقد أصابته الحيرة، وخشي - من هجومها المباغت، فقال لمبعوثها بدهائه السياسي:

– أخبرها أنني قرأت رسالتها بكل تقدير، وألتمس منها أن تهلني من الأيام ثلاثة فقط حتى أرد عليها بما يجب.

وطار الخبر إلى سجاح التميمية، فقالت:

– لا بأس... أيام ثلاثة لا شيء في عمر الزمن، فلننتظر لنرى ماذا يكون من أمر هذا الرجل.

أراد مسيلمة أن يتخذ لنفسه فسحةً من الوقت ليدبر لسجاح أمرًا، ويرسم لها خطة لا تقوم لها بعدها قائمة، ولكن الأمر أزعجه كثيرًا، وأضناه التفكير، وأربك كل حساباته؛ فالوقت يمضي -كالسيف القاطع، وقد علم أنه لا قبل له بجيشها الجرار المتحفز بالآلاف من الجند الأشاوس لافتراسه هو وأنصاره، حتى يخلو لها الجو، وتدعي لنفسها النبوة وحدها كما تشاء بلا منافس ولا منازع على قلوب العرب.

وظل يستشير أكابر القوم وحكماء عشيرته واحدًا بعد واحد، ولم ير فيهم ولا في رأيهم ما يشفي الغليل ولا يهدي الدليل، ومعظمهم قالوا له:

– سلّم لسجاح الأمر، تسلّم يا مسيلمة.

لكنه لو فعل ما يقولون سيخسر كل شيء، وربما يخسر- حياته ذاتها التي هي أعلى ما يملك.

وبينا هو في هذا الموقف العصيب، حائراً في أمره، متعثراً في أمرها، مضطرباً قلقاً، سمع منه الحكاية شيخ كبير يُدعى سويد بن الملوح، وكان قد خبر الدنيا، وعركها وعركته، وحنكته بأحداثها ومواقفها التي لا تُعد ولا تُحصى، فقال له:

– اسمع يا مسيلمة، سأنصحك نصيحة الأب لابنه، وأشير عليك بالرأي الصائب لتنجو من هذا الفخ الداهم، ولو عملت بنصيحتي وأخذت بمشورتي فزت ونجوت، ولو عاندت وكبرت لهلكت أنت ورهطك هذا.

قال مسيلمة بلهفة وتهافت:

– تكلم يا شيخ سويد... ولسوف أسمع لك وأطيع، فما عهدناك إلا ناصحاً حكيماً، ذا رأي وبصيرة.

تهند الشيخ العجوز، وقال بهدوء كأنه فيلسوف يوناني خرج من كتب الأساطير:

— إذا فهمت المرأة يا ولدي، فهمت الدنيا وما فيها، ومن يفهم المرأة سيراتاح في حياته كلها، وقد عشت طويلاً، وعاشت الكثير من النساء، وخبرتهن جيداً، وعرفت أحوالهن، وأدركت أسرارهن، وقدرت تقلباتهن.

بدا مسيلمة منصتاً بحرصٍ وحذر، مستنفر الحواس؛ فالأمر جد خطير، يسمع بتركيزٍ كبير، ويدهشه ما يقوله الرجل، كأنه طفل صغير ينصت لمعلمه الذي يلقنه مبادئ الحياة الأولى، ثم قال بلطف:

— زدني يا سيدي... ها أنا ذا أسمع وأعي.

تبسم سويد، وأحس بالتقدير، فاسترسل يقول:

— في صبيحة الغد، عليك أن تأمر رجالك بأن يقيموا لك خارج الديار قبة فخمة من الديباج الملون، ويفرشونها بأجود أنواع الحرير — كأن تلك القبة ستستقبل الملكة — وعليك أن تُنضجها تمامًا، وتعدّها إعدادًا مدهشًا بأنواع المياه المسكّة، مثل ماء الورد والزهر والنسرين والقرفل والبنفسج والفل وغيره، فإذا فعلت ذلك، ادخل تحت المباخر المذهبة بأنواع الطيب، مثل عود الأقمار، والعنبر الخام، والمسك الهندي، وغير ذلك من أجود أنواع الطيب، ثم بعد ذلك

تُرخي أطناب القبة حتى لا يتسرب منها أي شيء من البخور والعطور.

بشغف سأله مسيلمة، وقد انفَرجت أساريره:

— وماذا بعد يا سويد؟!

— إذا امتزج الماء بالدخان، اجلس إليها على كرسيك كأنك الملك المتوج، وأرسل إليها لتلتاك داخل قبتك الفخمة، وتعتقد اجتماعك معها للتفاوض في حضرة الطيب الفواح، وماء الورد المعطر يملأ البراح، أنت وهي وحدكما لا غير.

— عظيم يا شيخ سويد، وماذا بعد؟!

— إذا التقيت بها في هذا المكان وحدكما، كان الشيطان ثالثكما، وعندما تشم سباح تلك الروائح المعطرة، سوف يرتخي منها كل عضو، وتبقى مدهوشةً، يسحرها العطر والمسك، والجو الخملي داخل القبة.

سأله بتهافت:

— وماذا بعد يا سويد؟!

— إذا وجدتها في تلك الحالة من الاسترخاء والدهشة والنشوة —
كأنها مخمورة — راودها عن نفسها، ولسوف يساعدك الشيطان،
وهي ستطيعك في نهاية الأمر، وتسلم لك كل شيء، حتى نفسها.

بهت الذي سمع، وصاح مذهولاً:

— كيف هذا يا شيخ سويد؟ أخشى— أن يتقلب السحر على
الساحر، وتسوء العواقب، وتأتي عكس ما نشتهي، فتكون الحرب
المهلكة، ولا تنس أن كفتها أرجح من كفتنا بأضعاف مضاعفة.

سكت الرجل العجوز المحنك، ثم تنهد، وتكلم حاسماً الأمر:

— إذا نكحتها نجوت من شرها، وشر قومها، وسيوف جيشها.

باستغراب تساءل مسيلمة:

— إذا نكحتها نجوت من شرها، حتى ولو كانت نبية... أهذا معقول
أيها العجوز؟!

تبسم الرجل بخبث، وقال:

— هكذا النساء يا ولدي... حتى ولو كانت نبية أو أميرة أو ملكة،
هكذا خلقهن الله، ولكن يبدو أنك لا تعرف طبيعة المرأة جيداً، ولا

تعرف رغبة الأرملة على وجه الدقة، لسوف تصل إلى مأربك كما خططت لك، وتجو من شرها، وتستمتع بجمالها وفنتها الآسرة وقطوف ثمارها الدانية، كل ما عليك أن تنفذ ما قلته لك بالحرف الواحد، ليس أكثر، وستكون فاتنة بني تميم بين يديك كقطعة من العجين تفعل بها ما تشاء.

— ماذا تقصد بطبيعة المرأة ورغبة الأرملة؟!

— يا مسيلمة... إن المرأة لا تطلب من الله إلا شيئًا واحدًا، ألا وهو أن يعطيها الرجل، فإن أعطاها الله الرجل، طلبت من الرجل كل شيء... فما بالك بالأرملة الجميلة الفاتنة مثل سباح؟!

بدا سويد واثقًا من نفسه، راسخًا في خبرته، مدركًا جدوى مشورته، ولم يكن أمام مسيلمة سوى الاستجابة لتلك النصيحة الجهنمية، لعل وعسى، وقال:

— أحسنت النصيحة، وصدقت المشورة.

ولم يتأخر مسيلمة في الأمر، بل على الفور أمر رجاله أن يفعلوا — من أجلها — كل ما قاله له الشيخ العجوز الماكر المحنك سويد بن

الملوح، لعلها تلين وتستكين، وترجع عما في رأسها، وإن ظلت آخر
كلمات الرجل العجوز ترن في رأسه:

— إن نكحتها، نجوت من شرها.

(42)

14 يونيو

أرض اليمامة

12 هجرية / 633 م

في الليلة الأخيرة له قبل أن يلقاها في القبة إياها، نام مسيلمة،
ويراوده الحلم بأنها ستكون عجيئة بين يديه — كما قال له سويد —
وإن كانت عنده بعض الهواجس من ألا تسير الأمور كما خطط لها

هذا العجوز الداهية الذي يدّعي خبرته الواسعة بالنساء، والأيام كاشفات، وأفصح إن صدق!

دائمًا لا يأتي الحلم إلا من تجارب الإنسان، وسابق خبرته مع وقائع الأيام. إن الأحلام – على كل حال – مع سخفها وبعدها عن العقل والمنطق، تتخاطب الناس على قدر خبراتهم، وقد تخلط هذه الأحلام الخبرات وتقلب موازينها رأسًا على عقب، وتجعل أعاليها أسافلها، وتضع أسافلها فوق أعاليها.

ومع ذلك تظل بالنسبة للإنسان الذي تراوده في حدود ما عرف من واقع الحياة ووقائع حوادثها؛ ولذلك يستطيع المرء أن يعبر عنها، ويروي ما عرض له في منامه، أو يعزوه إلى خرف النوم وهذيانه وهلوساته، ومخاوفه وهواجسه إذا كان نومه مضطربًا.

عندما أشرقت شمس النهار، تأكد مسيلمة من أن القبة الفخمة من الديباج الملون في كامل هيئتها وأبنتها، وعطورها الفوّاحة، ودخانها الذي يغيب العقل، ويأخذ صاحب العقل المغيّب في نشوة لذيدة.

في هذه الأيام البلهاء من عمر جزيرة العرب، تصبح الصحراء غابة، السيادة فيها لمن يملك القوة ولا يملك الضمير، وهذا نوع من الغابات فريد من نوعه، نادر من فصيلته.

إن غابة الحيوان تجمع كائنات بلا عقل ولا ضمير، ومن الطبيعي أن تكون السيطرة فيها للأقوى، والغلبة فيها للكثرة، والكثرة تغلب الشجاعة، ومن الطبيعي أيضًا أن تكون الوحشية هي الدستور، والشرعية للسيف البتار؛ فبغير الوحشية لن تحصل الحيوانات على فرائسها المشتهاة، ولن تجد مأكلاها، وهذا في حد ذاته سبب كافٍ لأن تستعمل قوتها الغاشمة لتبطل بالآخرين وتهدد وجودهم على قيد الحياة؛ لتبقى هي في أحسن حال.

إنه الصراع الأزلي الأبدي من أجل البقاء، ولو على حساب أرواح الآخرين، سواء الأبرياء أو المذنبين منهم... لا فرق على الإطلاق.

أحيانًا يتدخل الشيطان ليكتب عقدًا بين اثنين من الكائنات البشرية، وينص هذا العقد الشيطاني على ألا يعتدي أحدهما على الآخر، وربما ينص العقد أيضًا على أن يحمي كل منهما الآخر ويدافع عنه وقت الخطر.

أَيُّ تَحَدُّ تَلَبَّسَ مَسِيلِمَةُ فِي هَذَا النَّهَارِ؟!

كَانَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ جَيِّدًا؛ طِفْلًا لَاهِيًّا إِذَا دَعَاهُ الرِّفَاقُ إِلَى اللُّهُو، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ دَعَاهُ إِلَى الْعَبْثِ وَالْمُجُونِ رَجُلٌ مُخْضَرَمٌ وَخَبِيرٌ مُحْنَكٌ - وَلَيْسَ طِفْلًا لَاهِيًّا مِثْلَهُ - إِنَّهُ سُوَيْدُ بْنُ الْمَلُوحِ، الْعَجُوزُ الْأَشِيبُ الَّذِي أَفْنَى حَفْنَةً مِنَ النِّسَاءِ بِعَمْرِهِ الطَّوِيلِ وَأَجَلِهِ الْمَدِيدِ، حَتَّى صَارَتْ الْمَرْأَةُ أَمَامَهُ كِتَابًا مُفْتَوَحًا يَقْرَأُ سَطُورَهُ بِسَهُولَةٍ.

حَانَتْ اللَّحْظَةُ الْحَاسِمَةُ بَيْنَ سُبْحَاحٍ وَمَسِيلِمَةٍ، وَحَانَ وَقْتُ السَّيْرِ بِخَطِيئَةٍ ثَابِتَةٍ عَلَى خُطَّةِ الْعَجُوزِ الدَّاهِيَةِ، وَهَنَاطُكَ طَرِيقَانِ لَا ثَالِثَ لَهَا... إِمَّا الْحُبُّ أَوْ الْحَرْبُ، تِلْكَ هِيَ الْمَشْكَالَةُ.

وَلَوْ صَدَقَتْ نَبُوءَةُ الرَّجُلِ وَخُطَّتُهُ الْمُحْكَمَةُ، وَسَارَ مَعَ التَّمِيمَةِ فِي سَكَّةِ الْحُبِّ، لَنَالَ مِنْهَا الشَّهْدَ وَالْعَسَلَ، أَمَّا لَوْ اضْطُرَّ إِلَى السَّيْرِ عَكْسَهَا فِي سَكَّةِ الْحَرْبِ، لَنَالَ مِنْهَا الْوَيْلَ وَالثُّبُورَ وَعِظَاطُمُ الْأُمُورِ.

أَرْسَلَ إِلَيْهَا مَسِيلِمَةُ رِسَالَةً بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَأَنَّهُ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لِلْحَوَارِ وَالْتِفَاوُضِ، وَالسَّعْيِ لِإِرْضَائِهَا، وَتَدَارَسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ مَعَهَا.

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ حَاطَلَتْ سُبْحَاحٌ أَنَّ تَسْتَشِيرَ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ الْأُمُورُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ رَغْدَ (أَمْ تَمِيمٍ) قَدْ

استفحلت وتوترت بسبب غيرتها الشديدة عليه من سباح الأرملة – كما كانت تطلق عليها – وإحساسها بأن زوجها مالك قد وقع في حبها؛ فحرّكت قبيلتها، وحرّضت قبيلته ضده بمظلمتها، وشكت وبكت، وكسبت تعاطف الجميع، وأقنعتهن بأن زوجها يطارد التميمية الأرملة – التي تدّعي النبوة – في كل درب، ووراء كل جبل، وتحت كل نخلة سامقة، وعند كل خيمة تنصبها في الصحارى والوادي.

لذلك أراد مالك ألا يقدم دليل إدانته بيده لأكابر قومه وأعيان قوم زوجته إذا ذهب للقاء سباح من جديد، وظل يترقب أن تهدأ الأمور ويتفاهم مع زوجته، عسى أن تنطفئ نار غيرتها من التميمية.

انطلقت سباح بدون مشورة مالك بن نويرة، ومن حولها زمرة من الحراس الأشداء الغلاظ لحمايتها، ومرافقتها للقاء مسيلمة في قبته الفخمة التي أعدها لهذا الميعاد الموعود.

وعندما جاءت إليه... احتفى بها ورحب بها كثيرًا، وأمرها بالدخول إلى قبته الساحرة المبخرة المخملية المعبأة بالعطر، فدخلت بجذر شديد تتأمل المكان الخلاب، ثم اختلى بها، وظل حراسها على الباب يترقبون، بعد أن أمرتهم أن يطمئنوا عليها ويتركوها وشأنها مع الرجل يتدارسان الأمر. ولما دخلت الخيمة، أمر مسيلمة أن يقف على بابها

عشرة حراس من رجاله، ومثلهم من رجالها... وسارت الأمور وديّةً
على ما يرام.

لكنها بهرته بجمالها... عيناها الواسعتان العميقتان المكحولتان بيد الإله،
خليط من الطموح الجموح، والحب والانجذاب؛ امرأة عربية كفرسة
أصيلة، لا يوقفها فارس جسور، تطل من أعماقها رغبات لا نهائية،
تمور وتفور كالبركان الخامد تحت جبال وصخور وتضاريس سرمدية.
أنثى ثائرة متمردة كبداية التاريخ، فاتنة من أصول عراقية، فيها حمية
كسعار الليل.

تبدو في رقة الدانتيل وشراسة لبؤة، وترى نفسها سيدة الأرض، ولا
بد لها من أن تكون ملكة على الكون كله، شرقه وغربه، تجري
لتسابق الزمن، وحلمها المفضل في عرش الدنيا تحمله على ظهرها،
وهي تفتش عن معنى العالم رغم صراعاته وناره المسعورة التي لا تبقى
ولا تدر.

امرأة ليست كباقي النساء، برغم أن فيها رقة الإناث وخشونة الرجال،
بدليل أنها تجمل عينيها بالكحل الفاحم، وتصبغ شعرها الطويل الناعم
بالحناء، ثم تذهب في جولة إلى النهر العذب كي تغسل صدرها النافر
الداكن بلون التمر الناضج على جسد النخيل الشاهق.

تغمره بالماء البارد لتطهره من أثر اللغو الفارغ والأكليل المزيفة، وحين
تعود إلى عتبة خيمتها تحت حراسة رجال أشداء، تنسل من بين
سيوفهم وهي تكافح البكاء.

تبدو هشة محتاجة، خائفة ونادمة... لكن غنج الكحل في العيون
الأسرة لا يهدأ؛ تملك بنت التميمي نظرات عاشقة أضناها الغرام، لكنها
تبقى عصية على الترويض، مثل مدينة حرة صامدة لا تقبل الخضوع
لأحد الغزاة.

كانها ابتسامة وضاءة على ثغر القمر، ولحظة إضاءة لا تبصرها العين
المجردة. قد ينمو الحب بعد خمود الرغبة من أجل طموح أكبر يسع
الدنيا، إنها أفعى (الهيدرا) متعددة الرؤوس التي لا ترضى سوى
بالسيطرة على كل الرؤوس.

سألها مسيلمة بشيء من القلق:

— ماذا تريدin؟! —

قالت سباح بفصاحة:

— آه... لن أكون ظلاً في عالم لا أملكه، لن أكون نخلة ضامرة تذروها
رياح الصحراء. لا بد أولاً أن أملك زمام نفسي، ثم أملك هذا العالم

من حولي، لكي أكون شيئًا مذكورًا في ذاكرة الدنيا، وأعيش خالدةً
مخلدةً آلاف السنين؛ فلم أولد لأموت بعد حين من الدهر، ويطويني
النسيان، كما تموت الغزلان في الصحاري والوديان، وتصبح نسيًا
منسيًا.

كان قد بعث إليها يستأمنها، ويعدها بأن يضمن لها نصف الأرض
الذي كان لقريش لو عدلت عن حربها، ولما جاءت وخلاها عرض
عليها نصف الأرض، فقبلت بالعرض.

وقالت بغنج ودلال:

— رضىنا بعرضك هذا يا مسيلمة.

عندئذ قال مسيلمة متبسّمًا:

— سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كل
ما يسر مجتمع، راكم ريكم خيامكم، علينا من صلوات معشر- أبرار، لا
أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار، لريكم الكبار، رب
الغيوم والأمطار.

وكان مسيلمة قد شرع لمن تبعه أن الأعزب يتزوج، فإذا وُلِدَ له ذكرُ حَزَمَت عليه النساء حينئذ، إلا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحلّ له النساء حتى يُولَدَ له ذكر آخر.

طاب حديثها وامتد، فكان مسيلمة يتكلم وهي داهشة مبهوتة مبهورة، فلما رآها على تلك الحالة تشجّع، ومضى- في تنفيذ خطة الداهية سويد بن الملوح.

ثم واصل الحوار معها، وهي في نشوة القبة وما فيها:

- يا سجاح، أنتِ امرأة مثقفة، وعارفة بالأخبار، رفيعة الشأن في قومك، شهيرة بين القبائل، جمالك يفوق كل جمال بنات العرب، وكنتِ كاهنة، ثم أعلنتِ على الناس أنكِ نبية هذا الزمان، وذاك شرف لم تسبقك إليه امرأة من قبل، أليكن البرهان على نبوتك تلك؟!!

- بالطبع عندي ألف برهان وبرهان.

- هيا أظهري ما عندك أيتها التميمة، لنرى إن كنتِ نبية؟!!

لاذت بالصمت، تتأمله وتراقب المكان، وتستنشق ما فيه من بخور
وعطور تُدير الرؤوس وتذهب بالوعي، بدت كأنها مخمورة، ولكنه عاد
يسألها:

— هيا يا سباح، تكلمي بما أُوحى إليك؟!

بمكر الأثى ودهائها همست:

— ومنذ متى كانت النساء تتبدئن يا رجل؟!

أوماً برأسه قائلاً:

— آه... لقد فهمتك... تودّين أن أبدأ أنا أولاً؟!

— ولم لا؟ ألسن الرجل، وتقول إنك نبي يأتيك الوحي من السماء

بآيات بيّنات؟!

تنهد بعمق، ثم تتحنن وتكلم:

— لا بأس... معك حق، سأبدأ... واجب على الرجل أن يبدأ.

— هات ما عندك يا مسيلمة لأرى.

حدّق فيها، ثم نظر لأعلى القبة، وارتجف قليلاً يميناً ويساراً، وقال بصوت خاشع:

— (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاقٍ وحشى).

ثم سكت، وظل يراقبها ليرى تأثير قوله عليها، فقالت:

— وماذا أيضًا يا مسيلمة؟!

تنهد وزفر وارتجف مجددًا، ثم قال:

— (أوحى إليّ أن الله خلق النساء أفرأجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعسًا إيلأجًا، ثم نخرجها إذ نشاء إخراجًا، فينتجن لنا سخالًا إيتأجًا).

وسكت يتربّص رد فعلها، ونظراته لا تفارق وجهها، ثم سألهما:

— ما رأيك أيتها التميمية الحسنة؟!

فكرت قليلاً، ثم تبسمت قائلة:

— أشهد أنك نبي الله.

انفجرت أساريره، ولم يصدق ما سمع، وتذكر الشيخ الداهية سويد
بن الملوخ وتديره الملعون، فقال لها:

— هل لك أن تتزوجيني يا سباح، فأأكل بقومي وقومك العرب
أجمعين؟! —

هبط الحياء على وجهها، وطأطأت رأسها، ورمقته بنظرة ذات مغزى
من عينيها الأسرتين، وقالت همساً بحياء العذارى:

— نعم.. —

أحس بالنشوة تجري في عروقه من فرط الفرح والفرحة فيها، وهدوء
القبّة وسكونها يدعوانها إلى أشياء خيالية، عندئذ اعتدل في
جلسته، ولما رآها على تلك الحالة، علم أنها تشتهي ممارسة الغرام كما
يشتهيها هو أيضاً، فقال لها:

— ألا قومي يا سباح إلى الفراش... فقد هُيئَ لك المضجع.

فإن شئت أطارحك الغرام في البيت... وإن شئت ففي المخدع.

قالت:

— بل هنا في المخدع.

قال مسرورًا:

— إن شئتِ سلقناكِ... وإن شئتِ على أربع.

وإن شئتِ بثلاثيه... وإن شئتِ به أجمع.

رفعت الغطاء عن رأسها، فظهر شعرها، ولاح حسنُها الجذاب في
تاج رأسها، وأطلت من عينيها السوداوين الواسعتين الساحرتين رغبة
محمومة، ثم قالت بدلال هامس:

— به أجمع.

فقال:

— بذلك أوحى إليّ.

أقامت عنده ثلاثة أيام بلياليهن، يعاشرها معاشرة الأزواج، ثم غادرت
عائدة إلى قومها، فسألوها:

— ماذا جرى بينكِ وبين مسيلمة؟!

فقالت لهم:

— تزوجنا.

سألوها:

— أهو نبي يا سباح؟!

— نعم، ويأتيه الوحي من السماء، تأكدت من ذلك بنفسي.

سألوها:

— ولماذا تزوجته؟!

قالت لهم:

— هذا أمر الوحي، ولا حيلة لنا في مخالفة الوحي.

سألوها:

— وماذا أعطاك من مهرٍ وصدّاق؟!

قالت:

— لم يُمهرني شيئًا.

فقالوا لها بغضب:

– وكيف تقبلين على نفسك، وعلى قومك، أن تتزوجي من بني حنيفة بلا مهرٍ ولا صداق، وأنتِ حرة وسيدة نساء بني تميم وبني تغلب، وقومك سادة العرب في الجزيرة الفراتية؟! هيا ارجعي إليه، ولا تعودِي إلا بمهرِك.

فلما رجعت إليه أغلق حصنه دونها، وبعث يسألها:

– ماذا تريدين يا سجاح الآن؟!

قصّت عليه ما حدث، وما قاله لها أهلها، وسألته أن يعطيها مهرًا يليق بها، فرد عليها بالقول:

– أرسلني إليّ مؤذنك شبيب بن ربيعي الرياحي.

وبالفعل أرسلته إليه، ثم عاد شبيب، وأخبرها بما قاله مسيلمة:

– أخبرني أن أنادي في القوم بأن مسيلمة بن حبيب رسول الله، قد رفع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد، وهما صلاة العشاء وصلاة الفجر، إكرامًا لسجاح، فكان هذا مهرها وصادقها من تلك الزيجة.

عندئذ غضب أهلها واستنكروا، وقالوا لها بعتاب:

— مسيلمة ينزل عن صلاتي العشاء والفجر إكرامًا لك يا سجاح! ما
أعجب هذا الصداق يا بنت الأكابر!

فأرسلت إليه مرة أخرى تلومه، وانتهى بها الأمر وبه إلى أن قرر لها
أن تحمل نصف غلات أرض اليمامة مهرًا لها، وبالفعل حمل رجالها
النصف من حصاد الأرض، وانصرفت به عائدة إلى الجزيرة.

في تلك الأثناء كانت سجاح بنت الحارث التميمية تتبوأ مكانةً عليّة في
التنظيم الاجتماعي، باعتبارها النموذج المثالي للمرأة العربية تحت مظلة
الجاهلية.

ولعل الشاهد على ذلك عدة مؤشرات لها دلالة ورمزيات واضحة —
آنذاك — كتأنيث الآلهة، وتقلد المرأة للكهانة، والرهينة في الأديرة،
تلك سلطتها الدينية، بالإضافة إلى سلطتها السياسية وقيادتها للرجال
في المعارك الحربية.

(43)

25 يوليو

جزيرة الفرات

12 هجرية / 633 م

طار الخبر في الآفاق كما تطير العصافير، فبلغ معظم القبائل والعشائر
في البوادي والصحاري، وحط في كل الديار، واستقر على الخيام
وفوق رؤوس أشجار النخيل، بأن مسيلمة تزوج سجاح.

وعندما عرف مالك بن نوية هاج وماج، وكانت صدمته مروعة؛ لأنه أحبها بصدق، واعتبرها هدية السماء إليه، وظن أنه سيأخذها لنفسه في الوقت المناسب، وما كان يظن أن ينازعه فيها أحد.

كانت سجاح أيضًا تكنّ له إعجابًا خفيًا، وتميل إليه ميلًا جليًا يكاد يقترب من درجة العشق والوله، لكن دخول زوجته رعد على الخط بينهما أفسد كل شيء؛ إن المرأة تدرك أن لا عدو لها سوى المرأة الأخرى حينما يتعلق الأمر بالرجل الذي تهواه.

غضب مالك بن نوية غضبًا شديدًا، وكاد يبكي حسرةً عليها وحسرةً على نفسه، فامتطى فرسه وانطلق إلى حيث ديارها، بعد أن عادت بجيشها إلى الديار لتعيد ترتيب أوراقها. قابلها والأسى على وجهه، ثم قال لها لائماً:

— ألا تدرين يا سجاح أنني أحبك حبًّا لا تتسع له الأرض ولا السماء؟! —

ردت عليه بسرور ممزوج بسخرية:

— وما هي أمارتك أيها العاشق الولهان؟! هات برهانك.

لاذ بالصمت لحظات، ثم قال متعجبًا:

– تتزوجين مسيلمة يا سجاح؟! أهذا منتهى أملك يا جميلة جميلات
بني تميم؟!

– سألتك: ما أمارتك على أنك تحبني؟!

– ألا تشعرين يا سجاح؟!

– بلى أشعر... لكن هل قلت شيئاً؟ أطلبيني للزواج مثلاً؟
للأسف لم تفعل شيئاً تدلل به على حبك المزعوم لي أيها الفارس
الشجاع. واقع الحال أنك لم تجرؤ على البوح بما في قلبك نحوي، خوفاً
من زوجتك المجنونة بالغيرة عليك، وملأت الدنيا ضجيجاً، وطافت
على الديار والأقارب تشهرّ بي، وتشوه سمعتي، وتقول إن زوجها
مالك مغرم بسجاح، ولا يكف عن مطاردة أرملة بني تميم في الديار
والخيام!

تلغم قليلاً، واربتك قائلاً:

– كنت أرتب أموري، ولا أشك لحظة واحدة في أنك ستكونين
لي، حتى فجعتني نبأ زواجك المشؤوم من مسيلمة اللثيم، الذي يكبرك
بنصف قرن أو يزيد من الزمان، أيتها التميمية البلهاء! هل ستكذبن
عليّ كما كذبت على الجميع، وزعمت أنه أمر الوحي من السماء؟!

بشيء من الضيق:

— نعم، إنه الوحي يا مالك.

بنبرة تهكمية قال:

— أي وحي هذا الذي يطلب من ذلك الرجل أن يتزوج تلك المرأة،
وأن يدفع امرأة ما للزواج برجل محدد؟!

— أنت تكذبين يا سجاح... إن هذا وحي الشيطان، والله لم أر في
حياتي أكذب منك، وليس أكذب منك — يا تميمية — في العرب
جميعاً سوى مسيلمة.

— ولكنك سبق وقلت لي يا ابن نويرة إنك صدقت أنني نبيّة.

— كنت أجاريك لأعرف نهاية أمرك، وأظن قريباً منك بدافع من
قلبي الذي أحبك.

زمت وزمت شفيتها، ثم قالت بضجر:

— ليس لك شأن بي بعد اليوم يا ابن نويرة، لقد تخلّيت عني في
الوقت الذي كنت فيه في حاجة ملحة إليك لأستشيرك في أموري

الجسيمة، لكنك هربت مني كالفأر المدعور خوفاً من امرأتك الغيور.
إن الذنب ذنبك يا مالك، فلا تلومنّ إلا نفسك.

بطريقة ساخرة، سألتها:

— وماذا أنتِ فاعلة الآن أيتها النبية؟!

— لا تسأل فيما لا يعينيك... لك شأنك ولي شأني، أنا امرأة نبية
وزوجي نبي، وتلك سابقة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية!

— في تاريخ البشرية أم في تاريخ الأكاذيب؟! ألم تقولي بلسانك من
قبل إنه لا يمكن ظهور أكثر من نبي واحد في زمان واحد ومكان
واحد؟!

تلعثمت قليلاً، وهتفت بطريقة مسرحية:

— لكنها مشيئة السماء هذه المرة الاستثنائية!

صاح فيها:

— كفالكِ كذباً يا سجاح، واعلمي أن أمركِ شاع وانتشر- حتى وصل
المدينة، وقد أعد لك أبو بكر بن أبي قحافة صاحب محمد جيوشه
لسحقكِ أنتِ ومسيلمة الكذاب مثلكِ، ولسوف يحوكمنا من الوجود

لو لم ترجعي إلى صوابك قبل فوات الأوان... احترسي... المسلمون قادمون... المسلمون قادمون.

ضحكت وقالت:

— تلك هي اللحظة التي أنتظرها يا مالك، وأتطلع إلى مواجهة جيش أبي بكر، لأهزمه هزيمة نكراء تتحدث عنها العرب في البوادي والصحراء، ولسوف أزحف بجندي إلى عقر دارهم في المدينة لأحكم السيطرة عليها بما فيها ومن فيها.

— يا سجاح... عودي إلى رشدك، إن أبا بكر أقسم أن يقضي - على المرتدين.

— وأنا سأقول لرجالي: قاتلوا جيش أبي بكر بكل قوة وشراسة، فإنه لا بد من الموت في يوم من الأيام، فلا تهابوا الموت يا أشاوس، ولسوف يمتثلون لرغبتى ويأتمرون بأمرى، ويحاربون من أجلى حتى آخر رجل.

مصمص شففيه، وقال بنبرة متحسرة:

— أتدري يا مسكينة من على رأس الجيش الذي يزحف الآن في الطريق نحو اليمامة للقضاء على مسيلمة وأكاذيبه وأعوانه، ثم يأتي

إليك في عقر خيمتك ليقطع رأسك الجميلة تلك، ومن بعدك يقتل
أتباعك؟!

تملكها شيء من الفزع، وإن حاولت التماسك، وأظهرت رباطة جأش
واهنة متسائلة:

— من يكون قائد جيش أبي بكر لمحاربتنا؟!

— خالد بن الوليد... وما أدراك ما خالد! إنه الفارس المغوار الذي لم
يُهزم في معركة دخلها، سواء قبل إسلامه أو بعد إسلامه، وهو الذي
أطلق عليه محمد: سيف الله المسلول.

— ولو يا مالك... هذا كلام فارغ لا يثير خوفاً؛ لأن جيشي - عامر
بالأبطال النشامى الذين سيقهرون خالد وجنده، ويلحقون به وبهم
الهزائم، ولسوف تكون الهزيمة الأولى لابن الوليد على يدي أنا
ورجالي.

ضحك مالك بشماتة واستهانة:

— قلبي معك أيتها المغرورة، أرى نهايتك أصبحت وشيكة، ونهاية
زوجك الكذاب مسيلمة، إن القتل على بُعد أميال قليلة منكما يا
بنت التميمي.

نفرت وزفرت، واستنفرت قائلة:

— إنك تهذي من الحقد والغيرة لأنني فضّلت عليك مسيلمة نبي الله
ورسوله.

قبل أن يستدير وينصرف مغادرًا المكان، قال لها:

— أتدريين أيتها المغرورة بنفسك ماذا قال خالد بن الوليد قائد جيوش
المسلمين عندما عرف بأمرِك وجاءته الأوامر بجريك؟!
هتفت بشيء من الغطرسة واللامبالاة:

— ماذا قال؟!!

— ضحك خالد، وصاح وهو يرفع سيفه لأعلى في الهواء، وقال:

— آه يا خالد... على آخر الزمان ستحارب بسيفك هذا امرأة كاذبة
تدعي النبوة، يا لها من مغامرة نسائية! إنه شغب ناعم!

— شغب ناعم... أهكذا قال عني؟!!

— نعم، قال: شغب ناعم، ولسوف أنهيه بحد سيفي هذا الذي لم
يقتل سوى الرجال، وتعهّد أمام أصحابه وجنده بأن يعود برأسك إلى
أبي بكر في المدينة. يا سجاح، رقبتيك الآن أقرب ما تكون من
سيوف المسلمين، وقائدهم خالد، فاحترسي، ليس بعد الروح روح!

انبرت قائلة:

— لا تظن نفسك يا مالك — أنت أيضًا — في مأمن من سيوف المسلمين، أنسيت أنك كنت من عمال محمد — قبل وفاته — في قبائل تميم؟ وقد اختلف العمال حين بلغهم نبأ موته ماذا يصنعون: أيؤدون الزكاة لأبي بكر أم يمنعونها عنه ويقسمونها على الناس؟!

وهذا الخلاف في الرأي أدى إلى أن يقاتل الناس بعضهم بعضًا... ورأى فريق منهم أن يظل على العهد مع محمد، ويكون الولاء من بعده لخليفته في المدينة أبي بكر، وفريق آخر تنكر لمحمد وخليفته، وخان العهد والوعد، ورد الزكاة لأصحابها، واعتبر أن أبا بكر ليس له حق اقتضاء هذه الأموال، وكنت أنت يا مالك على رأس هذا الفريق، واليوم سيأتيك الحساب من أبي بكر وسيوفه المسلولة المسنونة.

تركها وانصرف، وقد نجحت في أن تزيده همًّا وغمًّا، وتربك حساباته هو أيضًا حتى لا يكون حاله أفضل من حالها، وإن تركها في حال لم تكن عليها حينما دخل إليها؛ لقد تبدل حالها تمامًا، وأحست بالخوف يداهما، ووضعت يدها لتحسس رقبتها برفق، وتفكر فيما يمكن أن تفعله، وهي تعرف أن سيف خالد لا يرحم.

خرجت إلى رجالها، وصاحت فيهم بصوت متهدج جزع فرع:

– شددوا الحراسة يا رجال، وانتبهوا جيدًا... لقد سمعت أن جيش أبي بكر بقيادة خالد بن الوليد في الطريق إلى اليمامة، وسيُتجه إلينا عاجلاً أو آجلاً.

(44)

11 أغسطس

المدينة المنورة

12 هجرية / 633 م

بلغ الخليفة أبو بكر أنَّ سجاح التميمية التي ادَّعت النبوة، وتحالفت مع مسيلمة بن حبيب الحنفي، لها أخ من المُخلصين في صفوف المسلمين، يُدعى يربوع التميمي، وهو من عمّال عثمان بن عفّان في تجارته وأعماله؛ فسأل عنه الخليفة، فأخبروه أنّه انخرط في صفوف

المجاهدين ضمن جيش خالد بن الوليد المتوجّه إلى بلاد العراق لمحاربة المرتدّين.

فقال الخليفة:

— اتّوني يربوع التميمي على وجه السّريّة.

وعلى الفور استدعوه ليمثل بين يدي خليفة رسول الله، وجاء يربوع والقلق ينتابه، لكن أبا بكر قال له برفقه المعهود وحنانه الأبوي:

— سبحان الله يا ابن التميمي، يُعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء.

همس يربوع:

— نعم يا أمير المؤمنين، لله الأمر من قبل ومن بعد.

لكنه لم يكن يفهم ماذا يقصد الخليفة من وراء هذا القول، فانتظر حتى يُفصح الخليفة، وبالفعل سأله:

— أتدري لماذا استدعيتك الآن؟!

— العلم عند الله ورسوله وخليفة رسول الله.

— لأن الله أعزّك بالإسلام يا يربوع، وأذلّ أختك سجاح بالشرك.

طأطأ رأسه خجلاً ولم ينطق، بل اكتفى بالامتعاض والخنجل، فعاد الخليفة يقول:

— لم تكتفِ أختك بالشرك، بل زادت عليه إثماً عظيماً، وزعمت أنَّ الوحي يأتيها من السماء. ليس هذا فحسب، بل زادت عليه، وتزوَّجت مسيلمة الكذاب، وتحالفت معه ضد المسلمين، وزادت من شوكة المرتدِّين على حدود الله ورسوله.

قال يربوع، والأسى يكسو وجهه:

— لا حول ولا قوَّة إلا بالله، إنَّ المصائب لا تأتي فرادى.

— لا عليك يا يربوع.

— أنا رهن إشارتك يا خليفة رسول الله، ولو أمرتني أن أحمل سيفي وأذهب إليها في ديار بني تميم، وأضرب عنقها في الحال، لأفعلن بمشيئة الله.

تبسَّم الصديق وقال برفق:

— لا... لا، هون عليك يا تميمي، ما هكذا تؤخذ الأمور، وخاصة أمور النساء. نحن قوم لا نهوى سفك الدماء، ولا نقتل النساء؛ فهنَّ

قوارير، والنبي الكريم قال لنا: «رفقًا بالقوارير». إنّ ديننا السّمع دين السلام والرحمة، والعفو والمغفرة.

— انظر ماذا ترى يا خليفة رسول الله، ولك عليّ السّمع والطاعة.

أطرق الخليفة يفكر قليلًا، ثم قال:

— علينا أن نجرب أخذها باللين، ففي كثير من الأحيان يفعل اللين ما لا تفعله الشدّة، وتفعل الكلمة الطيبة ما لا يفعله السيف الحاد.

— وماذا ستفعل يا أيها الخليفة الصديق؟!

— سأحملك رسالةً إلى أختك سجاح، فأنت خير رسولٍ مني إليها، وأسأل الله أن يهديها على يديك قبل أن تدور رحي الحرب، وتُدق طبول المعارك على أرض اليمامة وفي جزيرة الفرات بأرض العراق، وبعد ذلك لن ينفع الندم؛ لأن السيوف ستطيح برؤوس المرتدّين وزعماء الشّرك وأعوانهم الذين يُحاربون الله ورسوله.

ارتاح يربوع قليلًا، وهدأت نفسه بعض الشيء، وقال:

— رسالة إلى سجاح أختي... نعم الرأي يا أمير المؤمنين.

وسلّمه أبو بكرٍ الرسالة التي كتب فيها:

– (بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، خاتم النبيين أجمعين، محمد بن عبد الله النبي الأمين. أمّا بعد...

السلام على من اتّبع الهدى... من أبي بكرٍ خليفة رسول الله إلى سجاح بنت الحارث بن تميم.

لقد أغواك الشيطان، فسرت في ركابه على طريق الشرك والضلال. لست نبيّة، ولن تكوني أبداً؛ لأن النبي الخاتم أدّى الرسالة، وأكمل الأمانة، وانتقل إلى جوار ربّه، ولا أنبياء بعده.

وخاب وخسر- من زعم غير ذلك، وغوى في الضلال، وحاد عن الحق، وخالف الطريق القويم.

ربما خدعك مسيلمة الكذاب وغرّر بك، فهويت معه حيث هوى في الإفك والضلال، وعليك أن تعلمي أنني لن أترك حبة من خردل كان الناس يؤدونها لرسول الله إلا وحاربتهم من أجلها.

«والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال... والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه». والعقل هو الحبل القصير، وهي مبالغة منه رضي الله عنه تؤكد أنه سيقاتلهم على أي شيء كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم.

عودي أيتها التميمية إلى رشدك، وارجعي إلى عقلك، قبل أن تسمعي
صهيل الخيول بجوارك، وصليل السيوف على رقبتك، وقد أعذر من
أنذر.

فها هي سيوف المسلمين على وشك أن تضرب رؤوس الرجال من
أمثال مسيلمة الكذاب ومن معه من الأتباع الغاوين الضالين المضلين.
ولسوف تطولك سيوف المجاهدين بعد مسيلمة مباشرة، فادخلي
دارك، وأغلقي عليك بابك، واصري في رجالك إلى حال سييلهم،
واستغفري لريك، وأسأل الله العلي العظيم رب العرش العظيم أن
يهديك إلى سواء السبيل، ويقيك شر الشرك والمشركين).

وختم أبو بكر الصديق رسالته بخاتم الخليفة، وقال له:

— انطلق بها يا يربوع إلى أختك دون تأخير، عسى-الله أن يجعل
تلك الرسالة سبباً لهدايتها وإيقاظ رقتها.

قال يربوع منشرح الصدر:

— لقد دعوت لها يا خليفة رسول الله، وظني أن الله لا يرد دعوتك،
وأنت من أنت.

– يا ابن التميمي... لا نزكي أنفسنا على الله، إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.

أوماً برأسه ولم يتكلم، بينما تبسم أبو بكر قائلاً:

– نسأل الله العفو والعافية، هيا انطلق في أمان الله.

عندما وصل يربوع إلى خالد بن الوليد قائد الجيش أخبره بالأمر، واستأذنه أن يمضي إلى حيث أمره الخليفة، فقال له خالد:

– هيا انطلق على بركة الله.

امتطى فرسه، وشقّ دروب الصحراء عائداً إلى الديار، وبجوزته الرسالة التي يعتبرها طوق النجاة الأخير لأخته من الهلاك الوشيك. وعندما اقترب من مقر إقامتها، وجد حولها رجالاً كثيرين يحرسون خيمتها، فحاول أن يدخل، لكنهم منعوه وأشهروا سيوفهم في وجهه، فاستغرب يربوع وسألهم:

– ألا تعرفون، أيها البلهاء، أنني يربوع شقيق سجاح؟!

قالوا:

– بلى نعرف.

– وماذا دهاكم إذن؟!

– لن نسمح لك بالدخول إليها قبل أن تأذن هي لنا.

– ولماذا كل هذا التحفُّز والاستنفار ما دمتم تعرفوني؟!

– لأنك يا يربوع لست منا الآن، أنت من الأعداء.

– من الأعداء... كيف؟!

– بالطبع من الأعداء... ألسنت من معسكر المسلمين؟!

هزَّ رأسه وقال:

– لا بأس... أخبروها أنني جئتُها برسالة من الخليفة أبي بكر الصديق.

عندئذٍ أذنت له بالدخول، واستقبلته بالترحاب والأحضان والأشواق،
وهاجت الذكريات، وتحدثا بكلمات طيبات ومشاعر أخوة دافئة
وحميمة.

وسألها دهشًا مستنكرًا:

– أحقًّا يا سجاح أنت نبيّة، يأتيك الوحي من السماء؟!

ارتبكت قليلاً ولم تنطق، فعاد يقول:

— والله يا أختاه... والله الذي رفع السماء بغير عمد، لو فعلتِ ذلك فأنّيتِ من الكاذبين.

— أتكدّب أختك يا يربوع، وقد صدّقها الآلاف من الحشود، وها قد رأيت بعينك بعضاً منهم؟!

— أأصدق الله الحق ونبيه الأمين وقرآنه الكريم، أم أصدق أختي في هذيانها؟!

— تصدّق أختك يا يربوع، وتساندها وتدعمها.

— لا أصدّق الأكاذيب، فنور الحق يسطع على كل الدنيا بفضل الله ونبيه محمد خاتم المرسلين، ولا نبي بعده، واللعنة والجحيم ونار جهنم لمن يفترى على الله ورسوله بالإفك المبين.

ثم مدّ يده لها بالرسالة وقال بضيق:

— يا أختاه... هذه رسالة خليفة المسلمين إليك، لعلها تكون طوق النجاة والإنذار الأخير، قبل أن تقول السيوف كلمتها، وتضرب النصال والنبال والسهام ضرباتها في قلوب الضالين الآثمين.

فَضَّت الرسالة وقرأتها بإمعان بصوت هامس مسموع، وعندما فرغت منها طوتها، وقد تغيَّرت ملامحها الجميلة، وامتقع لونها الخلاسي، ولاحت أمارات الامتعاض المزوجة بالرهبة على وجهها الجذاب، لكنها لم تنطق بشيء.

فسألها يربوع:

— ماذا ستفعلين يا سجاح؟!

— لا شيء.

— وماذا أقول للخليفة؟!

— لا شيء... قل له: أمهلني بعض الوقت لأنظر في الأمر.

— يا أختاه... أخاف عليك، فلا تهدري الفرصة وتضيعي الوقت، وخالد يزحف الآن بالجيش. لا أريدك أن تخسري الدنيا والآخرة، إن سيوف المسلمين لن تبقي ولن تذر أي مرتد، فأعقلي الأمر، ولا تنسي أن خالد بن الوليد قد أقسم إن لم ترجعي عن أكاذيبك، لسوف يقطع رأسك بسيفه، ولو كنت في بروج مشيدة.

28 أغسطس

المدينة المنورة

12 هجرية / 633 م

يعود يربوع التيمي - بخفي حنين - إلى الخليفة أبي بكر الصديق،
ويحكي له عما حدث، وهو يشعر بالأسى والأسف وعظيم الخجل.
وقد سأله الخليفة عندما دخل عليه:

- أخبرني يا تيمي، ما شأن أختك الشاردة؟!

طأطأ رأسه وقال:

- يا خليفة رسول الله، عفوك وحلمك... إن أختي لم تُبدِ جواباً
شافياً حتى الآن.

تبسم أبو بكرٍ وتمتم برفق:

- هوّن على نفسك أيها التيمي، فكل شيء بأمر الله.

– صدقت أيها الصديق... صدقت يا خليفة رسول الله.

– أخبرني... ماذا قالت لك بعد أن قرأت رسالتي؟!

– لا شيء... لا شيء يا أمير المؤمنين.

– ألم تتكلم معك في الأمر؟!

– بلى... قالت: أملهوني بعض الوقت.

– وما رأيك أنت يا يربوع؟!

– هي أختي التي أعرفها كما أعرف نفسي التي بين جوانحي، وأظنها
تماطل وتراهن على كسب الوقت، لكن هذا لن ينفعها.

تبسم أبو بكرٍ وقال:

– لا بأس عليها، نمهلها بعض الوقت يا رجل... إن النساء تشغلهن
التفاصيل، وكل امرأة تحتاج إلى الوقت في كل شيء يخصها، عكس
الرجل لا ريب في هذا، وعلينا أن نتفهم الحال ونصبر... إن الله مع
الصابرين.

– هذا كرم وفضل لا تستحقه أختي سجاح يا خليفة رسول الله.

- نمهلها ما تحتاج من وقت... إن الله خلق الدنيا في ستة أيام.
- لو تهدر يا أمير المؤمنين دمها، وتأذن لي بقتلها فنستريح منها.
- تجهّم أبو بكرٍ وقال بنبرة غاضبة بعض الشيء:
- ما هكذا علّمنا رسول الله يا يربوع، بل قال: «رفقًا بالقوارير».
- لكنها تبادت وتجاوزت كل الحدود، وإثمها عند الله عظيم.
- لا بأس... إن الله يغفر الذنوب جميعًا لو تابت ورجعت، كل ما علينا أن نعطيها الفرصة لتعود إلى رشدها... ألم تقل: أمهلوني؟!
- بلى... قالت يا خليفة رسول الله.
- نمهلها يا رجل... لا تقتلها ولا تؤذيها حتى نرى منها أمرًا آخر.
- بشيء من الضيق واليأس:
- لا أنتظر منها خيرًا، أنا أعرف أختي وصلفها وعنادها.
- قال أبو بكر:

— لا تقنطوا من رحمة الله، لعل الله يُحدِّث بعد ذلك أمرًا. أنسيت دعوتنا لها بالهداية، وقتننا في الله بلا حدود؟ يغيِّر الله الحال بين طرفة عين وانتباهتها.

— أراك يا أمير المؤمنين حليماً عليها، رفيقاً بها أكثر من أخيها الذي من لحمها ودمها.

بوجه بشوش قال الصديق:

— لا تنس أنها امرأة ضعيفة، خلقت من ضلع أعوج، إذا أردت أن تقوِّمه كسرته.

— ما أعظم أخلاقك أيها الصديق.

— هكذا تعلَّمتنا من الحبيب رسول الله... هل نسيت يا تيمي ما فعلته أمنا حواء مع أيننا آدم؟! وهل نسيت أمهات المؤمنين ماذا فعلن مع رسول الله، خير خلق الله، حين غضب منهن جميعاً؟ إنها المرأة يا يربوع التي أوصانا بها رسول الله في كل الأحوال.

— يا خليفة رسول الله... لقد أتت سجاح بما لم تأت به امرأة من قبل، تجرأت على الله ورسوله، وزعمت النبوة والوحي كذباً وبهتاناً!

ضحك أبو بكرٍ وقال:

– ذكرتني بما فعلته ابنتي عائشة مع زوجها رسول الله، حين احتدم الأمر وغضبت، وجاءت إلى داري عقب حادثة الإفك، وظلت عندي حتى نزل القرآن من فوق سبع سماوات ليبرئ ساحتها من الفاحشة التي رماها بها المنافقون. وعندما جاء رسول الله ليأخذها إلى داره قالت له مغاضبة:

– تكلم يا محمد، وقل الحق ولا تكذب.

– عندئذٍ هممت أن أزجرها وألومها، وأعلمها أدب الحديث مع رسول الله الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، لكن رسول الله أشار لي بحلمه وكرم أخلاقه ألا أفعل شيئاً يؤذيها.

هتف يربوع:

– يا الله... والله إنه لعلی خلق عظيم، هذا هو النبي، وهذا هو ثاني اثنين، ما أعظمك يا رسول الله، وما أرق قلبك يا خليفة رسول الله.

قال أبو بكر:

— أنتم آل التميمي من أصل طيب، وأظن أن سجاح سترجع عَمَّا فعلت، وتُبدي الندم والتوبة، ولكن عليها أن تهجر شياطين الإنس، وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، وستكون امرأة صالحة بإذن الله.

— كنت أود أن أقتلها بيدي وأمحو عارها من الوجود، وأطهر ساحة الجزيرة من أكاذيبها وإفكها، فليس بعد النبي محمد نبى آخر ولا نبيّة.

— ستعود إلى عقلها عَمَّا قريب، ويكون لها شأن آخر، فلا تقلق يا تميمي على أختك، ولا تنزعج من أحوالها؛ فكم من أكاذيب ذهبت مع الريح، وكم من كذابين ودعاة نبوة فضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ورفع عنهم غطاء الستر فأذلهم بتضليلهم للناس.

تهد يربوع قائلاً:

— لا أستطيع أن أرفع رأسي، ولا أستطيع النظر في عيون إخواني من الصحابة الأبرار، والمسلمين الأخيار المجاهدين في سبيل الله ورسوله، وأختي تزعم وتنادي في البرية أنها نبيّة.

هزّ الصديق رأسه قائلاً:

— لكل شيء نهاية، ونحن لن نقتلها من أجل كذبة.

– لكنها ليست كذبة عادية يا خليفة رسول الله، بل إنها تزعم أنها نبية، وأن الوحي يأتيها من السماء.

ضحك أبو بكرٍ برحابة نفس وهتف:

– يا حبيبي يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، انقطع الوحي منذ رحيلك إلى جوار ربك، ولم نعد نسمع سوى أكاذيب المهوسين بالوحي والنبوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– وما العمل يا خليفة رسول الله؟!

– لا شيء سوى الصبر، وستكون سباح شجرة صالحة في بستان المسلمين بمشيئة الله، بمجرد أن نجتث الشجرة الخبيثة.

– ومن تكون الشجرة الخبيثة أيها الصديق؟!

– مسيلمة.

عندئذٍ استأذن يربوع في الانصراف إلى صفوف جيش خالد، وقال:

– السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

– وعليكم السلام ورحمة الله، أبلغ خالدًا تحياتي، وأخبره أن عليه بمسيلمة، ومن بعده القضاء على أتباعه، وستكون الأمور على خير ما يُرام.

– أمرك يا خليفة رسول الله.

– مسيلمة رأس الأفعى، فلا تأخذكم به رافة ولا رحمة.

– وماذا عن سجاح؟!

– دع أمرها لله، لقد دعوت لها بالهداية، وظني بالله أنه سبحانه لن يخيب رجائي.

انفجرت أسارير يربوع، وزال عنه همّ أخته، وانصرف مطمئنًا مسرورًا؛ ظنًا منه أن سجاح ستلفظ الكذب، وتعود إلى الحق في الأجل القريب.

3 سبتمبر

جزيرة الفرات

12 هجرية / 633 م

دبَّت الخلافات بين السيدة رغد (أم تميم) وزوجها مالك بن نويرة،
بعد أن اشتعلت نار الغيرة في قلبها نتيجة إحساسها بوقوع زوجها في
هوى سجاح وغرامه بها، وإن سألته بمرارة الغيرة:

— أما زلت تحبني يا مالك؟!

— بالطبع يا رغد.

قالت متسائلة:

— وسجاح التميمية... تلك الأرملة الفاتنة، أتحبها أيضًا؟!

قال بصراحة وشجاعة:

— نعم، أحبها.

بضيق وغضب:

– وكيف تحبني وتحبها في آنٍ واحد؟!

قال:

– لا أدري... ربما لأن قلب الرجل يتسع لأكثر من امرأة في وقت واحد.

بدهشة مستنكرة سألته:

– قلب الرجل يتسع لأكثر من امرأة! وماذا عن زوجتك التي تحبك؟ وهل ترضى أن تُشرك زوجتك رجلاً آخر معك في قلبها؟!

– يا رعد... يجب أن تعرفي أن قلب المرأة لا يتسع سوى لرجل واحد فقط، إذا أحبَّته اكتفت به وأغناها عن كل رجال الدنيا. عكس الرجل، يهوى قلبه الشقراء والسمرء والهيفاء والطويلة والسمينة والعجفاء. النساء بالنسبة للرجل كحبات الفاكهة، لهنَّ مذاقات مختلفة، وألوان وأشكال مختلفة، محبة إلى قلبه المتعدد الأماكن لهن جميعاً.

باستنكار سألته:

— أهذا داء يصيب الرجال جميعًا دون النساء، أم أن زوجي وحده هو المريض بهذا الداء؟!

— لا يا رغد... زوجك ليس بمريض، إنما هذا خلق الله الذي وضع أسرارَه في القلوب، ويقلبها بين الحين والآخر كيفما شاء. إن قلب الرجل مثل الدار التي بها غرف كثيرة تتسع للكثيرات من بنات حواء، أما قلب المرأة فهو عبارة عن حجرة واحدة لا تتسع إلا لساكن واحد.

تملكها الغيظ، تنهدت وزفرت، ونفرت بالقول:

— هذا خلق الله، أم غرام ابن نورية بالأرملة الحسنة مدعية النبوة سبحانه التسمية؟!

تلثم قليلًا واربتك قائلاً:

— لا أدري يا رغد، لكنها سكنت قلبي ووقرت فيه، وحدث ما حدث.

— وماذا أنت فاعل معي ومعها أيها العاشق اللهوف؟!

– سأجمع بينكما في يوم من الأيام؛ لأنني لا أستطيع أن أعيش بدونكما، أنتِ حبي الأول، وهي حبي الأخير.

– ومسيلمة زوجها؟!

– مسيلمة لن يعمر معها طويلاً، وأمرهما سينفض قريباً؛ لأن المسلمين سيقتلون مسيلمة عاجلاً أو آجلاً، ولو لم يفعلوا ستصرف سجاح عنه في يوم أحسبه قريباً.

– لماذا؟!

– لأنه ليس من ثوبها ولا من عمرها، ولا بينهما حب، ولا هو فتى أحلامها. كل ما في الأمر أن المصالح تتصالح، ويرتبطان لمواجهة عدو واحد هو جيش المسلمين.

كظمت غيظها في نفسها، وانتوت أمراً قاسياً لا بد أن تفعله، عسى- الكي بالنار يشفي الجرح المستعصي.

وقد أدركت السيدة رعد أن الشقاق بينها وبين زوجها مالك بن نويرة، والهجران الذي أصاب علاقتهما الحميمة، ما هو إلا نتيجة طبيعية لدخول التميمية بينهما؛ ولهذا عليها أن تعاقبها عقاباً شديداً، وتجعلها تدفع ثمن مراودتها لزوجها عن نفسه.

إن الرجل تحركه الغريزة، أما المرأة فتحركها الغيرة.

عزمت أمرها، ودبرت مكيدتها، ولسوف تنفذها عاجلاً لا آجلاً
بيدها لا بيد غيرها. ارتدت السواد، وتدثرت به، وغطت وجهها
بالبرقع الأسود المطرز، وخبأت - بعناية وحذر - خنجرًا حادًا تحت
ثيابها الطويلة الفضفاضة، وانطلقت إلى حيث تقيم سجاح. وعلى بابها
وقفت تطلب مقابلتها، فمنعها الحراس، عندئذ كشفت لهم عن
شخصيتها وقالت:

- أخبروها أنني رعد زوجة مالك بن نوية، جئتها لأمر عاجل ومهم.

ساورها الشك في أمرها، وقالت سجاح لحراسها:

- انتبهوا واحذروا هذه المرأة.

قالوا لها بأدب وخشوع:

- سمعًا وطاعة، أيتها النبية.

عندئذ قالت:

- أدخلوها هنا، ولكن كونوا سدًا منيعًا بيني وبينها، ولا تتركوها تنفرد
بي؛ لأنني لا آمن مكرها وأتخسب شرها. إنها امرأة مجنونة، شديدة

الغيرة، حادة الشراسة، وتكرهني كثيرًا، وهي على أتم الاستعداد لتفعل أي شيء في سبيل رجلها مالك بن نويرة.

وبالفعل وقف حارسان قويان مسلحان حاجزًا بين المرأتين، وعلى الفور أدركت رغد أن سباح تخشاها وتحسب لها ألف حساب. حينئذ تملكها الشك في أن يكون مالك قد حذرها، فها هي تأخذ حذرها، ولكن رغد صمتت على النيل منها مهما كانت العواقب والحواجز.

وبينما الحوار يدور بينهما بشكل هادئ، لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، مدت رغد يدها خلسة تحت رداءها، وسحبت الخنجر المسنون، وقفزت فجأة كالثعلب الصحراوي نحو غريمتها - من بين الحارسين - كالنمرة الشرسة، تحاول طعنها بالخنجر في قلبها.

لكن أحد الحارسين كان متيقظًا، مستنفر الحواس، حال دونها أن تقتل سباح، فأصابه الخنجر بطعنة في ساعده الأيمن تركت جرحًا غائرًا، وهي تصرخ كالمجنونة وتقفز للأمام عساها تظفر بها وتنال منها:

- سأقتلك يا سباح، سأقتلك أيتها الأرملة اللعوب!

في لحظات خطيرة وحرجة، رأت التميمية الموت بعينيها، والخنجر الحاد النصل بريقه اللامع أقرب ما يكون إليها من حبل وريدها. وعلى الفور دوّت صرخة الحارس الجريح، لكن الحارس الثاني أمسك برغد، ولم تعد قادرة على الإفلات أو الحركة. عندئذ صاحت سباح بصوت مفزوع:

— أيها الحراس! أيها الحراس!

دخلوا عليها مهرولين، فأصابعهم الهلع حينما رأوا الدماء تسيل من زميلهم المطعون، وبنبرة أمرة حاسمة قالت سباح:

— اقبضوا على هذه المجرمة التي حاولت قتلي، وقيدوها بالأغلال الفولاذية والسلاسل الحديدية حتى أنظر في أمرها.

أخذوها وخرجوا بها بالقوة، ووضعوها في خيمة صغيرة قريبة، مقيدة الأيدي والأرجل، بينما سيطرت على التميمية حالة من الغضب والقلق، لا تدري ماذا تفعل، أنقتلها وتنسى أمرها؟!!

لكن خطر على بالها أن ترسل إلى مالك بن نويرة لتطلعه على الأمر بمكايدة نسائية، عساه يقتص لها من زوجته فيجرها مليًا، أو يطلقها للأبد!

وبذلك تكون سجاح قد انتصرت عليها، وتأثرت لنفسها بطريقة ناعمة،
وتكسب في الوقت نفسه تعاطف مالك إلى صفها، وتدق بينه وبين
زوجته إسفين الفراق الأخير.

جاء مالك ملهوفاً شغوفاً استجابة لنداء سجاح، وقد عرف بخبر امرأته
معه، فأخذته من يده، وذهبت به إلى حيث وضعها الحراس في
خيمة، وهي ملقاة على الأرض مقيدة الأيدي والأرجل بالسلاسل
والأغلال. ونظر إليها زوجها نظرة عتاب ولوم شديدين، لكنها كانت
في قمة غضبها وأوج ثورتها، وقد أحست أن سجاح أهانتها إهانة
كبرى، وأذلتها أمام زوجها، وكسرت نفسها، فقال لها معاتباً:

— يا رعد... ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

— جئت لأثأر لكرامتي، وأحافظ على زوجي.

— لقد ارتكبت حماقة ما بعدها حماقة بفعلتك المشينة تلك، هيا
التمسي العفو والسماح من السيدة سجاح.

صاحت في وجهه مستنكرة:

— لن أطلب العفو من امرأة عرفها العرب بالكذب، وما هي إلا أرملة
لعوب وضعت عينيها عليك لتسلبك من زوجتك وأولادك.

قال مالك:

– لكنك تهجمت عليها في عقر دارها وبين أتباعها سعيًا لقتلها، هيا
اعتذري لها، وكفى ما جرى للحارس المسكين بسببك.

– لن أفعل يا مالك، حتى ولو تركتهم يقتلونني هنا.

التفت مالك إلى سجاح وقال بنبرة استعطاف لينة:

– أرجو أن تقبلي اعتذاري وأسفي بالنيابة عن زوجتي، وأعدك بأن
هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى.

صرخت رعد بجنون وغيرة:

– ومن أدراك أنني لن أعيد المحاولة لكي أنال منها؟!

لم يهتم بما قالته رعد، وحاول أن يلطف الأجواء ويستعطف سجاح:

– أرجوك أيتها التميمية النبيلة أن تصفحي عنها، وقبلي أسفي.

تبسمت وقالت بمكر لتكيدها وتغيظها بنبرة هامسة بدلال:

— من أجلك أنت يا مالك، وإكرامًا لك وحدك عفوت عنها.

ثم أشارت للحراس وقالت بنبرة آمرة:

— فكوا وثاقها، وحرروها من قيدها، وأطلقوا سراحها إكرامًا لزوجها

الغالي علينا، لعلها تكون قد تعلمت الدرس، وفهمت أن لا أحد ينال

من سجاج التمية بسهولة.

بمجرد أن فكوا قيودها، ألقت بالسلاسل الحديدية على الأرض

بعصبية، وهي تسب وتلعن. فحاول مالك أن يأخذ بيدها لتنهض

وتسير إلى جواره، لكنها سبقته وحدها، وهي تعربد وتدب على

الأرض بقدميها، وقالت:

— لا تلمسني يا ابن نؤيرة، طالما تلك الأرملة الكذوب ما زالت

تتلاعب بك، ولا تحرك ساكنًا تجاهها رغم كل ما فعلته في زوجتك.

وها أنت قد رأيت بعينيك، كُتْ أَظْنُكَ ستأتي إلى هنا شاهراً
سيفك لتحررني من أسرها وقيودها، وتضرب عنقها هي وحراسها،
لكن يبدو أن حبك لها أنساك الشهامة والمروءة، وضاعت منك
الكرامة والغيرة على امرأتك التي أهينت على مرأى ومسمع منك!
قال مالك بامتعاض:

— يا مفترية... أتدبرين مؤامرة لقتلها، وتهجمين عليها في عقر دارها،
وتطلبين مني أن أثأر لك منها كأنك أنتِ الضحية؟! عجباً لك يا رعد!
صارت تضرب في الرمال بقدميها، وتسير على غير هدى، منكوشة
الشعر، متهدلة الثياب، متسخة من أثر الرمال، بينما هو يتبعها كاضماً
غيظه.

16 أكتوبر

حديقة الموت

12 هجرية / 633 م

كان لزواج مسيلمة من سجاح عميق الأثر على حركة الردة، وكانت سجاح امرأة ذكية لها شخصية آسرة، تعرف كيف تقود الرجال من أجل تحقيق أطامعها وطموحاتها الشخصية، مما قوى شوكة المرتدين بالعدد والعتاد، وأصبحت تلك الحركة هدفاً أساسياً لأبي بكر الصديق، خليفة المسلمين.

في البداية أرسل لهما جيشين... قاد الجيش الأول عكرمة بن أبي جهل، بينما قاد الجيش الثاني شرحبيل بن حسنة، فلم يستطيعا القضاء على مسيلمة وسجاح، وكسر شوكتها وأتباعها الذين يتزايدون كالنمل، ويتكاثرون كالجراد بأعداد غفيرة، ويتحصنون في حصن حصين بأسوار عالية وبوابة ضخمة عاتية. ولم تتمكن قوات الجيشين

من هزيمة قوات مسيلمة وسجاح المتحصنة وراء جدر شاهقة متينة داخل هذا الحصن.

عندئذ استدعى الخليفة أبو بكر - آنذاك - القائد خالد بن الوليد، وأمره أن يزحف بجنده إلى أرض اليمامة ليقضي- على الفتنة التي صنعها المرتدون عن الإسلام عقب وفاة رسول الله.
لبي خالد النداء قائلاً:

- السمع والطاعة يا خليفة رسول الله.

وزحف خالد بقواته متوجهاً صوب اليمامة، وبالفعل تمكن سيف الله المسلول من مواجهة مسيلمة بحصنه الحصين وجنده المستبسلين، وهزمهم بعد حرب ضروس دامت عدة أيام ومعارك مضيئة، كاد فيها جيش مسيلمة أن يفتك بخالد بن الوليد، لدرجة أنهم دخلوا خيمته، وأوشكوا أن يقتلوا زوجته، لولا أن أجارها أحد الأسرى وأنقذها من بين أيديهم.

ودارت المعركة الفاصلة بعد الكر والفر والمناورة، وحانت ساعة الحق المبين، واقتحام الحصن الحصين، بينما جنود مسيلمة وسجاح وأتباعهما مستميتون مستبسلون، فقد كان تأثيره على أتباعه جباراً. وألقى جند

خالد القبض على مجموعة من كبار فرسان مسيلمة، فلما عُرضوا عليه
سألهم ابن الوليد:

— ماذا تقولون يا بني حنيفة في مسيلمة المختبئ خلف أتباعه داخل
الحصن؟!

قالوا:

— منا نبي ومنكم نبي... تلك عدالة السماء.

فأمر خالد بقتلهم جميعًا إلا واحدًا منهم اسمه سارية، نطق بالحق وقال:

— أنا أخالفهم الرأي يا سيف الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله وخاتم
الأنبياء والمرسلين، وأن مسيلمة ما هو إلا كذاب أثيم.

في تلك الأثناء كانت سباح تعيش مع مسيلمة داخل حصنه الكبير،
وجندها يدعمون صفوف جنده، لكنها في مؤخرة الحصن تراقب بعين
التوجس ما تسفر عنه المعارك، عساها تكون في مأمن من مرمى
سهام جيش خالد وسيوفه.

وذات نهار خريف عاصف، وبعد طول حصار، اقتحم خالد بجيشه
الحصن، عندما نجحوا في إلقاء مجموعة من الفدائيين عبر الأسوار

العالية إلى داخل الحصن، فتمكنوا من فتح البوابة الضخمة، وانهال جنود المسلمين كالسيل العارم إلى داخل الحصن، وقتلوا أعدادًا هائلة من أتباع مسيلمة.

عندئذ أحس مسيلمة بأن الهزيمة وشيكة، فراجع للوراء محاولًا التقهقر، والبحث عن مهرب آمن من الباب الخلفي للحصن، لكن وحشي بن حرب، الفتى الحبشي (قاتل حمزة عم النبي)، كان يبحث عن طاقة نور ليكفر عن قتله من قبل لعم الرسول، أسد الله حمزة بن عبد المطلب.

وظل يجوس بعينه كعيني صقر دؤوب، ويده حربته الطويلة المسنونة بين الحشود، حتى لمح مسيلمة يتراجع إلى الوراء في الزحام محاولًا الفرار. ركّز وحشي عليه، ثم قفز لأعلى قفزة أسد جصور ليتمكن منه، وأطلق حربته من أعلى الرؤوس وسط الحشود لتستقر في قلب مسيلمة الكذوب، وتقضي عليه في حديقته المفضلة التي كان يسميها (حديقة الموت)، متوعدًا بالموت كل من يحاول أن يقتحم الحصن ويصل إلى الحديقة، لكنه هو الذي قُتل فيها... لا شك أنها عدالة السماء.

رماه وحشي- الرمية الأخيرة الصائبة بالحربة القاتلة، فغقره كما تُغقر النوق. حينئذ سكت الكذاب عن الكلام، وما عاد يردد الأكاذيب إلى يوم الدين، ثم ضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه، وانتهت معركة اليمامة بنصر مؤزر من الله لخالد بن الوليد وجيشه.

انتهى أمر مسيلمة ولقى مصرعه، وعمره يقترب من المائة، لقي حتفه في حصنه الحصين على مقربة من زوجته: هاجر بنت سعد، وسجاح بنت الحارث التميمية، ووقعت هاجر في أسر المسلمين.

أما سجاح فكانت داهية؛ حين علمت بمقتل مسيلمة، أصابها الفزع على حياتها، وتمكنت من الهروب الكبير مع بعض أتباعها من الباب الخلفي للحصن، وفرت بهم إلى الصحراء الواسعة، والمعركة ما زالت دائرة. انطلقت هائمة على وجهها، مفروعة من سيوف المسلمين، يسيطر عليها الرعب من خالد بن الوليد، الذي أقسم أن يقطع رأسها لو لم ترجع عما في رأسها من مزاعم وأكاذيب.

وتذكرت الحلم القديم، والفارس المثلث الذي يمنعها بسيفه من أن تلمس النجوم.

مات مسيلمة بعد أن عاش في كنف سجاح كصفر جميل، قبل أن تلقنه الأيام وسيوف المؤمنين دروس الحقيقة، وتعود هي إلى رشدتها تائبة نادمة، أوّابة إلى بارئها تطلب الغفران على خطيئتها.

وبرغم مصرع مسيلمة، وبعد مرور فترة من الزمن، إلا أن بعض أتباعه ما زالوا في جهلهم يعمهون، وعلى ضلالهم يسيرون؛ فقد وجد المسلمون حوالي سبعين رجلاً في الكوفة، وعلى رأسهم (عبد الله بن النواحة)، مبعوث مسيلمة إلى رسول الله من قبل، في بعض مساجد بني حنيفة، يقرؤون قراءة ما أنزل الله بها من سلطان. وعندما سألوهم:

— ما هذا الذي تقرأون؟!

قالوا:

— سورة (الطاحات) التي نزلت على نبي الله مسيلمة!

وقرأ أحدهم:

— (والطاحات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقمًا، فالأكلات أكلاً، والماضغات مضغًا، فالبالعات بلعًا).

حاولوا معهم أن يتوقفوا عن مثل هذه الخزعبلات من وحي خيال الكذاب مسيلمة، لكنهم كانوا بالضلال متشبثين، وللحق كارهين، فحَقَّ على رقابهم الحق.

عندئذ صدرت الأوامر بقتلهم جميعًا، وفي مقدمتهم عبد الله بن النواحة، مبعوث مسيلمة إلى النبي محمد، والذي بَشَّرَ النبي بمقتله على يد المسلمين.

في طريق سباج وهروبا العظيم من الحصن الحصين والجمع المهزوم، فكرت إلى أين المفر، ولمن تذهب وسيوف المسلمين مشهرة في كل مكان؟!

خطر على بالها أن تمضي- إلى الدير، بحراسة مجموعة من أتباعها، لتشاور الكاهنة العتيقة الزبراء بنت رثام في الأمر، لعلها تجد لها رأيًا، أو تعثر عندها على مخرج من المأزق الذي وضعت نفسها فيه بزعمها النبوة واقترانها بمسيلمة.

أربكها الخوف، وطالها الهلع من مصرع مسيلمة، وحشود جيش المسلمين المتأهبة لقطع رقاب المرتدين، وهما هي تسعى لملاذ آمن من سيف خالد، لا تريد أن تلقى مصير مسيلمة، بعد أن عاشت معه

ثمانية أشهر، وما كانت تظن أبدًا، وهي في قمة تشاؤمها، أن تكون نهايته بتلك الطريقة الرهيبة!

في الطريق إلى دير الزبراء على أطراف الصحراء، استدعت من دهاليز ذاكرتها الحلم القديم الذي رآته أمها منتهى بنت القيسي- في منامها، وقصته على الجميع، وأولهم الزبراء:

– (حلمت أن ابنتي سجاح تمتطي حصانًا أسود اللون، قوي البنيان، عربيًا أصيلًا، وهي بكامل زينتها وملابسها الثمينة الزاهية، وحول عنقها وفي معصمها أساور ذهبية، وتصعد إلى السماء بفرسها الرهوان الجموح، فتقترب من النجوم وتكاد تلامسها، ثم تمد يدها لتلتقط أقرب نجمة ترصع صدر السماء، لكن فارسًا مغوارًا ملثماً بملابس بيضاء، فوق حصانه الأشهب، وفي يده سيفه البتار المسلول، وكلما حاولت سجاح أن تمد أناملها الرقيقة لتلتقط تلك النجمة اللامعة في السماء ببريق وضّاء، يمد سيفه ليحول بينها وبين ما تريد، ويمنعها من هدفها المنشود!).

سألوها:

– ومن يكون هذا الفارس يا أم سجاح؟!

— لا أدري... لقد كان ملثم الوجه بطرف عمامته البيضاء، ولا يظهر من وجهه ورأسه سوى عينيهِ الواسعتين العميقتين الجريئتين، وبنياه القوي المتين، ولم أتبين منه سوى صرامته وحسمه في التصدي لسجاح بعناد لا يلين، ومنعها من أن تبلغ ما تبغي.

— وهل تراجعت سجاح؟!

— كلما حاولت مرارًا أن تفعل، مدَّ سيفه ليمنعها، كانت متعلقة بتلك النجمة بشغف كطفلة تتعلق بدمية تحبها، ولما منعها بكت بدموع حارة.

بُهِتَ الذي سمع، وتساءل بلهفة:

— وماذا حدث بعد ذلك؟!

— الفارس المغوار قوي البنيان حذرها بسيفه الصارم، وعندما لم ترجع ولم ترتدع، مدَّ سيفه ووضعها على عنقها بنصله الحاد المسنون اللامع، وهددها لو لم ترجع عما في رأسها، وتترك نجوم السماء في حالها...

ثم سكنت فجأة، وتملكها الحزن والأسى... فعاد السؤال يلح بعصبية:

– وماذا فعلت سباح مع هذا الفارس المجهول؟!

– تراجعت قليلاً خوفاً وفزعاً، وقالت له بأنها لن تقترب من هذه النجوم.

ثم سأله سباح:

– من أنت؟ أمطِ اللثام عن وجهك حتى أراك.

– لكنه، للأسف، تركها ومضى. من حيث أتى، وسيفه لم يسكن غمده.

عندئذ استيقظت من نومها، ومن يومها والخوف على ابنتها لا يتوقف، والحلم المنقوص يؤرقها ويقض مضجعها... من يكون هذا الفارس المجهول الذي منع سباح بسيفه المسلول؟! يبدو أنها الآن قد عرفت من يكون.

أليس هناك برهان أفضل من مصرع مسيلمة على يد جيش هذا الفارس؟!

18 أكتوبر

دير الكاهنة الزبراء

12 هجرية / 633 م

آمنت سجاح التميمية، وتيقّنت أن خالد بن الوليد لن يهدأ له بال، ولن
تغمض له عين حتى يبرّ بقسمه، ويجعل مصيرها كمصير شريكها في
الحياة، وفي النبوة - المزعومة - زوجها الراحل مسيلمة بن حبيب
الحنفي.

وكان القدر كتب عليها أن تظل أرملة على مدى الأيام والسنين،
وأرادت لها المشيئة أن كلّ رجلٍ تزوجه يلقي مصرعه بطريقة مفاجئة.

سيطر الخوف عليها من القتل، ولم يكن أمامها سوى الفرار... رأت
الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف أضيق من عين العصفورة؛ فأين
المفر، وأين الملاذ من سيف خالد بن الوليد، الفارس المغوار؟!

ضربت بقدميها في الدروب والصحارى الوعرة حتى وصلت إلى
الدير، هناك لها ذكريات وصحبة ورفاق. ولم تصدق الكاهنة الزيراء
بنت رثام عينيها حين رأتها أمامها؛ فرت الدموع من عيني المرأة
العجوز، وظهرت أسنانها البيضاء الشمعية كطفلة في مهدها.

نهبت بشوق وحنين، ثم ضمتها إلى صدرها مثل أمّ رؤوم تلقى ابنتها
التي هجرتها سنوات... الآن، وهي في أحضانها، سمعت سباح دقات
قلبها عيفة هائجة، وخشخشات عظامها الواهنة، بفعل الزمن الذي لا
يرحم كائنًا من كان!

بدت الزيراء واهنة هشة، كأعواد النخيل الجافة، وما زال بريق عينيها
متلألئًا، وجلدها المتكرمش، ويدها ترتعش، ويقظتها تامة، كما تركتها
سباح، لم يتغير فيها الكثير، وإن بدت مريضة، وعلى حافة الموت.

كانت العجوز الداهية، المخبوءة لعقود من عمر الزمن في الدير، تعرف
كل الأخبار، كأن الرياح تخبرها بما يدور في الكون كله من حولها،
وربما الطيور تحوم حول الأحداث وتقلها لها بتفاصيلها.

قدمت لها، بصوت أجشّ رجالي خشن وقور، واجب العزاء في مصرع زوجها مسيلمة. هزت سجاج رأسها بأسى، ومصمصت شفثيها بحسرة، ثم قالت بصوت مرتجف جمهوري:

— آه... يا أمّنا الكاهنة، يبدو أن الإسلام سيظل يطاردنا في نومنا ويقظتنا، ويقصّ مضاجعنا، ولا يترك لنا فرصة للحياة كما نهوى!

احتضنتها الزبراء مجدداً، كأنها لا تصدق أنها بين يديها بشحمها ولحمها، ثم قالت لها بشجن وأسى:

— وماذا ستفعلين يا بنت التمي، وقد ادلهمّ من حولك الخطر، وفعل خالد بن الوليد ما فعله بزواجك مسيلمة في حصن اليمامة؟!!

— لا أدري أيتها الكاهنة الحكيمة، لهذا جئتُ عسى- أن أجد عندك النصيحة الشافية لجروحي الدامية؟!!

قالت الكاهنة بعد صمت قليل:

— يا بنيتي... لقد بلغني أن ابن الوليد أقسم على قتلك، لو لم تتوني، وتستغفري ربك، وتعودي إلى رشدك، وتعلمي إسلامك... أهذا صحيح؟!!

تهدت سباح، وقالت بضيق:

— آه يا أماء، هذا صحيح... تلك فجيرة أخرى، بعد فجيعتي في
مسيلة يوم المقتلة العظيمة هناك في اليامة - بالأمس القريب - في
الحصن والحديقة.

أطرقت الكاهنة العجوز بنت رثام تفكر، ولزمت الصمت والسكون،
وهي ترتجف يمينًا ويسارًا بحركات بطيئة منتظمة، كما لو كانت تؤدي
صلاة خاصة لا يفهمها سواها. بدت ضامرة عجفاء مريضة، لكنها هكذا
دائمًا مثل البلاد والمدن؛ تمرض ولا تموت.

عادت سباح تقول بلهفة:

— جئت ألوذ بك يا أمنا الكاهنة، أشيري عليّ برأيك الحكيم، فإن
السيوف بصليها المخيف تدوي في رأسي، وأراها تجري من خلفي
تحاول بشراهة أن تجزّ عنقي.

ربت عليها بحنو بالغ، ورفق أمومي، وقالت:

— لا تخافي يا سباح، لن يمسك مخلوق بسوء ما دمت أنا على قيد
الحياة.

– وماذا أفعل حتى لا تطولني سيوف المسلمين يا أمّنا الكاهنة الكبرى، ويد خالد وسيفه أطول مما نظن؟! لقد هربت إلى هنا بصعوبة، ولو وقعت في يد أحد فرسان ابن الوليد لقتلوني في الحال دون رحمة ولا رأفة، كما فعلوا بمسيلمة.

ثم انتابتها نوبة بكاء مفاجئة، وغمرت الدموع عينيها الواسعتين الأسرتين، وبدأ الأسى الممزوج بالتعاطف معها على وجه الكاهنة، وقالت لها:

– ليس أمامك سوى الهروب من تلك السيوف الغاشمة يا سجاح.

– وإلى أين أهرب يا أمّنا، وتلك الصحراء الواسعة تضيق أمام عيني؟!

– يمكن لك أن تظلي هنا في الدير بعيدًا عن العيون التي تفتني أترك.

– وإلى متى؟!

– إلى أن تتغير الأحوال، وتبدل الظروف، وتتلاشى الوجوه!

— أظنين أيتها الكاهنة أن الدير الذي حرمتني من البقاء فيه من قبل سيكون ملاذي الآمن — الآن — من عيون خالد وبصاصينه وسيوفه؟! —

قالت الكاهنة بنبرة واثقة:

— لن يجرؤ أحد على مهاجمة الدير يا سباح... فلا تخافي ولا تحزني.
— أعرف هذا... إن المسلمين لا يعتدون على دور العبادة لأي ديانة كانت، لكني ما عدت أستطيع المكوث في الدير يومًا واحدًا.
— ولماذا يا بنيتي، وقد تربيت هنا في الدير، وترعرعت بين جدرانهِ وبساتينه؟! —

— لا أدري... لقد كرهت الأسوار العالية، والحصون العتيقة التي لا تمنع المصائب، ولا ترد الأقدار، ولو كانت تحمي أحدًا أو تمنعه من بشاعة القتل لفعلت من أجل مسيلمة، لكنها للأسف لم تفعل ولن تفعل... اللعنة على الأسوار والحصون.

بعد فترة صمت سادت بينهما، سألتها سباح:

— أما زلتِ تذكرين الحلم القديم الذي روته لكِ أُمي قبل سنين، يوم
جاءت بي وأنا طفلة إلى الدير؟!

قالت الكاهنة، وقد رسمت على وجهها ابتسامة باهتة:

— نعم يا بنيّتي... واليوم عرفت من هو الفارس الذي منعكِ من
الوصول إلى نجوم المجد في السماء العالية؛ إنه خالد بن الوليد، السيف
المسلول كما يسمونه... اكتمل الجزء الناقص من الحلم الرهيب، وظهر
الفارس المثلث الذي كنا نظنه مجهولاً.

بنبرة حسرة همست سباح:

— ما عاد هذا الفارس مجهولاً أيتها الكاهنة، ربما مصيري هو الذي ما
يزال مجهولاً!

زامت الزبراء بنت رثام، وأصدرت صوتاً كمواء القطط، ولم تتطق،
بل حدقت في التميمية، واكتفت بالتطلع إلى وجهها ببلاهة.

— أخبريني - أيتها الكاهنة - ماذا أفعل؟ أعطيني رأيك، لعلك تهديني
سواء السبيل!

نطقت بصوت عميق متحشرج:

– طالما أن الدير لم يعد يناسبك يا سباح، ومن المستحيل العودة إلى الديار، وسيوف المسلمين تضرب في مكانٍ مكان، وخيولهم تطأ الأرض في كل الأنحاء، فليس أمامك سوى الهروب الكبير!

– الهروب الكبير... إلى أين، وقد ضاقت الأرض عليّ بما رجبت؟!

– في الخلاء البعيد جدًّا، خارج البلاد والديار.

– خارج البلاد والديار... ماذا تقصدين؟!

– عمان... ليس أمامك سوى الفرار إلى بلاد عمان، هناك على ساحل الخليج البعيد ستكونين في أمان.

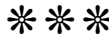
دهشت التمية، واستغربت تلك الفكرة الجنونية، وتساءلت:

– عمان... وكيف لي أن أذهب إلى هناك، وليس من أحد أعرفه أو يعرفني في تلك البلاد؟!

– هذا أفضل كثيرًا لك.

تلعثت سباح قليلًا، واعتراها القلق الكبير، عندئذ أحست الزبراء بها، فقالت لها تمنحها صك الأمان:

– عندي هناك من يدبرون لك أمرِك، ويضمنون لك أمنك، ولن
تطولك هناك السيوف، ولن تصل إليك الخيول... الليلة تمامين هنا
في الدير، وعليك التبكير في الاستيقاظ بالغد للسفر إلى أول بلد من
بلاد العرب تشرق عليه الشمس.



5 يناير

ديار بني تميم

13 هجرية / 634 م

تلملم الشمس ثوبها، ثم تمضي إلى مخبئها البعيد، وتغادر ديار بني تميم،
التي تقع على مقربة من ديار بني عامر إلى الجنوب من أرض العراق،
وهي تحاذي من ناحية الشرق المدينة المنورة، عاصمة الدولة
الإسلامية، كما أن حدودها ممتدة نحو الخليج الفارسي، وتتصل من
ناحية الشمال الشرقي بمصب نهر الفرات.

وكان لآل تميم بين قبائل العرب - في أيام الجاهلية وفي عهد الرسول
- مقام كبير، لما ظهر فيهم من خصال طيبة، لعل أهمها الشجاعة
والمروءة والكرم، ولما نبغ فيهم من رجال أبطال وفرسان نبلاء شجعان،
وشعراء وأدباء لا يُشَقُّ لهم غبار.

وما تزال مواقفهم النبيلة والبطولية يحكيها التاريخ بلسان عربي مبين، وتروىها الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل في تلك البقعة السحرية من بلاد العرب.

لقد أدى اتصال هذه القبائل بمصب نهر الفرات من ناحية، وبالخليج الفارسي من ناحية أخرى، إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق، كما أدى إلى اتصالهم بأهل فارس، وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية، وإن بقي أغلبهم يعبدون الأصنام، ولا تخلو أرضهم من وجود اليهود.

فلما انتشر الإسلام وسطع نوره على الجزيرة العربية وما حولها من سائر الأمصار، احتفظوا باستقلالهم ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم، لذلك كانوا في مقدمة القبائل التي رفضت أداء الزكاة، وأصروا على منعها، رغم أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان قد بعث جباة يقتضونها من الناس.

ولقد أسرع بنو العنبر - وهم من بطون آل تميم - إلى سيوفهم وسهامهم ونبالهم حين جاء مؤيد بن العاشر يطلب منهم دفع الزكاة المستحقة عليهم، لكنهم تردوا وامتنعوا وماطلوا، فلما أرسل النبي إليهم

عبيدة بن حصن، حاربوه، فحاربهم، وقتل وسبى منهم الكثير بأمر من النبي.

وبعد ذلك ذهب وفد من أشرفهم إلى المدينة، ودخلوا المسجد، ونادوا على النبي من وراء حجراته أن يرد إليهم أسراهم، وذكره بمواقفهم معه في يوم حنين، وبما لقوهم من مآثر ومفاخر ومكانة بين العرب، فخرج النبي إليهم حين الصلاة، فقالوا له إنهم جاءوا يفخرونه، فلما رأوا خطيبه أبلغ من خطيبهم، وشاعره أفصح من شاعرهم، وصوته أعلى من صوتهم، وبرهانه أقوى من برهانهم، أعلنوا إسلامهم.

عندئذ أعتق النبي أسراهم، وردهم إلى قومهم راضية نفوسهم.

وعندما مات الرسول، كان له في ديار آل تميم عمال من بينهم مالك بن نويرة، الذي استغل فرصة وفاة النبي، ورد الزكاة لأصحابها، وقال للناس على الملأ:

— كنا نؤدي الزكاة لمحمد باعتباره النبي، وها هو محمد قد مات وانتهى أمره، وليس لأبي بكر الحق في اقتضاها من بعده.

وبذلك وضع نفسه في مرمى سهام المسلمين، وهدفًا مشروعًا لسيوفهم، فأصبح عدوًا لهم، معرضًا لإغارتهم عليه في أي وقت.

وبعد أن انتصر- خالد بن الوليد في حرب اليمامة، وفرغ من أمر مسيلمة وسجاح، تداول الناس أنباء خالد وجيشه الجبار، وبلغت تلك الأنباء مالك بن نويرة في البطاح، فأحس بالاضطراب، وتملكه الخوف بعد أن منع الزكاة، وفعل فعل المرتدين، وآزر سجاح وأتباعها في ردتهم، ووضع نفسه في صف الأعداء.

فماذا عساه يفعل... وقد رأى وسمع عن مقتل مسيلمة، وهلاك قومه بين قتيل وجريح وأسير، وفرار سجاح في الوديان والشعاب والجبال مع بعض رجالها، وتفرق جمعها وتشتت شملها؟!

لقد أصابته الحسرة، خاصة وأن صاحبه وكيع بن ليث، الذي كان يسانده، أدرك الخطر الداهم، فعاد إلى الإسلام وهو نادم، وأعلن توبته على الملأ، وأخرج الزكاة راضيًا مرضيًا، بينما ظل مالك مرتبكًا مضطربًا، تنتابه الحيرة وتهشه الظنون، ويسأل نفسه:

— أينكر أمسه ويعود مسلمًا مع أبي بكر، كما كان مع محمد من قبل، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، أم يصر على موقفه وليكن ما يكون؟!

في تلك الأثناء كان سيف الله خالد يحقق انتصاراته، ويرفع راية الإسلام في كل مكان تطؤه قدمه، فها هو قد فرغ من قبيلتي (أسد،

وغطفان) ومن معها من الموالين والتابعين، وعاد كل من بقي على قيد الحياة من هذه القبائل إلى الإسلام، وأذعنوا لسلطان المدينة وال خليفة الحاكم أبي بكر الصديق.

وقرر خالد بن الوليد السير بجيشه إلى البطاح؛ ليواصل حملته على المناوئين المرتدين، عساه يلقي هناك مالك بن نويرة والذين معه من المتتردين الحائرين المتأرجحين، وعندما وصل بالجيش إلى البطاح لم يجد بها أحدًا.

تصرف مالك بدهاء شديد عندما عرف بنية خالد في استهداف البطاح وأهلها، فأمر قومه بالتفرق في ديارهم وإغلاق أبوابها عليهم، ونهاهم عن الاجتماع في مكان واحد، وقال لهم منذرًا ومحفزًا:

— إنا كما قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى منع الزكاة، ودعونا الناس إلى هذا الأمر، لكننا لم نفلح ولم ننجح، وإني قد نظرت في الأمر فرأيت الحال يتأتى للقوم بغير سياسة، وإذا الموقف لا يسوسه الناس، فإياكم ومناوأة أهل الأمر، كما أنني أنصح لكم بالتفرق في الديار والرجوع إلى الإسلام؛ لأن الرجوع إلى الحق فضيلة الفضائل.

سمعوا منه القول واستجابوا له بالفعل، وعادوا إلى ديارهم، كما عاد هو أيضًا إلى داره وأغلق عليه بابه مثلهم.

وعندما دخل خالد بجيشه المتأهب للقتال أرض البطاح، ولم يجد أحدًا يلقاه أو يقاتله، عكس ما توقع، أمر جنده أن يأتوه بكل من لم يجب داعي الإسلام، وامتنع عن دفع الزكاة؛ فإن امتنع أحد عن الاستجابة للنداء فليقتلوه في الحال.

وكانت تعليمات الخليفة أبي بكر واضحة صريحة: أن يؤذن جند المسلمين إذا نزلوا عند ديار القوم، فإن أذن القوم واستجابوا لهم كفوا عنهم سيوفهم، وإن لم يؤذنوا قتلوا منهم واستردوا الحقوق.

وتلا قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74]

وإن أجابوا بعد ذلك داعية الإسلام، سألهم عن الزكاة، فإذا أقروا بها وتعهدوا بدفعها، قبلوا منهم عودتهم للحق وعفوا عنهم، أما إذا أبوا واستكبروا وعاندوا، فليقاتلوهم بسيوفهم حتى يعودوا إلى أمر الله.

وظلت الأمور تسير على ما يرام، حتى جاء الجند بمالك بن نويرة مع مجموعة من قومه إلى خالد، في ليلة عاصفة باردة ممطرة، فأمر خالد بجبسهم لينظر في أمرهم في وقت لاحق، وازداد البرد والمطر كلما تقدم الليل وأوغل، وأخذت خالد الشفقة بالقوم المحبوسين، فنادى في الحراس قائلاً:

— دافئوا الأسرى.

وللأسف الشديد كانت هذه العبارة في لغة كنانة معناها القتل، وحراس الأسرى جميعاً من بني كنانة، فما لبثوا حين سمعوا نداء خالد ظنوا أنه أمر بقتلهم!

وبعد وقت قصير، سمع خالد الضجة وهم يقتلون الأسرى، فخرج من خيمته، والرياح تزار، والعواصف تموج وتصرخ، والمطر ينهمر بغزارة، فسأل:

— ما الأمر أيها الحراس؟!

قالوا بزهو ساذج:

— فرغنا منهم أيها القائد، لقد قتلناهم جميعاً حسب أوامرك!

دهش خالد وغضب بشدة، وقال بنادم:

— لا حول ولا قوة إلا بالله... كيف تفعلون ذلك ولم آمركم بقتلهم؟! بل قلت: دافئوا أسراكم.

وعندما فهم وعرف سوء الفهم بينه وبين هؤلاء الحراس، قال متحسراً:

— إنا لله وإنا إليه راجعون... إذا أراد الله أمراً أصابه.

في الصباح، جاءت رغد تبكي زوجها مالك بحرقه ومرارة، وتطلب الثأر من قاتله، وقد انسدل شعرها الأسود الناعم الفاحم الطويل كالحرير على كتفيها، وظهر جانب من نحر صدرها، تلك المنطقة التي لا ترى الشمس ولا تراها العيون، وهي تنكب على قدمي خالد، تصرخ من لوعة الألم وحسرة الفقد، وتسترحمه أن يثأر لزوجها حتى تبرد نارها.

وقد بلل الدمع منها عينين زانها الحور، فزادها فتنة وسحراً، ونظر خالد إلى جمالها وبهائها، رغم حزنها وبكائها، وهي ترنو إليه متألمة، قائلاً:

– قتلوه بالخطأ، والله قتلوه بالخطأ... وجلّ من لا يخطئ... لا بأس عليك، والله لنعوضنك عن زوجك بما تأمرين، لو طلبت المال أعطيناك، ولو طلبت أفضل الرجال وأشجعهم بديلاً عنه لبدلناك، اختاري ما تشائين يا رعد... ها هم رجال جيشي- بالآلاف أمامك، أشاوس وأبطال صناديد، اختاري منهم من يناسبك وترتضين به عوضاً عن زوجك.

نظرت حولها بنظرات زائغة، وتفرست وجوه الجنود والفرسان، وهم يصطفون بانتظام، ثم عادت وتوقفت عن البكاء، ولاح التركيز والصمت على وجهها الجميل، فعاد خالد يهتف:

– كلهم يأترون بأمرى، لا تخافى، اختارى منهم من يعجبك، ولسوف آمره أن يتزوجك فى الحال، وهم من الفرسان الشجعان، وفيهم النبلاء والشرفاء، والمبشرون بالجنة، وفيهم أيضاً الأثرياء وحفظة كتاب الله فى صدورهم... هيا اختارى من بينهم، ولن نرد لك أمراً.

شردت لحظات تفكر وتتأمل الصفوف، ثم ارتدت إليه بصرها تتأمله هو، وقالت بإصرار:

— لن يعوضني عن زوجي مالك بن نويرة، سيد قومه، سوى قائد بحجمه أو أكبر منه قدرًا.

— من تقصدين يا أم تميم؟!

— أقصد قائد هؤلاء الجنود، وآمرهم وصاحب السلطان عليهم.

قال خالد مدهوشًا ومستغربًا:

— من تقصدين بالتحديد؟!

— ومن هو قائدكم... أأست أنت يا ابن الوليد؟!

— بلى... أنا قائدكم.

— تتزوجني اليوم، هذا هو عوضي عن حرقه قلبي على زوجي، وهذا هو عزائي الوحيد، لو أردتم أن تواسوني وتعوضوني.

تلثم خالد قليلًا، وقال:

— وماذا عن أيام العدة يا رغد؟!

— أنا هجرته بسبب سباح منذ حوالي العام، ولم أعاشره أو يعاشرنى، ويشهد الناس في قومي وقومه على ذلك، ولسوف أعلن إسلامي.

تبسم خالد، وأدرك أنه في موقف لا يُحسد عليه، وقال:

— لك ما تشائين يا أم تميم، اليوم سأتزوجك بإذن الله.

وعندما دخل عليها واختلى بها، قال لها مداعبًا:

— خالد بن الوليد الذي يهزم الجيوش كلها، وما خاض معركة إلا وكسبها،
هزمته امرأة جميلة في لحظات قليلة!

9 يوليو

بلاد عمان

13 هجرية / 634 م

استقر بها المقام في بلاد عُمان على ضفة الخليج، وهي على جمر النار تتلظى كالسمكة في النار، لا تطيق فراق الأهل والديار، وبعد أن كانت ملء السمع والأبصار، أضحت هاربة متكررة للجرمين الأشرار.

لكن كل شيء يهون في سبيل الحفاظ على الحياة، فليس بعد الروح روح، وعليها أن تحتل الاغتراب والحرمان بحثًا عن الأمان، وبرغم أنها أبعد ما تكون عن سيف خالد ورماح جنده الأشاوس، إلا أنها - وهي في آخر بلاد المسلمين - لم تشعر على الإطلاق بالأمان المأمول.

وتحس بأن ابن الوليد، جلاد المشركين وسياف المرتدين - الذي أقسم أن يقطع رقبتها لو لم ترجع عن مزاعمها وتعلن إسلامها - لن يتركها تهنأ بالسلام والأمان في أي مكان كان.

وعندما بلغها خبر قتله للملك بن نيرة - أحد أبناء عمومتها من بطون تميم - زادت فجيعتها بعد قتله لزوجها مسيلمة، كما أن زواج خالد من زوجته الغيور رغد أثار في نفسها الرعب الممزوج بالدهشة، وخيّل إليها أن ابن الوليد سيقتل الناس أجمعين، وستكون هي ذات يوم من قتلاه!

فكرت سباح، والخوف في عينيها: ماذا تفعل، وكيف تتصرف لتنجو برأسها من قسم خالد بشأنها، وإصراره على قتلها؟!

غمغت في نفسها قائلة: الويل والشبور وعظائم الأمور في انتظارك يا سباح.

أتذهب إلى رغد وتطلب منها أن تلتمس العفو لها عند زوجها خالد بن الوليد؟ ولو فعلت ذلك، هل ستساعد رغد، وتنسى- الماضي الأليم بينهما، والغيرة الجنونية التي جعلتهما على ضفتي نهر لا يلتقيان أبداً؟!

هداها عقلها إلى أن تلك الفكرة عبثية، ولا مكان لها على أرض الواقع؛ لأن رغد لو علمت بأمر سباح وعرفت مطلبها، لألحّت على خالد أن يعجل بقطع رقبتها.

تذكرت شقيقها يربوع حين جاءها حاملاً رسالة من الصديق أبي بكر، وقال لها إن الخليفة دعا لك بالهداية إلى الطريق القويم، وأظن أن الله لن يردّ خليفة رسول الله دعاء.

عندئذٍ كتبت رسالة إلى يربوع، وكلفت شقيقها وزان، وهو أحد حراسها المخلصين، أن يسلمها له يدًا بيد، حتى لو كان في آخر الدنيا. وبالفعل ذهب وزان برسالة أخته سجاح، التي كتبت فيها:

– (من سجاح بنت الحارث التميمي إلى أخي العزيز يربوع... بعد السلام والتحية... لقد قررت أن أجيب نداء أبي بكر الصديق حين دعاني إلى الهدى والحق، وسبق وقلت لك: أمهلوني بعض الوقت، وها أنا ذا قد نفضت عن نفسي غبار شياطين الإنس والجن، ولسوف أعلن إسلامي، وأناادي في الناس بأن سجاح التميمية ليست نبية.

وأقول على الملاء أيضًا إن سجاح ستكون لربها أمّة نقيّة، وتسير على هدى النبي الخاتم محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، ولكني أرجوك يا أخي أن تحمل رسالتي تلك إلى خليفة رسول الله، وتلمس منه أن يأمر قائد الجيش خالد بن الوليد بأن يكف سيفه عني، ويرفع يده عن قتلي، لكي لا ينوء بذنبي، وقد عزمّت أن أدخل الإسلام مع الداخلين، وأصلح من نفسي- قدر ما أستطيع، وأتوب إلى ربي، وأعوض ما فاتني، ولسوف

أنفرغ للعبادة وقراءة القرآن، والله المستعان... السلام ختام حتى يجمعنا اللقاء... أختك سجاح... من بلاد عمان).

سَلَّم وزان الرسالة إلى يربوع، الذي لم يصدق ما جاء فيها، ولولا أن وزان هو الذي أعطاه إياها لظن أنها منسوبة إلى أخته سجاح زورًا وبهتانًا!

استأذن يربوع من صفوف الجيش في الانصراف إلى المدينة المنورة ليعرض على الخليفة رسالة سجاح، فأذن له خالد بكل ارتياح، وتركه يمضي - إلى حيث مقر الصديق، وهناك أطلعه على الرسالة التي ستغير مجرى حياة أخته. وقد قرأها الخليفة أبو بكر، فاكتمى - وجهه بالبشر - وسرّه ما فيها، ثم قال بصوت هامس مسموع:

— الحمد لله الذي يهدي عباده بهداه، لأن نكسب أمةً صالحة - إن شاء الله - خير من أن نقتلها في سبيل الله.

حينئذٍ كتب الخليفة رسالة إلى خالد - حملها يربوع - قال له فيها:

— (بسم الله الرحمن الرحيم... والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيد الخلق محمد النبي الأمين... من خليفة رسول الله إلى سيف الله المسلول: ارفع يدك يا خالد عن سجاح التميمية، فلا ينالها منك أذى ولا مضرة، لقد أعطيناها الأمان على روحها ونفسها حتى تبوء لأمر الله، وتعلن إسلامها بإذن الله، ولأن نكسب أمةً عائدةً تائبة خير لنا من سفك دمها، والله من وراء القصد والسبيل).

تبسم خالد بعد أن فرغ من قراءة رسالة الخليفة، وقال:

— يا يربوع... أذنت لك أن تمضي إلى المدينة، فعدت إليَّ بأمر من الخليفة بشأن أختك... لا بأس يا تميمي.

— لم أقصد أن أغضبك أيها القائد.

— والله ما غضبت منك، بل سرّني ما فعلت لحقن دم أختك، وإيقادها من مصير زوجها المقبور مسيلمة الكذاب.

قال يربوع بصوت هامس خاشع:

— يا سيف الله... لقد أعزني الله بالإسلام، وأخزاني ذل أختي بجهلها وشركها وكذبها، ولولا ما قاله الخليفة لسعيت قبلك في قطع رقبتها، لكنها قالت: أمهلوني، ورضي الخليفة بما قالت، ودعا لها بالهداية، وهذا ما حدث اليوم... إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.

رد خالد بهدوء:

— صدقت القول والفعل يا يربوع، أفلحت سباح إن صدقت فيما وعدت، وهنيئاً لها بالأمان في حديقة الإيمان، إنها خير لها ألف مرة من حديقة مسيلمة!

8 مارس

عُمان / الدير العتيق

14 هجرية / 635 م

كان هذا اليوم يوم سعادة سجاح... عاد إليها وزان في بلاد عُمان، حاملاً صك الأمان، وأخبرها أنها الآن في مأمن من سيوف المسلمين، وفي حصن حصين من سيف خالد بن الوليد؛ لأن الخليفة أبا بكر الصديق أعطى أوامره لقائد جنده بألا يمسها أحد بسوء، ويرفع يده عنها لتدبر أمرها، وتخلع عنها عباءة الكذب والتدليس، وتخرج من دار الضلال، وترتدي ثوب الحق والصدق والإيمان، وتسير في ركاب المؤمنين الموحدين بالله.

لا كهانة ولا نبوة مزعومة، ولا سجع كهان بعد الآن... حانت اللحظة الفارقة، لحظة الحقيقة العارية!

كانت سعادتها لا توصف بالبشارة التي جاءها بها شقيقها وزان من شقيقها يربوع، من خليفة رسول الله... فلا شيء في الدنيا يضاهي الإحساس بالأمان، وأن روحها لن يزهقها - عدلاً أو ظلماً - إنسان.

تلك الروح هدية الله، يودعها في مستودعها وقتما يشاء، ويسلبها من مستقرها حينما يشاء... لا راداً لإرادته سبحانه.

في طريق عودتها من بلاد الشمس المشرقة على ضفة الخليج البعيد إلى أرض الجزيرة، حيث الأهل والديار والأحباب، اختارت أن تمر على الكاهنة الزبراء، عساها تلقي عليها النظرة الأخيرة، فربما لا تسمح الأيام القادمة بتكرار اللقاء.

وفي نية التمية أنها لن تدخل الدير مرة أخرى، وكفاه ما أخذه من عمرها، لا عودة للدير مع إسلامها مرة أخرى، مهما كانت الأسباب. ولم يكن الطريق إلى الدير سهلاً ميسوراً في دروب الصحراء، رغم أنها في حراسة نفر من رجالها الثقات المخلصين، وبينهم شقيقها وزان وعقشان.

أما حنظلة فقد استقر في الديار بجوار أمه، لا يرحمها إلا لرعاية تجارتها، وهو ما يزال على حيرته في منطقة وسطى بين الإسلام وغيره مما يعبد قومه.

وعندما وصلت الدير، هاجت في نفسها الشجون والذكريات، وجاءها أبو كحيلّة - حبها البكر - من بعيد بوجهه الطيب باسمًا، فرت دمعة من عينيها، لكنها تماكنت نفسها حتى لا يظهر بين حراسها وكهنة الدير ضعفها ويفتضح أمرها.

لم يكن الدير كما تركته، ما كان أمره على ما يرام، ولم يكن أمر الزبراء كذلك أيضًا، فالأديرة على حال كهنتها؛ لقد اضطربت الأحوال منذ مرضت الكاهنة الأم الكبرى، وأصابها ما أصابها من داء عضال، ولم تعد قادرة على استخدام ساقها في السير، ولا أحد يدري السبب، ربما من طول البقاء جالسة في مكانها بلا حركة لسنوات طويلة إلا خطوات قليلة، والقاعدة الأصلية تقول: (إن العضو الذي لا يُستخدم يموت).

يبدو أن الساقين قد ماتتا من قلة الاستخدام.

وهمست في أذن سجاح إحدى الكاهنات التي تسهر على مداواة الزبراء، وهي تجهش بالبكاء:

— يبدو أنه المرض الأخير لأمنا الكاهنة.

تبسمت سجاح، وقالت بتفاؤل:

– لا تبتئسي يا أختاه، إن الكاهنة منذ عرفناها قبل سنوات بعيدة تمرض ولا تموت، وسرعان ما تعود للحياة أفضل مما كانت، وتنهض من عثرة الداء، وتستيقظ لتجدد شبابها كأنها زهرة برية لا تبلى ولا تذبل.

كفكت الكاهنة الشابة دموعها، وقالت:

– وأأسفاه... كيف تكون فتاة في العشرين، وهي على مشارف التسعين؟!

– لا تحزني يا أختاه، فالمرأة كما تبدو، والرجل كما يحس!

– ماذا تقصدين يا سجاح؟!

– إنها تبدو عجوزًا عجفاء ضامرة، لكنها عفية فتية متيقظة.

قالت الكاهنة الشابة:

– آه... يا إلهي... كانت في الأيام الخوالي، حين كنتِ بيننا يا سجاح، أما اليوم فأنتِ لست معنا، ولا تدرين من أمرها شيئًا، ولا تعرفين ماذا أصابها. أنا من أسهر الليل كله بجوارها، وأسمع شكواها، وأدرك بلواها ومصدر أليتها، وأراها تنازع الموت، وينازعها، تصارعه ويصارعها، وأحسبها

في كل مرة لن تنجو منه مع مطلع النهار... لكنها تنجو منه بأعجوبة في كل مرة!

قالت سباح:

— أتأذنين لي بالدخول عليها لأراها؟ ربما لا تسمح لي الظروف بلقياها مرة أخرى.

أومأت الكاهنة الشابة برأسها، وأشارت لسباح أن تتبعها بضع خطوات حتى باب غرفتها، وعندما فتحت الكاهنة الباب عليها، نهضت المرأة العجوز منتفضة من مرقدها حين رأت سباح، وهتفت بترحاب وحبور كأن شيئاً لم يكن بها:

— يا إلهي... أخيراً عادت سباح إلى الدير مجدداً! لا أصدق عيني... هلمي يا بنيتي إلى حضني، وأخبريني عن أحوالك، وكيف سارت بكِ الدروب، وإلى أين في تلك الحياة العابثة بمصائر البشر؟!

في تلك الأثناء بدت الزبراء بنت رثام امرأة أسطورية، لا تبلى ولا تقنى، ولا يأكلها الصدأ فتوت!

كانت في التسعين أو أكثر من عمرها، فلا أحد يعلم كم عمرها على وجه الدقة، ولكنها ما زالت تحلم - وهي في خريف العمر ومنتهاه - بأثى مثلها

تورثها الكهانة وسجع القول وعلوم القراءة والكتابة وأصول النصرانية،
وتوصيها بسيرتها الذاتية، وها هي قد نالت ما أرادت إلا قليلاً.

امرأة لها هيبة، تتفاقم هيبتها إذا تكلمت. شعرها أسود فاحم كالليل
الدامس، لم ينل منه الشيب على غير العادة، وهي في عقدها التاسع،
تبدو راهبة وحشية بزها الزاهي الألوان، وقلائدها المعدنية المتعددة في
عنقها ويديها، ولم تخشها يوماً تلك الوافدة، بل أحبها ورأتها كائنًا
أسطوريًا مختلفًا عما عرفت في ديار أهلها.

تبرق عيناها حين تتكلم بصوت رجولي خشن أجش، كأنه يخرج من بر
سحيفة، نحيفة العود عجفاء ضامرة البنيان، لكنها مهيبة مخيفة، نظراتها جادة
جريئة من عينيها الواسعتين العميقتين، كقطة برية شرسة.

ولكنها - هذه المرة - لم تردد ما قالتها من قبل:

- إن هذه الصبية - تقصد سجاح - سيكون لها مكانة عليا، لا بد أن
أعلمها أصول الحكمة وفنون العبرة، لتكون كاهنة نبيه، تعرف الأخبار
وتنبئ الناس بما خفي من أسرار، ولسوف تأتيكم سجاح بأمر لم تأت به
قبلها إنسية!

وقد أدركت أن مجيء سباح إليها اليوم لأمر جلل لا يستهان به، وسيغير مصيرها للأبد... لا بأس، فلتنتظر لتسمع من التميمية.

سألتها سباح بتعاطف هامس لطيف:

— أكنتِ مريضة يا أمنا الكاهنة؟!

قالت بصوتها الخشن الرجالي الأجش:

— ومن منا لا يمرض يا بنيتي في هذه الحياة التي هي عناء في عناء، وبلاء في بلاء؟!

— وبماذا تشعرين الآن؟!

— لا شيء يا بنيتي... تلاشى كل شيء عندما شممت رائحتك الطيبة في الدير، وسمعت صوتك الحنون المبحوح الأسر... لقد عطرت المكان بأنفاسك.

تبسمت سباح، وسعدت بهذا الإطراء الناعم:

— والألم يا أمنا الكاهنة، هل غادر البدن؟!

— إن الألم يختفي فورًا عندما يظهر أحد من الأحباب.

– وهل أنا يا أمنا الكاهنة من الأحباب؟!

– أنتِ كل الأحباب يا صغيرتي.

اقتربت منها سباح، وضمتها إلى صدرها، وطبعت قبلة على جبينها، واحتضنتها بحرص وحذر خشية أن تتهشم عظامها الهشة بين ذراعيها، وتتحول إلى هشيم تذروه رياح الصحراء العاتية، لكنها سرعان ما تعود إلى صلابتها وعنفوانها... سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

إن قوتها الخفية في ضعفها الظاهر، وتعتبرها سباح أمها الروحية، وتحسبها الزبراء ابنتها بالتبني المطلق.

ساد بينهما قليل من الصمت، ثم قالت التميمة:

– يا أمنا الكاهنة... لسوف أدخل الإسلام، وأهجر ما عداه.

نزلت تلك الكلمات على الزبراء كصاعقة من السماء، وحدثت فيها بعينيها المتوحشتين المخيفتين الحادثين، وقالت باستنكار:

– ستفعلين ذلك خوفاً من سيف خالد؟!

– لا... ليس هذا هو السبب الأول، ربما يكون السبب الأخير.

- وما الأسباب يا بنت التميمي لهذا القرار الخطير؟!

تهددت سجاح، وأطرقت قليلاً، ثم غمغمت:

- لقد أضناني الهم، وعذبتني الحياة، وشق قلبي مصرع الزوجين (أبو كحيلة ومسيلمة)... أشعر بأني لم ولن أرتاح يوماً في هذه الحياة الدنيا إلا بقفزة جنونية في الهواء.

- ولماذا يا سجاح، وأنت جميلة مهابة الجانب، تحكمين الرجال وتقودين الجيوش؟!

- يا أمنا... قلبي ما عاد يحتمل كل هذه العواصف والأنواء، عسى- أن أرتاح في ظلال القرآن، وتحت أشجار الإسلام وبساتينه من صلوات وصيام وذكر للإله الواحد ورسوله الخاتم.

- ومن أدراك بكل هذا؟!

- أخبرني أخي يربوع بأن أراد سعادة الدنيا وراحتها فعليه بالقرآن، ومن أراد نعيم الآخرة وجنتها فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن.

زامت الزبراء، وزمجت كأن عاصفة غضب مباغتة ستهب بعد قليل من
أعماقها الغائرة على المكان كله، لتنسف الدير بمن فيه، وتهدمه على رأس
ساكنيه، وتمحو سجاج من الوجود!

وأخيرًا نطقت على مضض:

— أنتِ حرة... اختاري ما تشائين يا تميمية!

10 مايو

ديار آل تميم / جزيرة الفرات

14 هجرية / 635 م

عندما عادت إلى الديار ليلاً، وسطعت شمس النهار التالي، خرجت للناس بجرأة وشجاعة، ووقفت على تبة عالية بالقرب من ديار تميم، ليراها ويسمعا الجميع، ونادت فيهم بأعلى صوتها:

– يا قوم... يا أهل تغلب، يا بني تميم، ويا كل بطون قبائل الجزيرة، اشهدوا جميعاً أنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن كل ما قلته من قبل بأنتي نبيه ما هو إلا كذب وافتراء، ولا نبى سوى محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين أجمعين.

– يا قوم... أقول لكم قولي هذا، والله على ما أقول شهيد، وأعتذر لكم عما قد سلف من أمري، لقد ضللتكم وأغويتكم بالسير في طريق الهلاك، وأنا اليوم أبرئ ذمتي منكم جميعاً ومن روح الجاهلية، وأنصح

لكم بالدخول في الإسلام؛ أسلموا تسلموا في الدارين، تفوزوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، اهجروا الشيطان وعودوا إلى بارئكم، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله.

ثم قرأت قول الله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

بدا المتجهرون حولها منقسمين بين مستغربٍ لأمرها مدهوشٍ لتحولها المباغت، وبين مستنكرٍ لقولها، وآخر مستحسنٍ لتوبتها وإعلان إسلامها، ولكن لم ينته اليوم عند هذا الحد.

وكما كانت سباح بنت الحارث التميمي حديث الجزيرة كلها، وما حولها من القبائل والديار من قبل بكهانتها ونبوتها وسجع كلامها، صارت أيضاً حديث الناس عند إعلان ندمها وتوبتها وإسلامها، ودعوتها لهم جميعاً بأن يحذوا حذوها ويدخلوا في عبادة الإسلام.

ولم تكتفِ بما فعلت على رؤوس الأشهاد وبين الحشود، بل استدعت مؤذنها أيام جاهليتها (شبيب بن ربيعي الرياحي)، وأمرته أن يطوف في القبائل والديار والأمصار، ينادي في الناس بأن سباح

دخلت الإسلام راضيةً مرضيةً، وندمت على ماضيها بإرادتها التامة،
وليست مُكرهةً من أحد، وأن ما قالتها من قبل بأنها نية أكذوبة
كبرى تبرئ نفسها منها وتتوب عنها!

وبالفعل، طاف أمر سجاح في الآفاق بالحق، كما طاف من قبل
بالباطل، وظل مؤذنها على مدى عشرة أيام بلياليها يحوب الديار،
وينادي في الأمصار، يعلن أن سجاح مسلمة، وتشهد أن لا إله إلا
الله، وأن محمدًا رسول الله الذي لا نبي بعده، وأنه هو الصادق
الأمين، وأنها كانت من الكاذبين، ولا عودة إلى الكذب والضلال إلى
يوم الدين.

ووصل نبأ إسلامها إلى سيف الله خالد بن الوليد، الذي تبسم قائلاً:

— صدقت سجاح، وهي التي كانت من الكاذبين، وكما نظنها
ستكذب على الدوام، لكن إن بعض الظن إثم... ما أحكمك يا أبا
بكر حين أمرت بتركها وشأنها، عسى- أن تنفع الإسلام في يوم من
الأيام.

وعندما بلغ خبرها للخليفة الصديق من أخيها يربوع، انفرجت أسارير
أبي بكر، وقال بسرور:

— الحمد لله رب العالمين.

واختارت لنفسها منذ اليوم الأول لإسلامها مكانًا قصيًّا في دارٍ قديمة بعيدة عن ديار القوم والأهل وضجيج القبيلة، ودعت أمها وإخوتها: حنظلة ووزان وعقفان، إلى الإسلام، فوجدتهم مترددين يأبون الرجوع إلى الحق المبين، فقالت لهم:

— سأهجركم مليًّا، ولن أكل من طعامكم، ولن أسكن داركم، وأنتم في ضلالكم تعمهون بالشرك بالله والكفر بنبيه الأمين... فإن عدتم عدنا.

في نفس اليوم الذي دوى فيه صوتها يخبر الناس بمجديد أمرها، ونادى مؤذنها شبيب في الأولين والآخرين، وعلم القاضي والداني بأمرها، ماتت الزبراء بنت رثام، الكاهنة العتيقة التي كانت تأبى الموت وتتحداه، وكأنها خلقت لتُحنَّط على قيد الحياة مثل موميאות الفراعنة الأقدمين.

ماتت أخيرًا الكاهنة القديمة قَدَم الكون والصحراء المترامية الأطراف حول الدير، وكأنها لا تريد أن تعيش يومًا واحدًا وسجاح على ملة الإسلام ودعوة النبي محمد، وربما كرهت الزبراء بنت رثام أن تبقى على

قيد الحياة بعد أن برئت سباج من الدير والكهانة وطقوسها وأكاذيب
مسيلمة وسجع الكهان.

سألت سباج عنها بجزع:

— كيف ماتت الكاهنة؟!

قالوا لها:

— اشتد عليها المرض بالليل وطغى، وظلت تن وتزأ وتتلوى
وتأوه، كأن السيوف الحادة تقطع أمعاءها، وفي صبيحة اليوم التالي
زارها الطبيب الذي أعطاها بعض الأعشاب فارتاحت قليلاً،
وسألت الكهنة والكاهنات عن الأخبار، فأخبروها بما جرى منك يا
سباج.

سألتهن سباج بلهفة:

— وماذا حدث بعد ذلك؟!

— نظرت إليهم مذهولة مستنكرة، ثم رفعت رأسها إلى أعلى،
وشهقت شهقة واحدة مخيفة قبل أن تسقط، مثل نخلة يابسة ضربها

القحط ونال منها الجفاف، فماتت واقفة، ثم سرعان ما تهاوت
وارتطمت بالأرض.

تهدت التيمية، واكتسى وجهها بالأسى، ثم همهمت:

— آه... هذا ما كنت أخشاه ولا يدركه الكثيرون، ولا يحسبون
حسابه، إن لكل شيء نهاية، والنهية آتية لا ريب فيها مهما تأخرت،
أو ظن صاحب الصول والحول والجول في دروب الحياة أن النهاية
ليست آتية، إنه واهم؛ لأنها آتية لا محالة.

— الوداع أيتها الكاهنة الأم الرؤوم، الوداع يا بنت رثام... لا أدري إن
كنت أستغفر لكِ ربي، أم أن الكاهنات لهن شأن آخر عند الله؟!

ونزلت الدموع من عينيها سخية ساخنة رغماً عنها، وإن كانت تحس في
قرارة نفسها أن اللقاء الذي جرى بينهما في الدير منذ أيام قليلة هو
اللقاء الأخير بالفعل، ولا لقاء بعده أبداً.

تذكرت أشياء كثيرة، هاجت في وجدانها ذكريات الأيام الماضية بكل
ما فيها، وتذكرت مواقفها معها: حنانها وقسوتها، جرأتها وخجلها، حلمها
وغضبها. وتذكرت أيضاً أبا كحيله، فتاها الذي أحبته حباً كبيراً،

وطردتها الكاهنة من الدير بعد ما كان منها في تلك الليلة العاصفة
الممطرة.

يا لها من أيام جرت كلمح البصر، وأصبحت كسرابٍ يحسبه الظمآن
ماء، كل الأيام تذهب ولا تعود، ولا أحد يدري إلى أين تذهب
لتختبئ، لكنها تترك من وراءها ثُلَّةً هائلة من الذكريات والتجارب
والمواقف والوجوه. كل شيء يذهب ولا يعود، وإن كان يترك آثاره
وبصماته عزاء لأصحاب الذكريات بحلوها ومرها.

وبرغم فصاحة سجاح ودرايتها بالكتب السماوية، وسنواتها في الدير،
وإجادتها للقراءة والكتابة ونظم الشعر وسمجع الأبيات من الكلمات، إلا
أنها استعانت بامرأة سبقتها إلى الإسلام بسنوات تُدعى أم عطاء.
قالوا لسجاح عنها: إنها بارعة في قراءة القرآن وتلاوته وتفسيره،
وتعرف الأحكام، وتحفظ أحاديث النبي وتأويلات الإمام علي بن أبي
طالب.

كانت السيدة أم عطاء تعيش في مدينة رسول الله، لكنها جاءت إلى
ديار بني تميم لتكون بجوار ابنتها المتزوجة من رجل تميمي، وقد
استقرت بالجزيرة، وعرفها الناس بالورع والتقوى وحسن الإسلام.

كان لأم عطاء من اسمها نصيب، فعلى يديها تعلم الكثيرون أصول الدين وتجويد وحفظ القرآن الكريم، ولذلك جاء دورها مع سجاح التي أخذت عنها العلم الغزير، وحب القرآن وترتيبه، وتفسيره على أحسن ما يكون.

وعندما انتشر نور الإسلام في الديار وبزغ بين الأقوام، كان الكثير منهم يسألونها في أمور استعصت عليهم، وخاصة النساء، وحرص الناس على إرسال أولادهم الصغار لتعلمهم سجاح القرآن والحديث، وتأبى أن تحصل على أجر مقابل ذلك، وتقول:

— لقد وهبت ما تبقى من عمري لله وكتابه ولأحاديث رسوله، عسى أن يغفر الله لي ما قد سلف، ويتقبلني برحمته في عباده الصالحين.

وظلت سجاح تعيش بين أهلها (بني تميم وبني تغلب) بعد توبتها وندمها وإعلان إسلامها على الملأ، وعندما استقر رأي أسرتها على البقاء في البصرة، التي غدت المركز الأول لبني تميم في عهد بني أمية، تزوجت فيها، وعاشت حياة الزاهدين الأتقياء الأتقياء، ووهبت ما تبقى من عمرها للصلاة والصيام والتعبد والإخلاص لكتاب الله.

2 فبراير

ديار آل تميم

15 هجرية / 636 م

جاء يربوع إلى الديار مسرورًا بما آلت إليه أحوال أخته سجاح،
وبشرها بالخير قائلاً:

— أبشري يا أخته... لا نزيك على الله، ولكني والله لأشعر بالفخر،
وقد أصبحت مرفوعة الرأس بين المسلمين من الصحابة والتابعين؛
لأنك نبذت الضلال ودخلت في الإسلام.

همست بجياء وتواضع:

— الحمد لله، لا أنسى دورك في حياتي يا أخي الحنون، إن الله يهدي
من يشاء من عباده.

قال يربوع باسمًا متهلل الوجه:

– أتدرين ماذا قال عنك سيف الله خالد بن الوليد؟!

فتحت عينيها الواسعتين الآسرتين على كامل اتساعهما حينما سمعت اسم خالد، وتساءلت باستغراب حذر:

– ماذا قال؟!

– قال: لقد صدقت سجاح، التي كما نظنها ستكذب على الدوام.

بنبرة ساخرة مريرة همهمة:

– أُملي ألا أكون مضرب الأمثال في الكذب عند العرب؛ لأن بعض القبائل كانت إذا أرادت أن تصف أحداً بالكذب تقول عنه: إنه أكذب من سجاح!

حاول يربوع أن يخفف عنها بلطف:

– يا أختاه... إن العبرة بالخواتيم، كل هذا الهراء لا يهم، المهم الآن علاقتك بربك، لا تعرفين يا سجاح كم أشعر بالزهو حين أسمع الناس يتحدثون عنك بكلام طيب منذ أعلنتِ على الملأ توبتكِ بشجاعة، ولا تنسي أن الإسلام يجب ما قبله، ويعز من يعتنقه، فلا خوف

عليك بعد اليوم، هنيئًا لك، والله الحمد على أن هداك لطاعته، إنها
ولا شك دعوة الصديق أبي بكر لك.

بنبرة حزن همست بأسى:

– لكنني تأخرت كثيرًا يا أخي، كنت أتمنى أن ألتقي النبي الأمين،
وأتوب بين يديه، وأعلن أمامه الشهادتين.

تغيرت ملامحه وكساها غمام، وسرعان ما حل محله ابتسام، ثم قال:

– بأبي أنت وأمي يا رسول الله... اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا
محمد... أن تأتي متأخرة - يا أختاه - خير من ألا تأتي، وها أنت قد
جئت ونلت شرف الإسلام وعزه.

قالت:

– (السابقون السابقون) لهم الفضل دائمًا، وكنت أنت يا يربوع أكثر
حكمة منا جميعًا، وسبقتنا بالفضل إلى نيل هذا الشرف العظيم،
وكنت قريبًا من النبي الكريم وأصحابه الأبرار.

– ما زال العمر أمامك يا سباح، وعليك أن تعوضني ما فاتك.

– إن شاء الله... لكن أتدري ما يؤرقني الآن يا أخي؟!

— ماذا يؤرقك يا أختاه؟!

— أمنا منتهى، وإخوتنا حنظلة وعقفان ووزان... كيف سنلقى الله وهم على تلك الحال؟ لسوف يسألنا الله عنهم يوم القيامة، ولماذا لم نساعدهم وننصحهم ونحذرهم من نار جهنم؟!

تنهد بعمق، وحدث فيها مليًا، ثم شرده يفكر:

— آه يا سجاح... معك حق، تلك مشكلة، نسأل الله أن يجلها من عنده، لقد حاولت معهم أكثر من مرة، لكن على قلوبهم غشاوة، أدعو الله أن تنقشع سريعًا.

— لا يا أخي... علينا ألا نياس منهم، ولا نياس من رحمة الله بهم، إن الرسول ظل يدعو أهله وعشيرته في مكة حوالي ثلاث عشرة سنة، ولم يياس منهم رغم أنهم آذوه كثيرًا، آمن به من آمن وكفر به من كفر، وهؤلاء إخوتنا وأمنا من لحمنا ودمنا، ولا نبغي لهم سوى الخير في الدنيا والآخرة، علينا ألا تركهم في غيهم وجهالتهم؛ لأن العمر لحظة، ولا ندري متى يأتي الموت، ولا نريد لهم أن يلقوا ربهم على ما هم عليه الآن.

– صدقتِ يا سجاح، ولسوف أبذل كل جهدي معهم حتى يستجيبوا لأمر الله.

– وأنا لن أكف عنهم، وإن كنت قد تركت الدار وهجرتهم، عساهم يفكرون في أمر شركهم بالله.

رفع يربوع يديه إلى السماء، وقال بتوسل:

– أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يهدي أُمي وإخوتي إلى الإسلام عاجلاً غير آجل، وأن يبرؤوا من الضلال والجهالة.

هتفت بحماس:

– ولم لا نذهب إليهم الآن ونكرر المحاولة معهم، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً؟!

بفتور قال يربوع:

– لا بأس يا أختاه... هيا بنا.

وبمجرد أن دخلا الدار، فوجئاً بأمر عطاء تنطق الشهادتين، وهم جميعاً يرددون من ورائها، وكأن الله قد استجاب على الفور لدعوة يربوع.

عندئذ سادت حالة من البهجة، والتأم شمل الأسرة - التي فرقتها
الظروف والأحوال - على الإسلام بلا موعد سابق ولا ترتيب لهذا
اللقاء، إنما كل شيء بقدر من الله.

بدأت سباح في قمة سعادتها، واحتضنت أمها وإختها، وهي تتمم بكلمات
الحمد والشكر، وتهنئهم على نعمة الإيمان بالله ورسوله.



9 نوفمبر

ديار آل تميم

16 هجرية / 637 م

خصصت سجاح دارها ووقتها وجهدها للعبادة، والاعتكاف عن الناس،
وتعليم الصغار من البنين والبنات مبادئ الإسلام، وحفظ القرآن وترتيله.
وفي تلك الأثناء، كان زامل بن فهيرة التميمي قد ماتت زوجته، وتركت له
طفلةً عمرها خمس سنوات. أراد أن يُنشئها على كتاب الله وسنة نبيه
الكريم، فكان يحملها كل يوم إلى دار سجاح، لكي تعلمها كل شيء.

وكانت البنت الصغيرة جميلة الأداء، حسنة الصوت، تعلقت بالقرآن،
وارتبطت عاطفيًا بسجاح وأحبته كثيرًا. وذات مرة قالت لأبيها، وهما في
طريق العودة، براءةٍ وعفوية:

— أتمنى أن تكون سجاح أمي... أنا أحبها كثيرًا.

دهش زامل، وفكر كثيرًا فيما قالته صغيرته بسذاجة صادقة، وأحس أن كلمات طفلته توجيهُ من الله، ليفكر في أمر تلك التميمة العابدة الزاهدة في حطام الدنيا.

لفتت الصغيرة نظره إليها كأنتى جميلة أرملة، وهو أيضًا أرمل مثلها؛ لذلك ظل يراقبها عن كثب، ويتتبع أخبارها بحرص، ويطالع حسن معاملتها لابنته وأطفال آخرين مثلها، ويسأل عنها، رغم أن حياتها كتاب مفتوح للجميع، وسيرتها أشهر من نارٍ على سارية فوق الجبل، والكل يعرف أحوال سجاح التميمة قبل الإسلام وبعده.

كان زامل بن فهيرة رجلًا ذا أصلٍ وفخرٍ من بطون تميم، وهو أحد أفرع شجرة العائلة التميمية التي تتحدر منها سجاح بنت الحارث التميمي. أربعيني العمر، وسيمٌ طويل، مستقيم العود، أسمر اللون، له شعرٌ أسود ناعم كثيف، يهوى أن يتركه يسترسل على كتفيه، ونادرًا ما يقصه.

تقرب إليها بلطف، وتودد كثيرًا، عسى الله أن يفتح له قلبها، وأخبرها بما قالته صغيرته بغفوية.

تبسمت التميمة حياءً وخجلًا، ولم تنطق أو تعلق، سوى بمدح ابنته والثناء عليها لحبها للقرآن وسرعة حفظها للآيات.

مرت الأيام، وتفاقت كعادتها إلى الأمام، وعاد زامل يُلح على سباح أن
تقبل عرض صغيرته اليتيمة، لتكون له زوجة، وتكون للصغيرة أمًا بديلة.
لكن سباح لم تقبل العرض ولم ترفضه، إنما تركت الباب مفتوحًا، وقالت
له:

— إن الزواج للمرة الثالثة أمرٌ صعب يا زامل، بعد تجربتين قصيرتين
مؤلمتين بالنسبة لي، لكن أمهلني بعض الوقت لأفكر.
وبعد شهر عاد يسألها، فقالت:

— لا أريد شيئًا يشغلني عن ربي وكتابه الكريم وعباداته وسنة نبيه.
قال زامل بإصرار:

— وهذا ما أريده لك، ولسوف أساعدك في أن تكوني دائمًا في خدمة الله
وطاعته، ولن أعطلك أبدًا عن العبادة، بل سأكون سندًا لك، يا بنت
العم. ألا تدرين أن سر إعجابي بك هو حبك لله ورسوله والقرآن؟!
لانت قليلًا، وتبسمت مسرورة، ثم قالت:

— لكني مررت بتجربتين مريرتين في الزواج.

قال زامل مشجعاً:

– الثالثة ستكون تجربة سعيدة بمشيئة الله، وسيعوضك الله بها خيراً،
ويعوضني بك خيراً.

قالت مازحةً بصوتٍ خجول:

– لا أريد أن يكون مصيرك مثل مصير أبي كحيلة ومسيلمة!
ضحك قائلاً:

– الأعمار بيد الله، لا يهم كيف سيأتي الموت وفي أي صورة، المهم الآن
أن تقبلي بي زوجاً لك، وأماً لابنتي التي تحبك كثيراً.
بدلالٍ ورقة همست:

– ابنتك هي التي تحبني يا زامل؟!

– الناس كلهم يحبونك يا سجاح.

– لا يهمني الناس.

– ومن الذي يهمني إذن؟!

– يهمني الرجل الذي يريد أن يتزوجني، يا ابن فهيرة.

– أقسم بالله يا سباح، أني أحبك حبًا أكبر من جبل أحد، وأعظم من صحراء جزيرة العرب.

ضحكت، ولاذت بالصمت قليلًا، ثم قالت:

– الأمر لله، على بركة الله، رضيت بك زوجًا، يا زامل.

كاد الرجل يطير فرحًا، وتهلل وجهه، وهتف:

– الله أكبر... الله أكبر... ما أسعدني بك، يا جميلة جميلات قبائل تغلب وقيم.

كشّرت لائمهً بدلال:

– قبائل تغلب وقيم فقط؟

تدارك نفسه بسرعة:

– لا... لا... أنت جميلة جميلات نساء العرب أجمعين.

وعلى الفور تزوجها، وعاشا في مدينة البصرة، وهي مدينة صغيرة هادئة أحبها سباح وارتاحت فيها، وظلت على عهدا برها وبكتاب الله، عاكفة على الصلاة بانتظام، والصيام يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولا تكف عن قراءة القرآن وحفظه وتجويده وتلقينه للصغار؛ لعلها تكفر عن خطيئتها بتضليل الكبار من قبل. ولم تكن تتوقع أبدًا أن يرزقها الله

بالأطفال من زامل، رغم أنها كانت سعيدة وراضية بدور الأمومة الذي تمارسه مع طفلته، لكن مشيئة الله فوق كل مشيئة.

رزقها الله بولدين توأم، أطلقت على أحدهما اسم محمد، والثاني أبا بكر، وكانت سعادتها لا توصف، وهي أم لطفلين وسمين يشبهانها كثيراً، ويملآن حياتها أملاً وبهجة، ويوثقان علاقتها بزوجها الطيب زامل العمر كله.

ولم يكن يخفى على زوجها، وغيره من الناس في البصرة وغير البصرة، سر اختيارها لهذين الاسمين الغاليين على قلبها وقلوب كل المسلمين في الجزيرة العربية وغيرها من البلاد.

أرادت ببساطة أن تخلد ولديها التوأم باسمي الرجلين الخالدين الأعظم في تاريخ الإسلام: الرجل الأول النبي محمد، والرجل الثاني الصديق أبو بكر.

وعندما وصل هذا الخبر إلى الصديق أبي بكر، خليفة المسلمين في المدينة المنورة، على لسان يربوع، قال الخليفة:

— ما شاء الله... بارك الله لها فيهما، وجعلهما ذرية طيبة تهتدي بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. أحسنت سجاح فعلاً، لقد أردنا لها الموت، وأرادت لنا الحياة، سبحان الله... هنيئاً لها بفضل ربها.



3 ديسمبر

دار سجاح / البصرة

55 هجرية / 675 م

في الليلة الخامسة من رمضان، شهر الصيام والقرآن، أعدت السحور
لزوجها وأولادهما، وبعده مباشرة استأذنته في التفرغ للصلاة وتلاوة القرآن
حتى يحين موعد صلاة الفجر.

تبسم زامل راضيًا ممتنًا، ودعا لها أن يتقبل الله صيامها وقيامها وصلواتها
وطاعتها، وظلت هكذا إلى أن حان موعد الفجر، وبدأت تصلي في غرفة
مخصصة لصلواتها واعتكافها.

لكن الصلاة طالت، ومر وقت طويل، ولم تعد إلى فراشها بجوار زوجها،
كعادتها بعد صلاة الفجر. ناداها زامل فلم ترد عليه، حسبها نامت في
خلوتها أثناء الصلاة. كرر النداء عليها بصوتٍ خفيض حتى لا يزعج الأولاد
في الغرفة المجاورة، فلم يسمع لها صوتًا.

نهض متثاقلاً من مضجعه، فوجدها ساجدة لا تحرك ساكناً، كأنها تمثالٌ
ساجد على الأرض. تسمر واقفاً بالقرب منها ينتظر أن تنهض، لكنها أبداً
لم تفعل، فاقترب منها أكثر، ومد يده يهزها برفق:

– سباح... سباح.

مالت على جنبها الأيمن من أثر هزاته لها، ولم تتطق. ركع على ركبتيه،
وصار أقرب ما يكون إليها، يحاول أن يعرف لماذا هي صامتة هكذا.

ورفع رأسها، وتحسس وجهها، ولا حياة فيها. عندئذ عرف أن السر-
الإلهي قد صعد إلى السماء، وغادرت الروح الطاهرة هذه الدنيا الفانية
الغادرة، فردد بدموع ساخنة وقلبه يحترق من هول الصدمة:

– سباح... سباح... انهضي أرجوك، لا تفارقينا... لا تتركينا وحدنا.

لكن لا حياة لمن تنادي... ماتت التسمية صائمة، وقُبضت ساجدة. إنا لله
وإنا إليه راجعون.

رغم خطيئتها الأولى بإعلان النبوة، إلا أن اعتناقها للإسلام، وحفظها
للقرآن، وزهدها في حطام الدنيا، وقرعها واعتكافها للعبادة، وتحفيظ
القرآن للصغار، قد جعلها دائمة الاحترام في عيون المسلمين وقادتهم.
وعندما توفيت، وهي ساجدة صائمة تصلي عام 55 هجرية الموافق 675

ميلادية، حزن عليها الجميع، وبكاها أهل البصرة أجمعين، وصلوا عليها
(صلاة الجنازة) خلف والي البصرة وإمامهم في الصلاة (سمرة بن جندب)،
التابع لخليفة المسلمين.

ذهبت سباح التيمية إلى ربها، وصوت القرآن الذي أحبته، وعكفت على
تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، يدوي في وداعها عذباً ملائكياً، بآياتٍ
من سورة البقرة:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]

تمت بحمد الله

من سجلات التاريخ:

استأنست في تدوين هذه الرواية، التي تدور أحداثها أثناء العصر الجاهلي وفي فجر الإسلام، بعدد كبير من السجلات التاريخية والمصادر العلمية والدراسات البحثية عن تلك الفترة المدهشة الحافلة بالأحداث والمفاجآت من تاريخ جزيرة العرب.

ومن حق القارئ الشغوف بمقارنة الحقيقة بالخيال أن يطلع عليها ويستوثق منها، ولسوف يدرك أن المؤلف لم يبرح الوقائع التاريخية والأحداث الحقيقية إلا للضرورة الفنية القصوى، رغم أن الخيال جامع، وقصص التاريخ ليست عصية على الترويض.

ويظل هؤلاء هم الأصدقاء الذين استعنت بهم، وفتشت في سجلاتهم من أمهات كتب التراث، وعشت معهم في الماضي:

1- العرب قبل الإسلام / سيد القمني.

2- البداية والنهاية / ابن كثير.

- 3- فتوح البلدان / لأحمد البلاذري.
- 4- البدء والتاريخ / المطهر المقدسي.
- 5- الكامل في التاريخ / عز الدين بن الأثير.
- 6- المنتظم في تاريخ الأمم / ابن الجوزي.
- 7- تجارب الأمم وتعاقب الهمم / أبو علي بن مسكويه.
- 8- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي.
- 9- محاسن النساء / الأندلسي.
- 10- الأغاني / الأصفهاني.
- 11- إمتاع الأسماع / المقرئ.
- 12- جمهرة أنساب العرب / ابن حزم.
- 13- تاريخ الرسل والملوك / الطبري.
- 14- كتاب الردة / الواقدي.
- 15- الروض العاطر في نزهة الخاطر.

16- نهاية الأرب / النويري.

17- التعريف بالأنساب / الأشعري.

18- العقد الفريد / ابن عبد ربه.

19- التاريخ / اليعقوبي.

20- تاريخ الإسلام / شمس الدين الذهبي.

المؤلف:

نصر رأفت

كاتب روائي وإعلامي مصري.

حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة القاهرة، ودبلوم الدراسات العليا في الإبداع الأدبي والفني من أكاديمية الفنون.

عمل بالصحافة في مؤسسة (أخبار اليوم) لمدة عشر سنوات، ثم انتقل إلى العمل بالإذاعة والتلفزيون، وحاليًا يعمل مذياعًا في إذاعة صوت العرب، ويشغل في نفس الوقت منصب مدير المذيعين والمراسلين.

الأعمال الإبداعية:

صدرت له مجموعة من الروايات والأعمال الأدبية عن كبرى دور النشر- المصرية والعربية، منها: رواية (عاشق القبيحات) عن دار الفاروق للنشر، ورواية (الأرملة الأولى) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ورواية (ماسبيرو) عن دار نشر- مدبولي، ورواية (سمو الأميرة) عن مركز الحضارة العربية للنشر، ورواية (كاتمة الأسرار) الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ورواية (الأفيال تختبئ لتموت) عن مركز الحضارة العربية للنشر، ورواية (الرجال قوامون على النساء) عن دار طرفة للنشر، ورواية (محكمة الأسرة) عن دار القاهرة اليوم للنشر ودار الشمس للنشر، ورواية (كفر الصارم العظمى)، ورواية (الدنيا على كف عفريت)، ورواية (التاريخ السري للسيدة الأولى) عن دار الوصل الإماراتية للنشر، ورواية (الخور العين) الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة.



الجوائز والتكريمات:

اختارت جامعة (جورج تاون) في واشنطن روايته (الرجال لا يعرفون الرحمة) لتدريسها لطلابها، كأفضل رواية تتناول الحياة في القرية المصرية في السنوات العشر الأخيرة.

اختارت كلية الآداب / جامعة بغداد روايته (الجورنالجي) لتكون ضمن رسالة دكتوراه في الأدب العربي تحت عنوان (الصحافة في الرواية العربية).

وصلت روايته (كفر الصارم العظمى) إلى القائمة الطويلة في جائزة الكاتب الكبير محمد عبد الحليم عبد الله للرواية عام 2025 م.

للتواصل مع المؤلف

002 / 01153064411

nasrraafat@yahoo.com